

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

الجزء الأول

فهرس الجزء الأول

صفحة	
(ح)	ترجة أبى عبد الله القرطبي
١	خطبة الكتاب
	باب ذكر حمل من فضائل القرآن والترغيب فيه ، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه
٤	والعامل به
١٠	باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم ، واختلاف الناس في ذلك
١٧	باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره
٢٠	باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه
٢٣	باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه ، وثواب من قرأ القرآن معرباً
٢٦	باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله
٢٦	باب ما جاء في حامل القرآن ، ومن هو ، وفيمن عاده
٢٧	باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة
	باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأى ، والجرأة على ذلك ، ومراتب
٣١	المفسرين
٣٧	باب تبين الكتاب بالسنة ، وما جاء في ذلك
	باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما جاء
٣٩	أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه
	باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف
٤١	فاقرءوا ما تيسر منه "
	باب ذكر جمع القرآن ، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها ، وذكر من
٤٩	حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ...

صفحة

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ؛ ونقطه وتحزيبه وتعشيره ، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه	٥٩
باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف	٦٥
باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ؟	٦٨
باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها	٦٩
باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره	٧٨
باب ما جاء من الحجّة فى الرد على من طعن فى القرآن ، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان	٨٠
القول فى الاستعاذة ، وفيها اثنتا عشرة مسألة	٨٦
الكلام على البسملة ، وفيها سبع وعشرون مسألة	٩١
تفسير سورة الفاتحة ، وفيها أربعة أبواب	١٠٨
الباب الأول فى فضائلها وأسمائها ، وفيه سبع مسائل	١٠٨
الباب الثانى فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة	١١٤
الباب الثالث فى التأمين ، وفيه ثمان مسائل	١٢٧
الباب الرابع فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب ، وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة	١٣١
تفسير سورة البقرة	١٥٢
ذكر الأقوال الواردة فى أوائل السور المفتحة بالحروف	١٥٤
بحث فى إقامة الصلاة	١٦٤
بحث فى الرزق	١٧٧
ذكر أقوال العلماء فى إمساك النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بتفاهتهم	١٩٨
ذكر ما قيل فى خلق السموات والأرض	٢٥٤
بحث فى الخليفة وتنصيبه	٢٦٤

صفحة	
٢٧٩	بحث في كيفية خلق آدم عليه السلام واشتقاقه
٢٨٢	ذكر اختلاف العلماء في معنى الأسماء التي علمها آدم
٢٨٩	بحث في أيما أفضل : الملائكة أم بنو آدم ؟
٢٩٤	بحث في إبليس لعنه الله
٣٠٥	ذكر الخلاف في الشجرة، وكيف أكل منها
	مطلب في الأنبياء، وهل وقع منهم صلوات الله عليهم صغائر من الذنوب يؤخذون
٣٠٨	بها ويعاتبون عليها أم لا ؟
٣٢٣	بحث في الكلمات التي تلقاها آدم
٣٣٥	بحث في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم، واختلاف العلماء في هذا
٣٤٣	بحث في الزكاة
٣٤٤	بحث في معنى قوله : «واركعوا مع الراكعين» وجملة من أحكام الصلاة
٣٨٩	ذكر اختلاف العلماء في كيفية إنجاء بنى إسرائيل
٣٩١	بحث في يوم عاشوراء، وهل هو اليوم التاسع من المحرم أو العاشر ؟
٤١٧	بحث في الاستسقاء
٤٢٦	بحث في أكل البصل والثوم، واختلاف العلماء فيه
٤٣٦	القول في سبب رفع الطور
٤٤٠	ذكر اختلاف العلماء في المنسوخ هل ينسل أو لا
٤٥٥	بحث في معنى قوله : «وإذ قتلتم نفسا» وسبب القتل
٤٥٧	بحث في القسامة وأحكامها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالآيات
البينات .

هذا ، وإن الله جلت قدرته ، قيض لهذا الدين القويم ، حامى حمى الإسلام ، ورافع
مناره ، حضرة صاحب الجلالة ، الملك المعظم ”فؤاد الأول“ ملك مصر . فأصدر أمره
الكريم خدمة لهذا الدين المتين ، بأن يطبع المصحف الشريف ، على رسم مصحف
أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأن يضبط بما اتفق عليه أئمة القراء ؛ فقابل
المسلمون في جميع بقاع الإسلام نشر هذا المصحف الكريم بقلوب فرحة ، وصدور منشرة ،
وعدوا أمر جلالاته بطبعه مفخرة من مفارح عصره الذهبي .

ولما كان التفسير الجليل ، لأبي عبد الله القرطبي ، المسمى ”الجامع لأحكام القرآن“
تفسيرا ممتازا ، ذائع الشهرة بين علماء الإسلام ، اقترحت على المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية
طبعه ونشره ، ليكون مفخرة أخرى من مفارح هذا العصر الزاهر ؛ فقرر طبعه ونشره ،
ورغب إلى في القيام بمراجعته وتصحيحه ، فقابلت هذه الرغبة بحملى الشكر ، وعظيم الاغتراب ؛
علما منى بأن في مراجعة هذا التفسير وتصحيحه خدمة لكتاب الله تعالى ، أرجو أن أنال بها
جميل رضوانه وعظيم مغفرته . وقد تم والله الحمد والمنة ، طبع الجزء الأول منه في عهد حضرة
صاحب الجلالة ملك مصر المعظم ”فؤاد الأول“ حفظه الله وأيد ملكه ، وأقر عينه
بصاحب السمو الملكي ولي عهده المحبوب الأمير ”فاروق“ حفظه الله ، ومتعه بالعقل الراجح ،
والفكر الصائب ، والخلق المحمود ، في ظل عرش والده الظليل ما

محمد البيلاوى

نقيب الأشراف ومراقب إحياء الآداب العربية

بدار الكتب المصرية

ترجمة أبي عبد الله القرطبي

(*) مؤلف هذا التفسير

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (بإسكان الراء وبالحاء المهملة) الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف.

مؤلفاته - جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في اثني عشر مجلدا، سماه كتاب "الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنت من السنة وآي الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وهو هذا التفسير. وله كتاب "الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى". وكتاب "التذكار، في أفضل الأذكار"، وضعه على طريقة التبيان للنووي، لكن هذا أتم منه وأكثر علما. وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التقصى". وكتاب "قع الحرص بالزهد والقناعة"، وردّ ذل السؤال بالكتب والشفاعة"، قال ابن فرحون: لم أفق على تأليف أحسن منه في بابيه. وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم". وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هذا، وكان مطّرحا للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفع الطيب: لانه من الراحلين من الأندلس.

شيوخه - سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه "المفهم، لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم".

وحدث عن الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد البكري، وحدث أيضا عن الحافظ أبي الحسن عليّ بن محمد بن عليّ بن حفص البجلي وغيرهما.

وكان مستقرا بمنية ابن خصيب، وتوفي ودفن بها في ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ رحمه الله ورضي عنه.

(*) عن الدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون، ونفع الطيب للقرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن قرّح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي رضي الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الربّ الصمد الواحد ، الحي القيوم الذي لا يموت ، ذو الجلال والإكرام ، والمواهب العظام ، والمتكلم بالقرآن ، والخالق للإنسان ، والمنعم عليه بالإيمان ، والمرسل رسوله بالبيان ، محمداً صلّى الله عليه وسلّم ما اختلف الملوك^(١) ، وتعاقب الحديدان ، أرسله بكتابه المبين ، الفارق بين الشك واليقين ، الذي أعجزت الفصحاء معارضته ، وأعيت الألباء مناقضته ، وأخرست البلقاء مشاكسته ، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . جعل أمثاله عبراً لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها ، وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، وكرّره في المواعظ والقصص للفهم ، وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار ، فقال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . خاطب به أوليائه ففهموا ، وبين لهم فيه مراده فعلموا ، فقرأ القرآن حملاً سرّاً الله المكنون ، وحفظه علمه الخزون ، خلفاء أنبيائه وأمناءه ، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياءه ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّ اللَّهَ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ » قالوا : يا رسول الله ، من هم ؟ قال : « هم أهل القرآن أهل الله وخاصته » أخرجه ابن ماجه في سننه ، وأبو بكر البزار في مسنده . فما أحقّ من علم كتاب الله أن يزدهر بنواحيه ، ويتذكر

(١) الملوك : الليل والنهار .

ما شرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ، ويراقبه ويستحييه ؛ فإنه قد حمل أعباء الرسل ، وصار شهيدا في القيامة على من خالف من أهل الملل ؛ قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » . ألا وإن الحجّة على من عليه فاعفله ، أو كد منها على من قصر عنه وجهله . ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيها فلم يرتدع ؛ وارتركب من المآثم قبيحا ، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجة عليه ، وخصما لديه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القرآن حجة لك أو عليك » نحرجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ؛ ويفقه عجائبه ، ويتبين غرائبها ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » . وقال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ، ويتدبره حق تدبره ؛ ويقوم بقسطه ، ويوفى بشرطه ، ولا يلتبس الهدى في غيره ؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجلا ، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ، وميزة التفويض إليه ؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نيه على معانيه ، وأشار إلى أصوله لينوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد ؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بشواب اجتهادهم ؛ قال الله تعالى : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا ، واستنباط العلماء إيضاها وتبيانا ؛ فالحمد لله الذي جعل صدورنا أوعية كتابه ، وأدانتنا موارد سنن نبيه ؛ وهممتنا مصروفة إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رضا رب العالمين ، ومتدربين به إلى علم الملة والدين .

(وبعد) : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع ، الذي استقل بالسنة

والفرض ، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمري ، وأستفرغ

فيه مُنْتَى^(١)؛ بَأَن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن نكحا من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعاً بين معانيهما ، ومبيناً ما أشكل منهما ، بأقوال السلف ، ومن تبعهم من الخلف ، وعملته تذكرة لنفسى ، وذخيرة ليوم رمسى ، وعملاً صالحاً بعد موتى . قال الله تعالى : « يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » . وقال تعالى : « عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

وشرطى فى هذا الكتاب إضافة الأقوال الى قائلها ، والأحاديث الى مصنفها ، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله . وكثيراً ما يجهل الحديث فى كتب الفقه والتفسير مبهماً ، لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً ، لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى من أخرجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نشير الى جمل من ذلك فى هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين ، واعتضت من ذلك تبيين أى الأحكام بمسائل تفسر عن معانيها ، وترشد الطالب الى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكماً فما زاد ، مسائل نبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم ، فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا الى آخر الكتاب .

وسميته بـ (الجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمنته من السنة وآى الفرقان) ، جعله الله خالصاً لوجهه ، وأن ينفعني به ووالدى ومن أراد به من الله ، إنه سميع الدعاء قريب مجيب ، آمين .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه

وقارنه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألفت فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نكتاً تدل على فضله، وما أعد الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به* . فأقول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلام من ليس كمثل شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ند، فهو من نور ذاته جل وعز، وأن القراءة أصوات القراء ونفائهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حال الإيجاب في بعض العبادات، ونديها في كثير من الأوقات، ويزجرون عنها إذا اجنبوا، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودل عليها المستفيض من الأخبار، ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكت بشقله، أو لتضعضت له وأنى تطبيقه، وهو يقول — تعالى جده — وقوله الحق : « لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَائِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » . فإين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلاً منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب — فأقول ذلك ما أخرجه الترمذي

عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الدارمي السمرقندي في مسنده عن عبد الله قال : السبع الطول مثل التوراة، والمثون مثل الإنجيل، والمثنائي مثل الزبور، وسائر القرآن بعد فضل . وأسند عن الحارث

(١) عن علي رضي الله عنه ونرجه الترمذي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 ” ستكون فتن كقطع الليل المظلم قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله
 تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه
 من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر
 الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشعب
 معه الآراء ولا يشعب منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو
 الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق
 ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أحرور“ .
 الحارث ، رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما نقم عليه
 إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره ، ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبي لأن
 الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر ، وإلى أنه أول من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر :
 وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : حدثني الحارث وكان أحد الكذابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب « الرد
 على من خالف مصحف عثمان » عن عبد الله بن مسعود : قال قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : ” إن هذا القرآن مادية الله فتعلموا من ماديته ما استعظمتم إن هذا القرآن هو حبل الله
 النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من أتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيع
 فيستعيب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن رد قائلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر
 حسنات أما إنى لا أقول ألم حرف ولا ألفين أحدكم واضعا إحدى رجله يدع أن يقرأ سورة
 البقرة فإن الشيطان يفتن من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر البيوت من الخير
 البيت الصغير من كتاب الله“ . وقال أبو عبيد في غريبه عن عبد الله قال : إن هذا القرآن مادية

(١) ورد هذا الحديث في صحيح الترمذي (ج ٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) مع اختلاف في بعض كلماته ،

وزيادة وقص . (٢) قوله : يا أحرور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور في سند هذا الحديث .

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتاويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه . يقال : مأدبة ومأدبة ، فمن قال : مأدبة ، أراد الصنيع بصنعه الانسان فيدعو اليه الناس . ومن قال : مأدبة ، فانه يذهب به الى الأدب ، يجعله مفعلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : ” إن هذا القرآن مأدبة الله عز وجل فتعلموا من مأدبته “ . وكان الآخر يجعلهما لغتين بمعنى واحد ، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره ؛ [قال :] والتفسير الأول أعجب الى .

وروى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” خيركم من تعلم القرآن وعلمه “ . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر “ . وفي رواية : مثل الفاجر ، بدل المنافق . وقال البخارى : ” مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل البقرة “ وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشيم ، ح . وأنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب : أن أبا عبد الرحمن

(١) جرت العادة بالانقصار على الرمز في حديثنا وأخبرنا ، واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حديثنا « ثا » وهى التاء والنون والألف ، وربما حذفوا التاء . ويكتبون من أخبرنا « آنا » ولا تحسن زيادة الباء قبل « نا » ؛ وإذا كان لحديث اسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من اسناد الى اسناد « ح » وهى حاء مهمله ؛ واختارناها مأخوذة من التحول ، فتحوله من اسناد الى اسناد ، وأنه يقول القارى إذا انتهى إليها : « ح » ويستمر في قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين إذا جاز ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشئ ؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : « الحديث » . وإن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وصلوا إليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد في كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة في صحيح مسلم ، قليلة في صحيح البخارى . (عن مقدمة التوى على صحيح مسلم)

السلمى - كان إذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عملت بالذى علمت . وروى الدارمي عن وهب الدماري - قال : من آتاه الله القرآن فقام به آتاء الليل وآتاء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السفارة والأحكام . قال سعيد السفره : الملائكة ، والأحكام : الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتنمّع فيه وهو عليه شاق له أجران " . التنمّع : التردد في الكلام عيا وصعوبة ؛ وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله ، لأنه قد كان القرآن متعنا عليه ، ثم ترقى عن ذلك الى أن شبه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف " . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفّة ، فقال : " أيكم يحب أن يغدو كل يوم الى بطحان أو الى العقيق فيأتى منه بناقتين كؤماوين في غيرائهم ولا قطع رحم " فقلنا : يا رسول الله ، كلنا نحب ذلك ؛ قال : " أفلا يغدو أحدكم الى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل " . وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه " .

(١) سعيد هذا ، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى التنوخي ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفي الأصول :

«سعد» وهو بحريف . (٢) هكذا في نسخ الأصل وسنن الدارمي . ولعل الفرض وذو الأحكام أو هو جمع

حكيم كحريف وأشرف أو حكم كبطال وأبطال . (٣) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفع وبتشديد اللام

من التلميم ، وبخفيفها من العلم .

في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحقتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه“ .

وروى أبو داود والنسائي والدارمي والترمذي عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”الجاهل بالقرآن كالجاهل بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة“ قال الترمذي : حديث حسن غريب . وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”يحيى القرآن يوم القيامة فيقول يا رب حلة فلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب أرض عنه فيرضى عنه فيقال له اقرأ وأرق ويزاد بكل آية حسنة“ . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرتق وأرتق كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها“ . وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه“ .

وأسند أبو بكر الأنباري عن أبي أمامة الحمصي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى إليه ويقال له يوم القيامة اقرأ وأرق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له أقبض فيقبض ثم يقال له أتدري ما في يديك فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعم“ .

حدثنا إدريس بن خلف حدثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوة ومن أخذ

(١) الذي في نسخ الأصل : « يحيى صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذي .

نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوة ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها . قال : وحدثنا محمد بن يحيى المروزي أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كُلُّ قد وجبت له النار" . وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضي الله عنها : إن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن . ذكره أبو محمد مكي . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن وآتبع ما فيه هداية الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى » . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ؛ ذكره مكي أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن ؛ لقول الله جل ذكره : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . ولعل من الله واجبة .

وفي مسند أبي داود الطيالسي (١) — وهو أول مسند ألف في الإسلام — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين" . والآثار في معنى هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرنا كفاية ، والله الموفق للهداية .

(١) قوله : « وهو أول مسند ... الخ » . قال صاحب كشف الظنون : « والذي حمل هذا القول تقدم عصره على أعصار من صنف المائيد ، وظن أنه هو الذي صنفه وليس كذلك ، فانه ليس من تصنيف أبي داود ، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصة عن أبي داود . ولأبي داود من الأحاديث التي لم تدخل هذا المسند قدره أو أكثر ؛ كما ذكره البقاعي في حاشية الألفية » . وقد توفي الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم وأختلاف الناس في ذلك

روى البخاري عن قتادة قال : سألت أنسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
كان يمدّ مداً [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمدّ بسم الله ، ويمدّ بالرحمن ، ويمدّ بالرحيم .
وروى الترمذي عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته
يقول : ” الحمد لله رب العالمين . ثم يقف . الرحمن الرحيم . ثم يقف . وكان يقرأ : ملك
يوم الدين “ . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” أحسن الناس صوتاً من إذا قرأ
رأيت يهشئ الله تعالى “ . وروى عن زياد النميري أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك ف قيل له :
اقرأ . فرفع صوته وطرب ، وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه
خرقة سوداء فقال : يا هذا ، ما هكذا كانوا يفعلون ! وكان إذا رأى شيئاً يكره كشف الخرقة
عن وجهه . وروى عن قيس بن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يكرهون رفع الصوت عند الذكر . ومن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن
سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم بن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم ،
وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل ، كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه . روى
عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرب في قراءته ، فأرسل إليه
سعيد يقول : أصلحك الله ! إن الأئمة لا تقرأ هكذا . فترك عمر التطريب بعد .
وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلاً قرأ في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فطرب ، فأنكر
ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » الآية .

وروى عن مالك أنه سئل عن التبر في قراءة القرآن في الصلاة ، فأنكر ذلك وكرهه كراهة
شديدة ، وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه أنه سئل عن الألحان في الصلاة

فقال : لا يعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به ، وذلك لأنه إذا أحسن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، واحتجوا بقوله عليه السلام : ” زينوا القرآن بأصواتكم ” رواه البراء بن عازب . أخرجه أبو داود والنسائي . وبقوله عليه السلام : ” ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ” أخرجه مسلم . ويقول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرت لك تحبيراً . وبما رواه عبد الله بن مفضل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسير له سورة «الفتح» على راحلته فرجع في قراءته . ومن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شميل ، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطلال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم .

قلت : القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتي . وأما ما احتجوا به من الحديث الأول فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ، أي زينوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابي : وكذا فسر غير واحد من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا : هو من باب المقلوب ؛ كما قالوا : عرضت الخوض على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الخوض . قال : ورواه معمر عن منصور عن طلحة ، فقدم الأصوات على القرآن ، وهو الصحيح . قال الخطابي : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوف عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” زينوا القرآن بأصواتكم ” . أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعاراً وزينة ؛ وقيل : معناه الخوض على قراءة القرآن والدءوب عليه . وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” زينوا أصواتكم بالقرآن ” . وروى عن عمر أنه قال : ” حسّنوا أصواتكم بالقرآن ” .

قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : ” ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ” أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن ؛ كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مر بنا أبو كبابة فاتبعناه

حتى دخل بيته ، فاذا رجل رث الهيئة ، فسمعتة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد ، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ قال : يحسنه ما استطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن ، وزينته ورتلته . وهذا يدل أنه كان يهتد في قراءته مع حسن صوته الذي جُبِل عليه . والتحجير : الترين والتحسين ؛ فلو علم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لمدة في قراءته ورتلها ، كما كانت يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأول هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُخَوِّج القرآن إلى من يزينه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضياؤه . وقد قيل : إن الأمر بالترين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتها وتقدير ذلك ، أي زينوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أي قراءة الفجر ، وقوله : « فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ » أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام ، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا . أي قراءة . وقال الشاعر في عثمان رضي الله عنه :

صَفَّوْا بِأَشْمَطِ عُنَاوُنِ السَّجُودِ بِهِ * يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقِرْآنًا ^(١)

أي قراءة ، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدها . على ما نبهناه - فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنى به ، يستغنى به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار ، لا من الغناء ؛ يقال : تغنيت وتغنايت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنى

(١) اهتد والهدى : سرعة القطع وسرعة القراءة .

(٢) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٣) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب الهية .

الرجل بمعنى استغنى ، وأغناه الله . وتغنوا أى استغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حبياء التميمي :

كَلَّا نَا غَنَى عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ * وَنَحْنُ إِذَا مُنَّا أَشَدُّ تَغَانِيَا

والى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وقاص . وقد روى عن سفيان أيضا وجه آخر ، ذكره اصحاق بن راهويه ، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . والى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » . والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم ، قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنى به يتحزن به ، أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضد السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية ؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغنى به ، ولم يقل يتغنى به . ذهب الى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد ابن حبان البستي ، واحتجوا بما رواه مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . الأزيز (بزاين) : صوت الرعد وغيان القدر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزن ؛ وعَضَدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » فقرأت عليه سورة « النساء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فنظرت اليه فاذا عيناه تدمعان . فهذه أربعة تأويلات ، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابي فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : كانت العرب تُولع بالغناء والنشيد فى أكثر أحوالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجراهم مكان الغناء ؛ فقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .

التأويل الخامس — ما تأوله من استدل به على الترجيع والتطريب ؛ فذكر عمر بن شبة قال : ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة فى قوله : يتغن . يستغنى ؛ فقال :

لم يصنع ابن عيينة شيئا . وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء لقال : من لم يستغن ، ولكن لما قال : "يتغن" ، علمنا أنه أراد التغنى . قال الطبري : المعروف عندنا في كلام العرب أن التغنى إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغْنُّ بِالشَّعْرِ مَهْمَا كُنْتَ قَائِلَهُ * إِنْ الْغِنَاءَ بِهَذَا الشَّعْرِ مِضَارُ

قال : وأما أدعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وَكُنْتُ أَمْرًا زَمَنًا بِالْعِرَاقِ * عَفِيفَ الْمُنَاخِ طَوِيلَ التَّغْنِ

وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه ، وإنما عني الأعشى في هذا الموضع الإقامة ، من قول العرب : غني فلان بمكان كذا أي أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا » وأما استشهاده بقوله :

* وَنَحْنُ إِذَا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا *

فإنه إغفال منه ، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا في فعل الاثنين لم يجوز أن يقول مثله في الواحد . غير جائز أن يقال : تغاني زيد وتضارب عمرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنى بمعنى استغنى .

قلت : ما أدعاه الطبري من أنه لم يرد في كلام العرب تغنى بمعنى استغنى ، فقد ذكره الجوهري كما ذكرنا ، وذكره الهروي أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من اثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت أاحتلام . وتقول العرب : طارقت النعل وعاقبت اللص ودأبت العليل ، وهو كثير ؛ فيكون تغاني منها . وإذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام : " يتغن " الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر ، بل حمله على الاستغناء أولى لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مروى عن

صحابي كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة ، ومعلوم أنه رأى الشافعي وعاصره .

وتأويل سادس - وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ^(١) " ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتفنى بالقرآن يجهر به " . قال الطبري : ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى . قلنا قوله : يجهر به لا يخلو أنت يكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من قول أبي هريرة أو غيره ، فإن كان الأول وفيه بعد ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ؛ لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أي يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : ^(٢) " أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصم ولا غائباً " الحديث ، وسيأتي . وكذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالى به غائياً ، وفعله ذلك غناءً وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسر الصحابي ، وهو ألهم بالعلماء .

وقد احتج أبو الحسن بن بطلال لمذهب الشافعي فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة قال حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^(٣) " تعلموا القرآن وغنوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده لو أشد تفصيلاً من المخاض من العقل " . قال علمائنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيرده ما يعلم على القطع والبيات من أن قراءة القرآن تلقيناً متواترة عن كافة المشايخ ، جيلاً بجيل إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوي : يعني ما رضى الله من السموعات شيئاً هو رضى عنده ولا أحب إليه من قول نبي يتفنى بالقرآن ، أي يجهر به ويحسن صوته بالقراءة بخشوع ورتيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة . (٢) قوله : أربعوا . أي كفروا وادفخوا . (٣) القصي : الغلت والخروج .

ولا تطريب ، مع كثرة المتعقبات في مخارج الحروف وفي المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات . ثم إن في الترجيع والتطريب قهزاً ما ليس بمهموز ومد ما ليس بممدود ، فترجع الألف الواحدة الفات والواو الواحدة واوات ^(١) والشبهة الواحدة شبهات ، فيؤدى ذلك الى زيادة في القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيروها نبرات وهمزات ، والنبرة حينما وقعت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا غير ، إما ممدودة وإما مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مفضل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير له سورة « الفتح » على راحلته فترجع في قراءته ، وذكره البخاري وقال في صفة الترجيع : آء آء ، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المد في موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة ، كما يعتري رافع صوته اذا كان راكباً من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب ، واذا احتتمل هذا فلا حجة فيه . وقد نرج أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحاً سهلاً وإلا فلا تؤذن " . أخرجه الدارقطني في سننه . فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك في الأذان فأحرى ألا يجوز في القرآن الذي حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بتريد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق ، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، يأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، وخاب

(١) سبكه المؤلف في باب ذكر معنى السورة والآية الخ . أن شبهات هي الحروف ولم أر هذا التعبير لغيره .

عملهم ، فيستحلون بذلك تفسير كتاب الله ، ويهونون على أنفسهم ألا يجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه ؛ جهلاً بدينهم ، ومروفاً عن سنة نبيهم ، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم ، وزوعاً الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ فهم في غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإن الله وإنا اليه راجعون ؛ لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم في نوادر الأصول من حديث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكآبين وسيعجى ، بعدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الفناء والنوح لا يحاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم" . اللحن : جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والفناء .

قال علماءنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قراء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحن الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع فى القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل فى القراءة هو التأنى فيها والتثمل وتبيين الحروف والحركات تشبهاً بالثغر المرتل ، وهو المشبه بنور الأخوان ، وهو المطلوب فى قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ؛ فقالت : ما لكم وصلاته ! [كان يصلى ثم ينام قدر ما صلى ، ثم يصلى قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح] ، ثم نعتت قراءته ، فاذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . وقال تعالى : « لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . روى مسلم عن أبى هريرة

(١) الزيادة عن سنن الترمذى وأبو داود .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجلٌ استشهد فأُتِيَ به فعزفه نعمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ قال كذبتَ ولكك قاتلتَ لأن يقال جرىءٌ فقد قيل ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقيَ في النار ورجلٌ تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعزفه نعمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال تعلمتُ العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبتَ ولكك تعلمتَ العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئٌ فقد قيل ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقيَ في النار ورجلٌ وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأُتِيَ به فعزفه نعمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال ما تركتُ من سبيلٍ تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكك فعلتَ ليقال هو جوادٌ فقد قيل ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم ألقيَ في النار". وقال الترمذى في هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي ، فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعرجهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة اسمه عبد الله ، وقيل : عبد الرحمن ، وقال : كنت أبا هريرة لأنى حملت هرة في كُمى ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه " قلت : هرة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يُرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار " .

وخرج ابن المبارك في رفاقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيال في سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا " ثم التفت الى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة " . يعنى ربحها . قال الترمذى : حديث

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” تعوذوا بالله من جُبِّ الحزن “ قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : ” وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة “ قيل : يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : ” القراء المراءون بأعمالهم “ قال : هذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إن في جهنم لواديا إن جهنم لتتعوذ من شرِّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرات وإن في ذلك الوادى لجبًّا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوذان بالله من شرِّ ذلك الجبِّ وإن في الجبِّ لحية وإن جهنم والوادى والجب ليتعوذون بالله من شرِّ تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله “ . فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقى الله في نفسه ويخلص العمل لله ؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله . فالذى يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذى عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أنزل الله في بعض الكتب أو أوحى الى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس ^(١) مُسُوكَ الْجَبَّاشِ وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر إياى يخادعون وبنى يستهزئون لأُتَمِّحَنَ لهم فتنة نذر الحليم فيهم حيران “ .

وخرّج الطبري في كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدّثنا المحاربى عن عمرو بن عامر البجلي عن ابن صدقة عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو من حدّثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعُر “ . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يخادع الله ؟ قال : ” تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره وآتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرأى يُدعى يوم القيامة على رموس الأَشْهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافرا يا خاسرا يا غادرا يا فاجرا ضلّ عملك وبطل

(١) المسوك (جمع مسك ، يفتح ثم مسكون) : الجلد .

أجرك فلا خلاق لك اليوم فأتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع“ . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أتم ! إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس فإذا غير منها شيء قيل : قد غيّرت السنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثرت قراؤكم ، وقيل فقهاؤكم ، وكثر أسراؤكم ، وقيل أماناؤكم ، والتسست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقّه لغير الدين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا فأنفضهم الله ، وهانوا على الناس . وروى عن أبي جعفر محمد بن عليّ في قول الله تعالى : « فَكُكِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » قال : قوم وصفوا الحق والعدل بالستهم ، وخالفوه إلى غيره . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يخلص في طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره، في الصلاة أوفى غير الصلاة ثلاثا ينساه . روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره وإذا لم يقرأ به نسيه“ . وينبغي له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستمينا، وإليه راغبا، وبه معتصيا، ولله ذاكرا، وله مستعدا . وينبغي له أن يكون خائفا من ذنبه، واجبا عفوره، ويكون الخوف في صحته أعظم عليه، إذ لا يعلم بما يحتم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه، لحسن الظن بالله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن“ . أي أنه يرحمه ويفرله . وينبغي له أن يكون طالبا بأهل زمانه، متحفظا من سلطانه، ساعيا في خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه، مجاهدا لنفسه في ذلك ما استطاع . وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بلبه إذا الناس نائمون ، وبناهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يخالون ، وبجزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ، ولا يجهل مع من يجهل ، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن ، لأن في جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طرق الشبهات ، ويُقِلَّ الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لافائدة فيه ، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار . وينبغي له أن يتواضع للفقراء ، ويتجنب التكبر والإعجاب ، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة ، ويترك الجدال والمراء ، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغي له أن يكون ممن يؤمن شره ، ويرجى خيره ويُسلم من ضره ، وألا يسمع ممن تمّ عنده ؛ ويصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق ، ويرينه ولا يشبهه . وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن ، يفهم عن الله مراده وما فرض عليه ، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو ؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو ، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه . وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدره ؛ فما مثل من هذه حالته إلا كتل الحمار يحمل أسفارا . وينبغي له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام ، وما نذبههم اليه في آخر الإسلام ، وما اقتض الله في أول الإسلام ، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره . فالمدني هو الناسخ للكي في أكثر القرآن ، ولا يمكن أن ينسخ المكي المدني ؛ لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل النسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب ، فذلك مما يُسهل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبري سمعت الجرمي يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس في الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث ، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث ، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فيها يصل الطالب الى مراد الله عز وجل في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحا ، وقد قال الضحاك في قوله تعالى : « وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ مِمَّا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ » . قال : حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبي الحواري قال : أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ، فقال بعض القوم : إن كان خارجا لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن ، فأمرنا قارئاً فقرأ فأطلع علينا من كوة ، فقلنا : السلام عليك ورحمة الله ، فقال : وعليكم السلام ، قلنا : كيف أنت يا أبا علي ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله في عافية ومنكم في أذى ، وإن ما أتم فيه حدث في الإسلام ، فانا لله وإنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العلم ، ولكنا كنا نأتى المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم ، فنجلس دونهم ونسترق السمع ، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأتم تطلبون العلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، قال : قلنا قد تعلمنا القرآن ، قال : إن في تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ، قلنا : كيف يا أبا علي ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومحكمه من متشابهه ، وناسخه من منسوخه ، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهراً بالقرآن ، وعالمًا بالفرقان ، وهو قريب على من قرب به الله عليه ، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم . فقد يتدنى الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا ، فلا يزال به فقههم العلم حتى يتبين أنه على خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى ، فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا نجترنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثوري . وقال حبيب بن أبي ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد .

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه و ثواب من قرأ القرآن معرباً

قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيه رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذم اللحن وكراهيته ، ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

من ذلك ما حدثنا يحيى بن سليمان الضبي قال حدثنا محمد - يعني ابن سعيد - قال حدثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن جده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أعربوا القرآن واتمسوا غرائبه " . حدثني أبي قال حدثنا إبراهيم ابن الهيثم قال حدثنا آدم - يعني ابن أبي إياس - قال حدثنا أبو الطيب المروزي قال حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ القرآن فلم يعربه وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة " . وروى جوير عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فإنه عربي ، والله يحب أن يُعرب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : لبعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبي قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبوا العرب لثلاث لاني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي " . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن ، قال : أتروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فأقرأه رجل « براءة » ؛ فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله . بالحق ، فقال الأعرابي : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال : يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة « براءة » ، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله ؛ فقلت : أو قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي ؛ قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : « أن الله برئ من المشركين ورسوله » فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ؛ فأمر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .^(١)

وعن علي بن الجعد قال : سمعت شعبة يقول : مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه بخلة لا علف فيها . وقال حماد بن سلمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تعلق عليه بخلة ليس فيها شعر . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل في الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع .

قال ابن الأنباري : وجاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما بين صحة مذهب النحويين في ذلك ، وأوضح فساد مذاهب من أنكروا ذلك عليهم . من ذلك ما حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدثنا ابن أبي مريم قال : أنبأنا ابن فروخ قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة أن ابن عباس قال : إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وحدثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدثنا خلف قال حدثنا حماد بن زيد عن علي بن زيد بن جندان قال سمعت سعيد بن جبيرة ويوسف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبي الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن علي .

عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جل وعز: «وَنِيَابَكَ فَطَهَّرَ» قال: لا تلبس نياباك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفى:

فإني بحمد الله لا ثوب غدير ^(١) لست ولا من سوءة أتقنع

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال: هو ولد الزنا، وتمثل بيت شعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه ^(٢) بغي الأم ذو حسب لثيم

وعنه أيضا الزنيم: الدعى الفاحش اللثيم، ثم قال:

زنيم تداعاه الرجال زيادة ^(٣) كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وعنه في قوله تعالى: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» قال: ذواتا ظل وأغصان، ألم تسمع الى قول الشاعر:

ما هاج شوقك من هدبل حمية ^(٤) تدعو على قنن النصوص حماما

تدعو أبا فوخين صادف طائرا ^(٥) ذا مخيلين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: «فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ» قال: الأرض، قاله ابن عباس. وقال أمية بن أبي الصلت: «عندهم لخم بحرولم ساهرة». قال ابن الأنباري: والرواة يرون هذا البيت:

وفيهما لخم ساهرة وبحر ^(٦) وما فاهوا به لهم مقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله جل وعز: «لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ

وَلَا نَوْمٌ» ما السنة؟ قال: النعاس؛ قال زهير بن أبي سلمى:

لا سِنَّةٌ في طَوَالِ اللَّيْلِ تَأْخُذُهُ * ولا يَنَامُ ولا في أمره فَتَدُ

(١) أورد الألويسي في تفسيره روح المعاني هذا البيت عند قوله تعالى «وَنِيَابَكَ فَطَهَّرَ» برواية أخرى هكذا:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر ^(١) لست ولا من غدره أتقنع

(٢) كذا في اللسان والكامل للبرد. وفي الأصول: «أكارع».

(٣) كذا في الأصول، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذي قاله أمية والذي ذكره ابن الأنباري فيما يلي،

وقد عز قول ابن الأنباري صاحب اللسان في مادة سهر وصاحب تفسير روح المعاني ج ٩ ص ٢٨٦ طبع بولاق.

(٤) (ج) الفتد (بالتحريك): ضعف الرأي من الكبر، وقد يستعمل في غير الكبر.

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ؛ فقال له رجل : جعلت فداك ! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » . وقال مجاهد : أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعني بها . وقال الشعبي : رجل مسروق إلى البصرة في تفسير آية ، ف قيل له : إن الذي يفسرها رجل إلى الشام ؛ فتجهز ورجل إلى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة في قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب وسيأتي . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يمتنعن إلا مهاتنه ، فسألته فقال : هي حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب ؛ ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب .

باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة الامام المقسط وذو الشية المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه " وقال أبو عمر : وحمل القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعالمون بما فيه . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " القرآن أفضل من كل شيء فمن قرأ القرآن فقد قرأ الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله قنن والاهم فقد وآلى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى " .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة

قال الترمذى الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول : «فن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهراً . ومن حرمة أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمة أن يستاك ويتخلل فيطيب فاه ، إذ هو طريقه . — قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ونظفوها ما استطعتم . — ومن حرمة أن يتلبس^(١) كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج . ومن حرمة أن يستقبل القبلة لقراءته . — وكان أبو العالية إذا قرأ أغم ولبس وارتدى واستقبل القبلة . — ومن حرمة أن يتمضمض كلما تنحغ^(٢) . روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه^(٣) تور إذا تنحغ مضمض ، ثم أخذ في الذكر ، وكان كلما تنحغ مضمض . ومن حرمة إذا تناعب أن يمسه عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج ، والتناوب من الشيطان . — قال مجاهد : إذا تناعبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيماً حتى يذهب تناؤبك . وقاله عكرمة ، يريد أن في ذلك الفعل إجلالاً للقرآن . — ومن حرمة أن يستعيز بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتدأ قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمة إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمة أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء . ومن حرمة أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل . ومن حرمة أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به . ومن حرمة أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمة أن يقف على أمثاله فيمثلها . ومن حرمة أن يتمس إعرابه^(٤) . ومن حرمة أن يؤدي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماماً ، فإن له بكل حرف عشر حسنات . ومن حرمة إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ، ويشهد بالبلاغ

(١) يقال : تلبس بالثوب بمعنى لبسه . (٢) تنحغ كتنخم وزنا ومعنى (٣) التور : إناء يشرب فيه .

(٤) في الأصول : «عرايه» . والتصويب عن نوادر الأصول .

لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقت ربنا وبلغت رسلك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمة إذا قرأه ألا يلتقط الآي من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مريبلال وهو يقرأ من كل سورة شيئاً؛ فأمره أن يقرأ السور كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمة إذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشوراً، وألا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتى يكون أبداً عالياً لسائر الكتب، علماً كان أو غيره. ومن حرمة أن يضعه في حجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمة ألا يحويه من اللوح بالبصاق ولكن يفسله بالماء. ومن حرمة إذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع، والمواقع التي توطأ، فإن لتلك الفسالة حرمة، وكان من قبلنا من السلف منهم من يستنشف بفسالته. ومن حرمة ألا يتخذ الصحيفة إذا بلّيت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يحوها بالماء. ومن حرمة ألا يخلّى يوماً من أيامه من النظر في المصحف مرة؛ وكان أبو موسى يقول: إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة. ومن حرمة أن يعطى عينيه حفظهما منه، فإن العين تؤذى إلى النفس، وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن في الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤذى إلى النفس، فإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتركا في الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حفظها كالأذن. روى زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطوا أعينكم حفظها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حفظها من العبادة؟ قال: "النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظراً". ومن حرمة ألا يتأوله عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا. — حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي قال حدثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا، — والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جيئت على قدير

يا موسى؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمة ألا يقال : سورة كذا ، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ، ولكن يقال : السورة التي يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم : ” الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه “ أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . — ومن حرمة ألا يتلى منكوسا كفعل معلى الصبيان ، يتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة ، فإن تلك مخالفة . ومن حرمة ألا يقَرَّ في قراءته كفعل هؤلاء الحمزيين المبتدعين المنتطعين في إبراز الكلام من تلك الأقواء المنتنة تكلفا ، فإن ذلك محدث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمة ألا يقرأه بالحن الغناء كالحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم . ومن حرمة أن يُجَلَّلَ تخطيطه إذا خطه . وعن أبي حَكِيمَة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فتر على رضى الله عنه فنظر الى كتابته فقال له : أجَلَّ قلبك ، فأخذت القلم فمقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلى رضى الله عنه قائم ينظر الى كتابتي ، فقال : هكذا ، نورده كما تورده الله عز وجل . ومن حرمة ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى يُبَغِّض اليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمة ألا يمارى ولا يجادل فيه في القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمة ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغو واللغو ويجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراما ، هذا لمروده بنفسه ، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرائى أهل اللغو ويجمع السفهاء . ومن حرمة ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به الى صاحبه إذا أراد أن يناوله . ومن حرمة ألا يُصَغَّرَ المصحف ، روى الأعمش عن إبراهيم عن علي رضي الله عنه قال : لا يصغر المصحف . —

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالذرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسِجِدٌ أو مصيحف . — ومن حرمة ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمة ألا يُحَلَّى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا ، وروى مغيرة عن ابراهيم : أنه كان يكره أن يُحَلَّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رؤوس الآي أو يصغر . وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا زخرتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فألذبار عليكم ^(١) “ . وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زُين بفضة : تفرون به السارق ، وزينته في جوفه . ومن حرمة ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به في المساجد المحدثه . حدثنا محمد بن علي الشقيق عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب في أرض ، فقال لشاب من هذيل : « ما هذا » قال : من كتاب الله كتبه يهودي ؛ فقال : ” لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه “ . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز أبنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمة أنه إذا اغتسل بكتابه مستشفيا من سقم ألا يصبه على كأسه ، ولا في موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض في بقعة لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفرة في موضع طاهر حتى ينصب من جسده في تلك الحفرة ثم يكبسها ، أو في نهر كبير يختلط بمائه فيجري . ومن حرمة أن يفتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات ، لئلا يكون في هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : ” طيبك بالحلال المرتحل “ قال : وما الحلال المرتحل ؟ قال : ” صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب في أوله كلما حل ارتحل “ . —

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنباري أنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(١) الذبار : الهلاك . وفي نوادر الأصول : « فالذمان » بالميم بدل الباء الموحدة :

أهله ودعا . وأخبرنا ادريس حدثنا خلف حدثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبد بن أبي لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجهوا إلينا أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا ادريس حدثنا خلف حدثنا هشيم عن العوام عن ابراهيم التيمي قال : من ختم القرآن أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ؛ قال : فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار . — ومن حرمة ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به في الخلاء ، إلا أن يكون في غلاف من آدم أو فضة أو غيره ، فيكون كأنه في صدرك . ومن حرمة إذا كتبه وشربه سمي الله على كل نفس وعظم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيته . روى ليث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد في قلبه قساوة فليكتب « يس » في جام بزعفران ثم يشربه . —

قلت : ومن حرمة ألا يقال : سورة صغيرة ؛ وكره أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها . وأما القرآن فكله عظيم ، ذكره مكي رحمه الله .

قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من المفضل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتم بها الناس في الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأى والجرأة

على ذلك ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آياً بعدد ، علمه إياهن جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث في مغيبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيباته ما لم يعلم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

النفخات في الصور، وكتابة خلق السموات والأرض . روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . وروى أيضا عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » . قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود ، وتكلم في أحد رواياته . وزاد رزين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأتباري النحوي اللغوي في كتاب الرد : فُسر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما — من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنى — من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار . ومعنى يتبوأ : يتزل ويحل ، قال الشاعر :

وَبَوَّتْ فِي صَمِيمٍ مَعَشِيرَهَا * فَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مَبَوَّؤُهَا ^(١)

وقال في حديث جندب : حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنى به الهوى : من قال في القرآن قولاً يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ؛ لحكمة على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والفضل فيه . وقال ابن عطية : « ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل فيسور عليه برأيه دون نظرها قال العلماء ، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بيجرد رأيه » .

(١) قوله : أحد روايته . هو سبيل بن أبي حزم واسمه نهران ، ويقال : عبادة . (٢) جاء في لسان العرب مادة بواً تفسيرا لهذا البيت : أي تزلت من الكرم في صميم النسب . (٣) قوله : فيسور عليه . تسور الحائط ، هيم مثل الحص . ومعنى به هنا التهم والافتراء بغیر بصيرة ولا تدبر .

قلت : هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنع
فى وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، وإن من استنبط معناه
بجمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » وهذا فاسد ، لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد
به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . وباطل أن يكون
المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن
واختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن
النبي صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس وقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » . فإن
كان التأويل مسموعا كالتزويل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بين لا إشكال فيه ؛ وسيأتى
لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . وإنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشيء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأول القرآن على
وَفَقِ رَأْيِهِ وهواه ، ليجتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان
لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات
القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يلبس
على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه
الذى يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ؛ فيكون قد فسر برأيه ، أى رأيه حمله
على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح
فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه مأر يد به ، كمن يدعو الى مجاهدة القلب
القاسى فيقول قال الله تعالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » ويشير الى قلبه ، ويومئ
الى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا
للكلام وترغيبا للسمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله

الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغريّر الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة، فيتزّلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثاني - أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة^(١)، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يُحكَمْ ظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعاني يجوزدهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسّر القرآن بالرأى؛ والنقل والسمع لا بدّ له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقن به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والغرائب التي لا تفهم إلا بالسمع كثيرة، ولا مطمع في الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعالى : «وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَاهَمُوهَا» معناه آية مبصرة فظلموها أنفسهم بقتلها؛ فالناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموها وأنهم ظلموها غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي اليه . والله أعلم .

قال ابن عطية : «وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه توزعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم» . قال أبو بكر الأنباري : «وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتوزعون عن تفسير المشكل من القرآن، فبعض يقدر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجّم عن القول . وبعض يُشفق من أن يجعل في التفسير إماماً يبنى على مذهبه ويُقتنى طريقه . فلعل متأخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ فيه ويقول : إمامي في تفسير القرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبي مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن فقال : «أى سماء تُظِلُّني، وأى أرض تُقِلُّني ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! اذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا في كل النسخ التي بأيدينا .

قال ابن عطية «وكان جِلَّةً من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا على المسلمين^(١) في ذلك رضى الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرد فيه للأمر وكله، وتبعه العلماء عليه كجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن على». وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب. وكان على رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه، وكان ابن مسعود يقول: نِعِمَّ تَرْجُحَانِ القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه على رضى الله عنه: ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق. ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة قال: شهدت على بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدثكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم ألبيل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل؛ فقام اليه ابن الكواء^(٢) فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذرّوا؟ وذكر الحديث. وعن المنهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلّغه المطى لأتيته؛ فقال له رجل: أما لقيت على بن أبى طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته. وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يُروى الواحد والإخاذ يُروى الإثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ^(٣). ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب الرد، وقال: الإخاذ عند العرب: الموضع الذى يحبس الماء كالغدير. قال أبو بكر حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثنا سلام عن

(١) من قولهم: أقيمت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أرفى اليسرى كما في تاريخ الطبري في عدة مواضع.

(٣) قوله: من تلك الآخاذ. يعنى أن فهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

زيد العمى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرحم أمتي بهذا أبو بكر وأقوامهم في دين الله عمر وأصدقههم حياء عثمان وأقضاهم على وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبي بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأبو هريرة وعاء من العلم وسلمان بن بخر من علم لا يدرك وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء - أو قال - : البطحاء من ذى لهجة أصدق من أبي ذر" .

قال ابن عطية : «ومن المبرزين في التابعين الحسن البصري ومجاهد وسعيد بن جبيرة وعلقمة . قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية ، ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنما أخذ عن ابن جبيرة وأما السدي فكان عامر الشعبي يطعن عليه وعلى أبي صالح لأنه كان يراهما مقتصرين في النظر» .^(٢)

قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبي ليس بشيء . وعن يحيى بن سعيد القطان عن صفيان قال قال الكلبي : قال أبو صالح : كل ما حدثتك كذب . وقال حبيب بن أبي ثابت : كنا نسميه التروغ زن - يعني أبا صالح مولى أم هانئ - والتروغ زن : هو الكذاب بلغة الفرس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خالف ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" . ترجمه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغدادي : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة

(١) جاء في حاشية بهامش الأصل : أنه سمي زيد العمى لأنه كان ينادى من رآه ياعمي . وجاء في تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحارثي أبو الحارثي العمى ، وهو مولى ~~زيد بن أبيه~~ بن أبيه . ونقبت بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشيء يقول : حتى أسأل عمي . (٢) اسمه باذام ، ولقب : باذان ، بمجموعة بين ألفين ، يروى عن علي وابن عباس ومولاه أم هانئ كما في تهذيب التهذيب .

من التعريف، والاتصال للباطل، ورد تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع اليهم، والمعول في أمر الدين عليهم، رضى الله عنهم.

قال ابن عطية: «وَأَلَّفَ النَّاسَ فِيهِ كَعَبْدَ الرَّزَاقِ وَالْمُفَضَّلَ وَعَلَى بْنَ أَبِي طَلْحَةَ وَالْبَخَارِيَّ وَغَيْرَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - جَمَعَ عَلَى النَّاسِ أَشْتَاتَ التَّفْسِيرِ، وَقَرَّبَ الْبَعِيدَ مِنْهَا وَشَفَى فِي الْإِسْنَادِ. وَمِنَ الْمُبْتَزِّينَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجَ وَأَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيَّ؛ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ النَّقَاشُ وَأَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ فَكَثِيرًا مَا اسْتَدْرَكَ النَّاسَ عَلَيْهِمَا. وَعَلَى سَنَدِهِمَا مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَبُو الْعَبَّاسِ الْمَهْدَوِيُّ مُتَقَنَّ التَّأْلِيفِ، وَكُلُّهُمْ مُجْتَهِدٌ مَأْجُورٌ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَنُضِرَ وَجُوهُهُمْ.»

باب تبيين الكتاب بالسنة وما جاء في ذلك

قال الله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ». وقال تعالى: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». وقال تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل، وقال تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد: أنه رأى مُحَرَّمًا عليه ثيابه فنهى المحرم؛ فقال: اتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابي؛ قال: فقرأ عليه «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وعن هشام بن عمار قال: كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس: اتركهما؛ فقال: إنما نهى عنهما أن يُتَّخَذَا سُنَّةً؛ فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر، لأن الله تعالى قال: «وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ». ورواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَلَا وَإِنِّي لَأُوتِيْتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوْشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانِ عَلَى أُرَيْكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحْلَوْهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَخَزَمُوهُ»

ألا لا يحمل لكم الحمار الأهل^١ ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يَقْرُوه فله أن يعقبهم بمثل قِراه^٢ .

قال الخطابي : قوله "أتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما -

أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثاني -

أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى ، وأوتي من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم

ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر

المتلو من القرآن . وقوله : "يوشك رجل شعبان" الحديث . يحذر بهذا القول من مخالفة

السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت اليه الخوارج والروافض ، فانهم

تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ، قال : فتحيروا وضلوا ، قال

والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حِجَّة^(١) ، قال : وإنما أراد

بالأريكة أصحاب الترفه والدعة الذين لزمو البيوت لم يطلبوا العلم من مظانه . وقوله :

"إلا أن يستغنى عنها صاحبها" معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ، كقوله :

"فَكَفَرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ" معناه تركهم الله استغناء عنهم . وقوله : "فله أن يعقبهم

بمثل قِراه" هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ

من مالهم بقدر قِراه عوض ما حرموه من قِراه . ويعقبهم ، يروى مشددا ومخففا من المعاقبة ،

ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم

من أموالهم بقدر قِراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث الى أن يعرض

على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت حجة بنفسه ، قال :

فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه نخذه

وإن لم يوافقه فاتركوه » فانه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كيانه للصلوات

الخمس فى مواقيتها ومجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج، قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : ”خذوا عني مناسككم“ . وقال : ”صلوا كما رأيتموني أصلي“ . أخرجه البخاري . وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحق ، أتجد الظهور في كتاب الله أربعا لا يحجر فيها بالقراءة ! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد في كتاب الله تعالى مفسرا ! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعي قال : قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجسر على هذا أن أقوله ، ولكني أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحریم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقهاء لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر بن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطن مالك : أنه بلغه أن عبد الله

ابن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى ^(١) « أسماء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعري قال : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال : تعلم عمر البقرة في اثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنباري : حدثني محمد بن شهر يار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبي مسلم أبي عمرو عن زياد بن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، وسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ، ويصعب عليهم العمل به .

حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا اسماعيل ابن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به . حدثني حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبي العنبر حدثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية في أيدينا ، وذلك أنا رويناه أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة في بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله ، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يدي فيقرأ ثلث القرآن لا يسهط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بباطل ، وليكن تحفظه للحديث على التدرج قليلا قليلا مع الليالي والأيام . ومن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وابن علية ومعمرو ، قال معمر : سمعت الزهري يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة ، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين ، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلّموا ما شئتم أن تعلموا فلن يجرمكم الله بعلمه حتى تعملوا . قال ابن عبد البر : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في الأصول : « المسمى في ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همتهم الدراية، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا ؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتاج به . ولقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغراء :

إن العلوم وإن جلت محاسنها * فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه * وبعد ذلك علم فزج الكُربا
فذاك فأعلم حديث المصطفى فيه * نور النبوة سنن الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها * فاختر لنفسك يا من أثر الطلبا
والعلم كثر تجده في معادنه * يأبى الطالب أبحت وأنظر الكتبا
وآتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كل العلوم تدبره تر العجبا
وأقرأ هديت حديث المصطفى وسيل * مولاك ما تشتهي يقضى لك الأربا
من ذاق طعما لعلم الدين سر به * إذا تزيد منه قال واطربا

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن

أنزل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه"

روى مسلم عن أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بني غفار ، فاتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على حرف ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" . ثم جاء الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمك القرآن على ثلاثة أحرف ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" . ثم جاء الرابعة فقال : إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصة) غدير صغير . وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق مدرف .

وغفار : قبيلة من كنانة .

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأبما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والفلان والحارثية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قط فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال : هذا حديث صحيح . وثبت في الأمهات : البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتى بكامله فى آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستى ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول — وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة باللفاظ مختلفة ، نحو أقبل وتعال وهلم . قال الطحاوى : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكره قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استرده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استرده ، حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل . وروى ورقاء عن ابن أبى نجیح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ : « لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظُرُونَا » للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنوا أخرونا ، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الإسناد عن أبى أنه كان يقرأ : « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » مروا فيه ، سعوافيه . وفى البخارى ومسلم قال الزهرى : إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ليس يختلف فى حلال ولا حرام .

قال الطحاوى : إنما كانت السمة للناس فى الحروف لمعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات ، ولورام ذلك لم يتهيا له إلا بمشقة عظيمة ، فوسَّع لهم

في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقاً ، فكانوا كذلك حتى أكثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فإن بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أبي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا لي أقرأت القرآن فقل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقل لي على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سمعنا علياً عزيراً حكياً ما لم تخلط آية عذاب برحة أو آية رحمة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضي ابن الطيب ^(١) : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبي — حمل على أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثاني — قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها : يمينها ويزارها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحفل شيئاً منها ، وكان قد أوتي جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن ، فبعضه لغة قريش ، وبعضه لغة هذيل ، وبعضه لغة هوازن ، وبعضه لغة اليمن . قال الخطابي : على أن في القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه ، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » . وقوله : « أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب » وذكر وجوهاً ، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . وإلى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، على سبع لغات ، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية ، قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلائي .

أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصحف : ما اختلفتم أتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهم . ذكره البخاري وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبيين : كعب قريش وكعب خزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضي ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » ولم يقل قرشيا ، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قطان ، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سبع قبائل ، بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعتبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بغير ذلك بحسب الأوضح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش « ابتدأ » بفاءت فى القرآن فلم تنجح لابن عباس ، حتى اختصم اليه أعربا بيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى : « رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » . حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أى أحاكك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ

سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : « وَالنَّخْلَ بِأَسْقَاتٍ » ذكره مسلم في باب (القراءة في صلاة الفجر) الى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر ، قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر ، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكثانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لثيم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس ؛ قالوا : هذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب ؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر ، وقالوا : في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كشكشة قيس وتممة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شيئا ، فيقولون في « جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا » . جعل ريش تحش سرييا ؛ وأما تممة تميم فيقولون في الناس : النات ، وفي أيكاس : أيكات ، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الحلة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود : لبسجنته عني حين ، ذكرها أبو داود ؛ ويقول ذى الرمة :

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجَيْدُكَ جَيْدُهَا * وَلَوْ نَكَّ إِلَّا عَنْهَا غَيْرُ طَائِلٍ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعة : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطهر ، « وَيَضِيقُ صَدْرِي » . ويضيق ؛ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب ، مثل : « رَبَّنَا بِأَعْدَائِنَا أَسْفَارًا » . وباعد ؛ ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نُنْشِرُهَا » ونشرها ؛ ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » . كالصوف المنفوش ؛ ومنها ما تتغير

صورته ومعناه ، مثل : « وَطَلَعَ مَنْضُودٌ » وطلع منضود؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت الحق بالموت؛ ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نجمة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد ما كراههتنَّ لهنَّ غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمرٌ ونهىٌ ووعدٌ ووعيدٌ وقصصٌ ومجادلةٌ وأمثالٌ . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شئ من المعاني . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام : " أنزل القرآن على سبعة أحرف " . القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشئ لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصل) قال كثير من علمائنا كالدأودى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالترمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرف به ونسب إليه ، فقليل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ؛ ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوزّه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكلٌ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما روه ورأوه من القراءات وكتبوا

في ذلك مصنفات ، فاستمر الإجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصاير على قراءة السبعة وبها يصلى لأنها ثبتت بالإجماع ؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروى منه عن الصحابة رضي الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نعتقد فيهم إلا أنهم روه ، وأما ما يؤثر عن أبي السمال^(١) ومن قارنه فإنه لا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ، وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . فأما لو صرح الراوى بإجماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء في العمل بذلك على قولين : النفي والاثبات ؛ وجه النفي أن الراوى لم يروه في معرض الخبر بل في معرض القرآن ، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثاني أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة ، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام . قال ابن عطية : أباح الله تعالى

لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودة الرصف ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام : ” فاقراءوا ما تيسر منه “ بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ، وكان معترضا أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا ؛ وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب سورة « الفرقان » ، وقراءة

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) : هو قنبر بن أبي قنبر السدوسي البصري ، له اختيار في القراءات شاذ عن العامة . وقد ذكر في الطبعة الأولى في هذا الموضع وفي ص ٣٦٨ محذوفاً ، والتصويب عن طبقات القراء .

هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كل قراءة منهما وقد اختلفنا : ” هكذا أقرأني جبريل “ هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه ، وعلى هذا يجعل قول أنس حين قرأ : « إنا نأشئ الليل هي أشد وطأ وأصوب قِيلا » فقيل له : إنما قرأ « وأقوم قِيلا » . فقال أنس : وأصوب قِيلا ، وأقوم قِيلا وأهيا ، واحداً ، فأنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكذت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبثته بردائه^(١) ، فحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرأنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أرسله ، أقرأ “ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” هكذا أنزلت “ ثم قال لي : ” اقرأ “ فقرأت فقال : ” هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه “ .

قلت : وفي معنى حديث عمر هذا ، ما رواه مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيتني ، ضرب في صدري ففيض عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاء ، فقال : ” يا أباي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتي فرد إلى الثانية أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتي

(١) قوله : لبثته بردائه . أي جمعت ثيابه عند صدره ونحوه ثم جردته . (٢) أرسل الشيء : أطلقه وأهمله .

فرد إلى الثالثة أقرأه على سبعة أحرف فلَكَ بكل ردة رددتُكها مسألة تسألنيها فقلت اللهم أغفر لأمي اللهم أغفر لأمي وأخرت الثالثة ليوم يرغبُ إلى فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام .

قول أبي رضي الله عنه : « فسقط في نفسي » معناه اعترتني حيرة ودهشة ، أى أصابته نزعة من الشيطان ليشتوش عليه حاله ، ويكثر عليه وقته ، فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما في نفسه ، وإلا فأى شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله في النسخ الذي هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ذلك الخاطر نبهه بأن ضربه في صدره ، فأعقب ذلك بأن أنشرح صدره وتور باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم - حين سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به - قال : « وقد وجدتموه » قالوا : نعم ؛ قال : « ذلك صريح الإيمان » . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وسيأتى الكلام عليه في سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها

وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي

صلى الله عليه وسلم

كان القرآن في مدة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقا في صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وفي لحاف وظرر وفي خزف وغير ذلك - قال الأصمعي : اللخاف : حجارة بيض رفاق ، واحدها لخفة . والظرر : حجر له حد كحد السكين ، والجمع ظرار ، مثل رطب ورطاب ، ورَبَع ورَباع ، وطِرْزان أيضا مثل صرد وصردان - فلما استعز القتل

(١) قوله : استعز ، أى اشتد وكثر .

بالقراء يوم اليمامة في زمن الصديق رضى الله عنه، وقتل منهم في ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء، كأبي وابن مسعود وزيد، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك، بجمعه غير مرتب السور، بعد تعب شديد، رضى الله عنه؛ روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحز يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحز القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعه، وإني لأرى أن تجمع القرآن؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير؛ فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدرى، ورأيت الذى رأى عمر؛ قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا تهملك، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فأجمعه؛ فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : هو والله خير، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدرى^(١) للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر؛ فقمت فتنبعت القرآن أجمعه من الزقاع والأكاف والعُصب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة «التوبة» آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إلى آخرها . فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثني عبد الرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبي خزيمة «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» .

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس

(٢) العصب : جمع عسيب وهو جريد النخل اذا نزع منه خوصه .

وقال الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال : حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . وقال الترمذى عنه : فقدت آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فالتسيتها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، فألحقها فى سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » فى الجمع الأول ، على ما قاله البخارى والترمذى ؛ وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبرى : أن آية « براءة » سقطت فى الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر الى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل الى حفصة : أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، على ما يأتى . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان واشتد الأمر فى ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبههم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه ، وذلك أنهم اجتمعوا فى غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روى لها ؛ فاختلَفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حذيفة المدينة — فيما ذكر البخارى والترمذى — دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، إني حضرت

هذه الغزوة، وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز، فوصف له ما تقدم وقال : إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة، لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب أن عثمان قال : ما ترون في المصاحف ؟ فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتي خير من قراءتك ، وقراءتي أفضل من قراءتك . وهذا شبهه بالكفر؛ قلنا : ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة، فانكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافًا؛ قلنا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين ؟ فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسل إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ؛ وقال عثمان للرهبان القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رده عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق؛ وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجملة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه وكان رأيا سديدا موقفا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبري فيما روى : إن عثمان قرن زيد أبان بن سعيد بن العاصي وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخاري والترمذي وغيرهما أصح . وقال الطبري أيضا : إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماما في هذا الجمع الأخير، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال : يا معشر المسلمين ، أعزّل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل،

والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر! — يريد زيد بن ثابت — ولذلك قال عبد الله ابن مسعود: يا أهل العراق، اكتبوا المصاحف التي عندكم وغلّوها، فإن الله عز وجل يقول: «وَمَنْ يَخْلُقْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فآلفوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذي . وسيأتي الكلام في هذا في سورة «آل عمران» إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنباري: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود في جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار . ولا ينبغي أن يظنّ جاهل أن في هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبًا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما في الفضائل والمناقب . قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من تكبير ذلك فشيء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم؛ فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن ينحتم القرآن . قال يزيد بن هارون: المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم، فقبل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت: هذا فيه نظر وسيأتي، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد — أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون في الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلان بن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : وأختلفوا يومئذ في التابوت ، فقال زيد : التابوت ، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصي : التابوت ، فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتاء ، فانه نزل بلسان قريش . أخرجه البخاري والترمذي . قال ابن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء ، فأثبتوه بالتاء ، وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر ، ونسخ منها عثمان نسخا . قال غيره : قيل سبعة ، وقيل أربعة وهو الأكثر ، ووجهها الى الآفاق ، فوجه للعراق والشام ومصر بأقاصيها ، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذي بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدنها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تُنحرق ، تروى بالخاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الخاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله ! وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم : حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها الا عن ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمير بن سعيد قال قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطلال : وفي أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها في ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف اذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عمرو ابن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها

ذكر الله تعالى ، وقول من حرفها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان ، وقد قال القاضي أبو بكر
لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن ، إذا أداه الاجتهاد الى ذلك .

فصل — قال علماءنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردُّ على الحلولية^(١)
والخشوية القائلين بقديم الحروف والأصوات ، وأن القراءة والتلاوة قديمة ، وأن الإيمان قديم ،
والروح قديم ، وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد
أن القديم لا يفعل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب ، ولا يجوز العدم على القديم وأن
القديم لا يصير محدثا ، والمحدث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أول لوجوده ، وأن المحدث
هو ما كان بعد أن لم يكن ، وهذه الطائفة خرفت إجماع العقلاء من أهل المال وغيرهم فقالوا :
يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد اذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك
اذا نحت حروفا من الأجر والخشب ، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة ، أو نسج ثوبا
فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما
ومنحوتا قديما ومصوغا قديما ؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى ، أيجوز أن يذاب
ويحرق ويحرق ؟ فان قالوا : نعم ، فارقوا الدين ، وإن قالوا : لا ، قيل لهم : فما قولكم في حروف
مصورة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار
فذابت واحترقت ، فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فان قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛
وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم :
إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت ؛ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق ، رجعوا
الى الحق والصواب ودانوا بالجواب ؛ وهو الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، منبها على
ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق . وقال الله عز وجل :
”أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان“ الحديث ، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصورة تقول : إن الله حال في كل شيء . وفي كل جزء منه متعدد به حتى جوزوا أن يطلق

على كل شيء . أنه الله . والخشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا الى التجسيم وغيره .

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام في هذه المسألة يطول ، ونتميمها في كتب الأصول ، وقد بينها في (الكتاب الأسنى ، في شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضة — قبحهم الله تعالى — في القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى في نقل الآية والحرف كما فعلتم ، فانكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيم بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : « **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ** » فالجواب أن خزيمه رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئا أولا ، فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنما ثبتت بشهادة خزيمه وحده لقيام الدليل على صحته في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية «الأحزاب» فان تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمه لسماعهما إياها من النبي صلى الله عليه وسلم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمه غير أبي خزيمه ، وأن أبا خزيمه الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى في الأحزاب وجدت مع خزيمه بن ثابت فلا تعارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : «أبو خزيمه لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ؛ وهو أبو خزيمه بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، شهد بدر وما بعدها من المشاهد ، وتوفى في خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمه الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمه أبى خزيمه نسب إلا اجتماعهما في الأنصار ، أحدهما أوسى والأخر تزرجى » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارى أيضا عن أنس قال : مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

وزيد، وأبو زيد؛ [قال] : ونحن ورثناه . وفي أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عقباً ، وكان بدرية ، واسم أبي زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضي الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلي وتميم الداري وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضي ، عبد الله بن مسعود وسلياً مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصمباني عن كميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”مَنْ هَذَا الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ“ . فقليل له : هذا عبد الله ابن أم عبد ، فقال : ”إِنْ عَبْدَ اللَّهِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ“ الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : ”غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ“ أي أنه كان يقرأ الحرف الأول الذي أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التي رخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبي ظبيان قال : قال لي عبد الله بن عباس : أي القراءتين تقرأ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد ، فقال لي : بل هي الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة ، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين ، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما تُسَخ من

ذلك وما يُدَلُّ . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد - فبدأ به - ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة“ .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد : حدثنا محمد بن شهر يار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن أبي بكر عن أبي إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة ، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقية القرآن من مجمع بن جارية الأنصاري .

قلت : فإن صح هذا، صح الإجماع الذي ذكره يزيد بن هارون، فلذلك لم يذكره القاضي أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنباري : حدثني إبراهيم بن موسى الخوزي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا زهير عن أبي إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوذتين ؛ فلهذه العلة لم توجد في مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتي بيانه آخر الكتاب عند ذكر «المعوذتين» إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذي حدثناه إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عمر بن هارون الخراساني عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظي قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعول عليه .

قلت : قوله عليه السلام : "خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد" . يدل على صحته ، وما بين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كل منهم عزوا قراءته التي اختارها الى رجل من الصحابة قراها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ، فأسند عاصم قراءته الى عليّ وابن مسعود ، وأسند ابن كثير قراءته الى أبيّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته الى أبيّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته الى عثمان ، وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخطابي .

باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتخزيبه وتعشيريه وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف الساف في ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدم المكيّ على المدنيّ ، ومنهم من جعل في أول مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل في أوله : «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» ، وهذا أول مصحف عليّ رضي الله عنه ، وأما مصحف ابن مسعود فإن أوله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ، ومصحف أبيّ كان أوله : الحمد لله ، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضي أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكيّ رحمه الله في تفسير سورة «براءة» وذكر أن ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يأمر بذلك في أول سورة «براءة» تركت بلا بسملة ، هذا أصح ما قيل في ذلك وسيأتي .

وذكر ابن وهب في جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : قد قدمنا وألف القرآن على علم من ألقه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما

نتهى إليه، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال ابن مسعود : من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً؛ اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما ما روى من اختلاف مصحف أبي وعلي وعبد الله فانما كان قبل العرض الأخيرة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر أبو بكر الانباري في كتاب الرد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ، ثم فُرق على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية ؛ فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن رب العالمين ؛ فن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : ”ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن“ . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

حدثنا حسن بن الحباب حدثنا أبو هشام حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء قال : أنحر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدثنا عن أبي السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ» . فقال جبريل للنبي عليهما السلام : يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطال : ومن قال بهذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقوف عليه في المصحف ، بل إنما يجب تأليف سورة في الرسم والخط خاصة ، ولا يعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه ، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألها : لا يضرك أية قرأت قبل ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة ، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ، وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا ، وقالوا : ذلك منكوس القلب ؛ فإنما عنينا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها إلى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا في القرآن والشعر ليزلل لسانه بذلك ويتقذر على الحفظ ، وهذا حظه الله تعالى ومنعه في القرآن ، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده — تعني بالمدينة — وقد قدمنا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السور .

قال أبو بكر الأنباري : حدثنا اسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والاحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والمجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والمتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ،

وأيها النبي لم تحزم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازل بمكة والمدينة ، لم يدرك أين تقع الفاتحة ، لاختلاف الناس في موضع نزولها ، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كثر به ، ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه تعالى . وقد قيل : إن علة تقديم المديني على المكي هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلما كان فن من كلامهم مبنيًا على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى الذي لو فقدوه من القرآن لقالوا : ما باله عيرى من هذا الباب الموجود في كلامنا المستحل من نظامنا . قال عبيد بن الأبرص :

أَنْ تَبْلُتْ مِنْهُمْ وَحُوشًا * وَضِرَتْ حَالَهَا الْخَطُوبُ
عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سُرُوب * كَانَتْ شَأْنُهُمَا شَعِيبُ

أراد عيناك دمعهما سرُوب لأن تبلت من أهلها وحوشًا ، فقدم المؤخر وأخر المقدم ؛ ومعنى سرُوب : منصبت على وجه الأرض . ومنه السارب ، للذهاب على وجهه في الأرض ؛ قال الشاعر ^(١) :

* أُنَى سَرَبٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سُرُوبٍ *

وقوله : شأنيهما ، الشأن واحد الشؤون وهي مواصلة قبائل الرأس وملتقاها ، ومنها يميئ الدمع . شعيب : متفوق .

(١) هو قيس بن الخطيم . وتقام البيت :

* وتقرّب الأحلام غير قريب *

وفي اللسان مادة «سرب» : «قال ابن بري : رواه بن دريد «سربت» بيا . موحدة لقوله : وكنت غير سرُوب . ومن رواه سربت بالياء ، باثنين فعناء : كيف سربت ليلًا ، وأنت لا تسربين نهارًا .»

فصل — وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله ، فتجرد لذلك الحجاج بواسطة وجد فيه وزاد تحزيبه ، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك ، وألف إثر ذلك بواسطة كتابا في القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا ، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات .

وأسند الزبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي ؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

فصل — وأما وضع الأحشار فقال ابن عطية : مرة بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك ، وقيل : إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كره التعشير في المصحف ، وأنه كان يحكمه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطيب في المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التي تكون في المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان ، فكره ذلك وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ؛ وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور في كل سورة ما فيها من آية ، قال : إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا بلحه ، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف ، فرأينا خواتمه من جبر على عمل السلسلة في طول السطر ، ورأيت معجوم الآي بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم نحسوا ثم عثروا . وقال يحيى بن أبي كثير : كان القرآن مجزئا في المصاحف ، فأقول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآي ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبي حمزة قال : رأى إبراهيم النخعي في مصحف فائحة سورة كذا وكذا ، فقال لي : اعلمه فان عبد الله بن مسعود قال : لا تخططوا في كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبي بكر السراج قال قلت لأبي رزين : أأكتب في مصحف سورة كذا وكذا ؛ قال : إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الداني رضي الله عنه : وهذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخمين وفواتح السور ورءوس الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم ، قادمهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كاللحمة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله في الأمهات وغيرها ، والخرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الجاني أن المجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتّاب ، فقال : أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ . قال : وكنت فيهم ، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعائة حرف وأربعون حرفاً ؛ قال : فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن؟ فإذا هو في الكهف « وَلَيْتَ تَطَّفَ » في الفاء ؛ قال : فأخبروني بأثلاثه ، فإذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثاني رأس مائة وإحدى من طسم الشعراء ، والثلث الثالث ما بقي من القرآن ؛ قال : فأخبروني بأسباعه على الحروف ، فإذا أول سبع في النساء « فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ » في الدال ، والسبع الثاني في الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » في التاء ، والسبع الثالث في الرعد « أَكُلُّهَا دَائِمٌ » في الألف من آخر أكلها ، والسبع الرابع في الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » في الألف ، والسبع الخامس في الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » في الهاء ، والسبع السادس في الفتح « الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوءِ » في الواو ، والسبع السابع ما بقي من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه في أربعة أشهر ، وكان المجاج يقرأ في كل ليلة ربعا ، فأول ربه خاتمة الأنعام . والربع الثاني في الكهف « وليتلطف » ، والربع الثالث خاتمة الزمر ، والربع الرابع ما بقي من القرآن ؛ وفي هذه الجملة خلاف مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الداني ، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل — وأما عدد آي القرآن في المديني الأول ، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آي القرآن في المديني الأول ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ، ولم يسمعوا في ذلك أحداً بعينه يسندونه إليه .

وأما المدني الأخير فهو في قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آي القرآن في قول المكين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذي رواه مسلم والكسائي عن حمزة ، وأسنده الكسائي إلى علي رضي الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن ؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الدماري : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون ، في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون ، نقص آية . قال ابن ذكوان : فظننت أن يحيى لم يعد «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفاً ، ويعدون بها في سائر الآفاق قديماً وحديثاً .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن في قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفاً وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً .

قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عدد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والحرف

معنى السورة في كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها ، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي منزلة شريف ارتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

عنده، كسور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة، من قول العرب للبقية : سُر ، وجاء في أسار الناس أى بقاياهم ، فعلى هذا يكون الأصل سورة بالهمزة ثم خفت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكملها من قول العرب للناقة التامة : سورة، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر :^(١)

* سُودُ المحاجرِ لا يَقْرَأُ بالسُّورِ *

ويحوز أن يجمع على سورات وسورات .

وأما الآية فهي العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وانفصاله، أى هى بائنة من أختها ومنفردة، وتقول العرب : بينى وبين فلان آية، أى علامة ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ » . وقال النابغة :

تَوَهَّمتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا * لِسِتَّةِ أَعوامٍ وَذَا العَامِ سَابِعُ

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال : نخرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . قال بُرَّج بن مُسَهِر الطائى :

نَرجنا من النُّقبين لا حَىْ مِثلُنَا * بآياتنا نُرجى اللِّقَاحَ المِطَافِلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف النحويون فى أصل آية، فقال سيبويه : آية على فعلة مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيية على وزن فاعلة مثل آمنة فنقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفراء : أصلها آيية بتشديد الياء الأولى فنقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات . وأنشد أبو زيد :

لم يُبقِ هذا الدهر من آياته * غيرَ أثافيهِ وأرِمَدائِهِ

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبهات أى الحروف، وأطول
الكلم في كتاب الله عز وجل ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : « لَيْسَتْ خَلْفَهُمْ » .
و « أَنْزَلْنَاهُ مَكُونًا » وشبههما ؛ فأما قوله : « فَاسْقِنَا كُؤُهُ » فهو عشرة أحرف في الرسم وأحد
عشر في اللفظ ؛ وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله ، وما أشبه ذلك . ومن
حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف ، إلا أنه لا ينطق
به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ » . « وَالضُّحَى » .
« وَالْعَصْرِ » . وكذلك « أَلَمْ » . و « الْمَص » . و « طه » . و « يَس » . و « حَم » في قول الكوفيين ،
وذلك في فواتح السور ، فأما في حشوهن فلا . قال أبو عمرو الداني : ولا أعلم كلمة هي وحدها
آية إلا قوله في الرحمن : « مُدْهَامَتَانِ » لا غير ، وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان ، وذلك
في قوله : « حَمَّ عَسَقَ » على قول الكوفيين لا غير ، وقد تكون الكلمة في غير هذا : الآية
التامة ، والكلام القائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله عز وجل : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ
رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِذْ صَبَرُوا » قيل : إنما يعنى بالكلمة هاهنا قوله تبارك وتعالى :
« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ » الى آخر الآيتين ، وقال عز وجل « وَالزَّمِيمُ
كَلِمَةَ الْقَوَى » . قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلمتان
خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله
العظيم » . وقد نسمي العرب القصيدة بأسرها ، والقصة كلها ، كلمة فيقولون : قال قُصٌّ في كلمته
كذا ، أى في خطبته ؛ وقال زهير في كلمته كذا ، أى في قصيدته ؛ وقال فلان في كلمته يعنى
في رسالته ؛ فنسمي جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها ، على عادتهم في تسميتهم الشيء
باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره ، وكان بسبب منه ، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة ، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا
على ما بيناه من الاتساع والمجاز — قال أبو عمرو الداني : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم أر هذا التعبير لغير المؤلف ، وقد سبق التعبير به في ص ١٦ من هذا الجزء .

(٢) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى في الرسم فقط .

حروف الهجاء في الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفاً أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفاً ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه ، ولا ينفرد وحده في الصورة ، ولا ينفصل مما يختلط به ؛ وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كأنفراد الكلم وانفصالها ، فلذلك سميت كلمات لا حروفاً . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف في غير هذا ، المذهب والوجه ، قال الله عز وجل : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أى سبعة أوجه من اللغات ، والله أعلم .

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب : كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط . واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ، فذهب القاضي أبو بكر ابن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربى صريح ، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم ، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربياً ميبناً ، ولا رسول الله عن كونه متكلماً بلسان قومه ؛ فالمشكاة : الكوة . ونشأ : قام من الليل ، ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » و « يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَةٍ » أى الأسد ؛ كله بلسان الحبشة . والفساق : البارد المتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان بلغة الروم . والسجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطود الجبل . واليم : البحر بالسريانية . والتنور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية : « حقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض محالطة لسائر الألسنة بتجارات ، و برحلتى قريش ، وكسفر مسافرين أبي عمرو إلى الشام ،

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ،
وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة ؛ فعَلِقَت العرب بهذا كله
ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت إلى تخفيف ثقل المعجمة ،
واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربي الصحيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى
هذا الحد نزل بها القرآن . فان جهلها عربى ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يعرف
ابن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال ابن عطية : وما ذهب إليه الطبري رحمه الله
من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد ؛ بل أحدهما أصل والأخرى فرع في الأكثر^(١) ،
لأننا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذًا .

قال غيره : والأول أصح . وقوله : هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم ، ليس بأولى
من العكس ، فان العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا ، فان كان الأول فهمى من كلامهم
إذ لا معنى لفهمهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على
بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فان قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن
سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان
كلام العرب وردت هذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت
بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ،
ولا يكون مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة
لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فان اختلف منها شرط لا تكون
معجزة .

(١) في الأصول : «الأخرى فرع ، لا أنا ندفع ... الخ» . والزيادة والتصويب عن تفسير ابن عطية .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه مجئ الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر .

والشرط الثاني هو أن تحرق العادة . وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعى للرسالة : آتى مجئ الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها ؛ لم يكن فيما ادعاه معجزة ، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله ، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه ، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره ؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول : الدليل على صدقي أن يحرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادة ، التي ينقرد بها جبار الأرض والسماوات ؛ فنقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعته ؛ ومثال هذه المسألة — والله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمراى منه والملك يسمعه : الملك يا مكرم أيها الجماعة بكنا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديق ؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما استشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال : صدق فيما ادعاه على ؛ فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو ، وحرق به العادة على يدى الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه . وقال : صدق عبدى في دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته اليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعى الرسالة على الله عز وجل ؛ فيقول : آتني أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتاً أو يحرك الأرض عند قولي لها : تزلزلي ؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعى للرسالة : آية نبؤتي ودليل حجتى أن تنطق يدي أو هذه الدابة فتطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبي ، فإن هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه ؛ وكذلك ما يروى أن مسليمة الكذاب لعنه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء ، فما فعل الله سبحانه من هذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة ، فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبياً ، ونخرج عن كونه معجزاً ولم يدل على صدقه ، ولهذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ » . كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المفيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين ، وهذا المسيح التجال فيما رويتم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور ؛ فإننا نقول : ذلك يدعى الرسالة ، وهذا يدعى الزبونية وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقل على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيح الدجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأولى — ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، واستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجمعا غفيرا، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا، وأن يستوى في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلقا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة المعجزات؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل، فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله الينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يحوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به؛ ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة؛ فالقرآن معجزة نيتنا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده إلى يوم القيامة، ومعجزة كل نبي انقضت بانقراضه، أو دخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والإنجيل .

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء ، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفي صحيح مسلم أن أنيساً أخا أبي ذر قال لأبي ذر : لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ؛ وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقرء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَمَّ » فُصِّلَتْ ، على ما يأتي بيانه هنالك ؛ فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان في هذا القول مقراً بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه . ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك في سورة « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلى آخرها ، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ بِجَمِيعِ قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » إلى آخر السورة ، وكذلك قوله سبحانه : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » ، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هي لازمة كل آية ؛ وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ؛ وبها وقع التحدى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين : أحدهما — الإخبار عن

الكثرة وعظمته وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من اتباع سائر الرسل . والثاني - الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَيْنَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » ثم أهلك الله - سبحانه - ماله وولده؛ وانقطع نسله .

ومنها : التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه يمينه؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها؛ وذكر ما سأل به أهل الكتاب عنه، وتحدثوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين؛ بغناءهم - وهو أمي من أمة أمية، ليس لها بذلك علم - بما عرفوا من الكتب السالفة صحته؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضي ابن الطيب : - ونحن نعلم ضرورة - أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم؛ وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحلة الأخبار، ولا متردداً إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه؛ علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العيان، في كل ما وعد الله سبحانه؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإنحراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيد بشرط، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ » « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » ، وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي؛ فمن ذلك : ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سبظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولُهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ « الآية . ففعل ذلك ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنجح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وقال : « لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُفَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » . وقال : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » وقال : « أَلَمْ . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ؛ فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام ، في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي .

ومنها : التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصرفة عند التحدى بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوقا معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصرفة

على قولين : أحدهما — أنهم صُرفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرضوا له لعجزوا عنه . الثاني — أنهم صُرفوا عن التعرض له مع كونه في مقدورهم ؛ ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

قال ابن عطية : «وجه التحدى في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقرينة جامدة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد» .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر في آية واحدة أمرين ، ونهين ، وخبرين ، وبشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثني استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرة القوت ، والدار الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلّة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، في شطراية وذلك في قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبَاحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

مَنْ أَغْرَقْنَا . وَأَنْبَأَ جَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَمْرِ السَّفِينَةِ وَإِجْرَائِهَا وَإِهْلَاكِ الْكَفَرَةِ ، وَأَسْتَقْرَارِ السَّفِينَةِ وَأَسْتَوَائِهَا ، وَتَوَجُّهِهُ أَوَامِرِ التَّسْخِيرِ إِلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : « وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حَجْرِيهَا وَمُرسَاها » إِلَى قَوْلِهِ : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْنِتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » . ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ » . فلما عجزوا حطَّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السور القصصار ؛ فقال جلَّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » . فأغصوا عن الجواب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سبي الحرِّم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً ، وأبلغ في الحجَّة وأشدَّ تأثيراً . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللمح ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن^(٢) .

فبلاغة القرآن أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدَّ الإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتِيَ من جوامع الكلم ، وأختص به من غرائب الحكم ؛ إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الجنان ، وإن كان في نهاية الإحسان ، وجدته منحطاً عن رتبة القرآن ؛ وذلك في قوله عليه السلام : « فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » فإين ذلك من قوله عَزَّ وَجَلَّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَبِهُ الْأَنْفُسُ وَتَلْدُ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُوَّةِ أَعْيُنٍ » . هذا أعذل وزنا ، وأحسن تركيباً ، وأعذب لفظاً ، وأقل حروفاً ؛ على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية ، لِأَنَّ الْكَلَامَ كُلَّمَا طَالَ اتَّسَعَ فِيهِ بِحَالِ الْمُتَصَرِّفِ ، وضاق المقال على القاصر المتكلف ؛ وبهذا قامت الحجَّة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة ؛ كما قامت الحجَّة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

(١) المحن (بالتحريك) : القطعة والفة . (٢) اللسن بالتحريك : الفصاحة .

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ؛ فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى الى غايته ؛ وكذلك الطب في زمان عيسى عليه السلام ، والفصاحة في زمان محمد صلى الله عليه وسلم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره

لا ألفت لما وضعه الواضعون ، وأخترقه المختلقون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ، في فضل سور القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ؛ قد أرتكبها جماعة كثيرة ، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثل : المغيرة بن سعيد الكوفي ، ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة ، وغيرهما ، وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي إلا ما شاء الله" ، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لهُوى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا ممن تأخذون دينكم ، فإننا كنا إذا هويانا أمرا صيرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حسبة كما زعموا ، يدعون الناس الى فضائل الأعمال ، كما روى عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي ، ومحمد بن عكاشة الكرماني ، وأحمد بن عبد الله الجؤياري ، وغيرهم . قيل لأبي عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة ؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهِه أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح في كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل القرآن سورة سورة ؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى الى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وإن أثر الوضع عليه ليقين . وقد أخطأ الواحد من المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤال والمكدين يقفون في الأسواق والمساجد ، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها ، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد ؛ قال جعفر بن محمد الطيالسي : صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، في مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالوا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان ؛ وأخذ في قصة نحو من عشرين ورقة ؛ فجعل أحمد ينظر الى يحيى ويحيى ينظر الى أحمد ؛ فقال : أنت حدثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة ؛ قال : فسكنا جميعا حتى فرغ من قصصه ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ؛ فقال أنا ابن معين ، وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا ؛ فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم ، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحق ، وما علمته إلا هذه الساعة ؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أني أحق ؟ قال : كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كفه على وجهه وقال : دعه يقوم ؛ فقام كالمستهزئ بهما ؛ فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن يجري مجراهم . يذكرون أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به ؛ فأهدى إليه حمام وعنده أبو البختري^(١)

(١) أبو البختري ، هو وهب بن وهب بن كثير . انتقل من المدينة الى بغداد في خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بمسكر المهدى (الحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرق من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ببغداد ، وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها الى أن توفي سنة مائتين .

القاضي فقال : روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا سبق إلا في حُفٍّ أو حافر أو جناح " فزاد : أو جناح ، وهي لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحمام أن يذبح ؛ فقبل له : وما ذنب الحمام ؟ قال : من أجله كُذِبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فترك العلماء حديثه لذلك ، وغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء ، ورواها الأئمة الفقهاء ، لكان لهم في ذلك غنية ، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : " اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم من كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار " الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب ، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه . فحذار مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حَسَبة فيما زعموا ، فتقبل الناس موضوعاتهم ، ثقة منهم بهم ، وركبوا اليهم ، فضلتوا وأضلوا .

باب ما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن

وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له — على نحو ما تقدم — وأنه محفوظ في الصدور ، مقروء باللسنة ، مكتوب في المصاحف ؛ معلومة على الاضطراب سورة وآياته ، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج في تعريفه بحدة ، ولا في حصره بعدد ، فمن ادعى زيادة عليه أو نقصانا منه ، فقد أبطل الإجماع ، وبهت الناس ، ورد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليه ، ورد قوله تعالى : « قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا » وأبطل آية رسوله

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شيب بالبطل، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، ونخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادّ لكتاب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، الى غير ذلك مما لم يثبت في الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته، ما يوجب له الحق والانصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبغ في زماننا هذا زائع زاع عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أممها، وينمي فرعها، ويحرسها من معائب أولى الحيف والجور، ومكايد أهل العدوّة والكفر .

فزعم أن المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأفرا ببقيتها، فمنها : «والعصر ونواب الدهر» فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين «ونواب الدهر» ومنها : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزینت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادعى أن عثمان والصحابة رضي الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة القرض والناس يسمعون : «الله الواحد الصمد» فأسقط من القرآن «قل هو» وغير لفظ

«أحد» وادعى أن هذا هو الصواب والذي عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ في صلاة الغرض : «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون» وطعن في قراءة المسلمين .

وادعى أن المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة ، منها : «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» فادعى أن الحكمة والعزة لا يساكلان المغفرة، وإن الصواب : «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» . وتراعى به الغنى في هذا وأشكاله حتى ادعى أن المسلمين يصحفون : «وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» والصواب الذي لم يغير عنده : «وكان عبدا لله وجيها» ، وحتى قرأ في صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : «لا تحرك به لسانك إن علينا جمعه وقرأته فإذا قرأناه فاتبع قرأته ثم إن علينا نبأ به» ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف على وأتم أذلة» ، وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط على مستقيم» ، وأخبرونا أنه أدخل في آية من القرآن ما لا يضاهي فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل في لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم : «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ» فقرأ : «أليس قلت للناس» في موضع : «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ» وهذا لا يعرف في نحو المعريين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين ؛ لأن العرب لم تقل : ليس قلت ، فأما : لست قلت ، بالتاء فشاذ قبيح خبيث رديء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل الماضي ، ولم يوجد مثل هذا إلا في قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم ، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضي الله عنه لما أسند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يُصَبِّ لأن عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اقرأ أمي أبي بن كعب» ولقوله عليه السلام : «من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد» . وقال هذا القائل : لي أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ، فقرأ : «إِنَّ هَذِينَ» ، «فأصدق وأكون» ، «وبشر عبادي الذين يفتح الياء» ، «فإنا أناني الله» بفتح الياء . والذي في المصحف : «إِنَّ هَذَانِ» بالالف ،

« فَأَصْلَقَ وَأَكْنُ » بغير واو ، « فَبَشَّرَ عِبَادَ » ، « فَمَا أَتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين في الموضعين .
وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي مصحف عثمان فقرأوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ
الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين ، يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم ، وفي المصحف نون واحدة ؛
وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتَمْدُونِ بِمَا » بنون واحدة ووقف على الياء ،
وفي المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ
كَفَرُوا رَبَّهُمْ » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هذا الذي شنع به على
القراء ما يلزمهم به خلاف للمصحف .

قلت : قد أشرنا الى العد فيما تقدم مما اختلف فيه المصاحف ، وسيأتي بيان هذه
المواضع في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبي بن كعب هو الذي قرأ « كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ،
ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبي بن كعب « حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » ، في رواية وقرأ أبي القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛
وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصيانة ، وإذا صح عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه ؛ وقال يحيى بن المبارك الزبيدي : قرأت
القرآن على أبي عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهد على ابن عباس ،
وقرأ ابن عباس على أبي بن كعب ، وقرأ أبي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها « وما كان
الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام
فليس بكافر ولا آثم .

حدثني أبي نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يروى من الحروف التي
تخالف المصحف الذي عليه الإجماع من الحروف التي يعرف أسانيدُها الخاصة دون العامة
فيما نقلوا فيه عن أبي : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ؛ وعن ابن عباس « ليس

عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج» ؛ ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » مع نظائر هذه الحروف كثيرة ، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحمل ، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جمدها جاهد أنها من القرآن لم يكن كافراً ؛ والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافراً ، حكمه حكم المرتد يستتاب ؛ فان تاب وإلا ضربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صنع عثمان رضى الله عنه في جمعه القرآن يعتد له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزيغ فأنكشف عواره ، ووضحت فضائحه ؛ قال أبو عبيد : وقد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن جرير عن أبي مجلز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله — بحفهم — جمع القرآن ، ثم قرءوا بما نُسَخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط بعلم كما أثبت الذي أثبت بعلم . قال أبو بكر في قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الانسان ؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغير والتبديل ، والزيادة والنقصان ؛ فاذا قرأ قارئ : « تبت يدي أبي لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُريته حمالة الحطب في جيدها حبل من ليف » فقد كذب على الله جلّ وعلا وقوله مالم يقل ، وبذل كتابه وحرّفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفي هذا الذي أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ، يُدخلوا في القرآن ما يحملون به عُرَا الإسلام ، وينسبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالإباطيل عليهم ؛ وفيه إبطال الإجماع الذي به يحرس الإسلام ، وبنياته تقام الصلوات ، وتؤدى الزكوات وتحمى المتعبّات . وفي قول الله تعالى : « الرِّكَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدمية هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر ، لأن معنى « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها ، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلاً ، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلى وكان الله قويا عزيزا . فقال في القرآن هُجْراً ، وذكر علياً في مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحد ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

« قل هو » وغير « أحد » فقراً : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نفى له وكفر ، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفَر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّاً عليهم : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ففى « هو » دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب ؛ فإذا سقط بطل معنى الآية ، ووضع الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويقال لهذا الإنسان ومن يشتمل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى تقرأه ولا نعرف نحن ولا من كان قبلنا من أسلافنا سواء ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله الى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عاير من الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمهما من كل زلل وخل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسيلين من عين تجرى من تحت الحجر » فأى زيادة فى القرآن أوضح من هذه ، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تَوَلَّمت وبحث عن معناها وجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشا كل كلام البارئ تعالى ولا تختلط به ، ولا توافق معناه ، وذلك أن بعدها « لا يأكله إلا الخاطئون » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها ، « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسيلين من عين تجرى من تحت الحجر لا يأكله إلا الخاطئون » فهذا متناقض يفسد بعضه بعضاً ؛ لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ؛ لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصفة فى القرآن الذى من خالف حرفاً منه كفر : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ » لا يأكل الغسيلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصيد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة ، والشراب محال أن

يؤكل؛ فإن ادعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذي زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما حمد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله ردًا لقوله، ونحزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما يأتي بيانه عند قوله تعالى : « مَا تَنَسَخْ مِنْ آيَةٍ » إن شاء الله تعالى .

القول في الاستعاذة

وفيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت أن تقرأ؛ فاقوع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر :

وإني لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الود واستئناف ما كان فى غدٍ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت، كما قال تعالى : « ثُمَّ دَنَى فَقَدَلَّى » المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » وهو كثير .

الثانية — هذا الأمر على الندب فى قول الجمهور، وحكى النقاش عن عطاء : أن الاستعاذة واجبة فى صدور كل قراءة فى غير الصلاة، واختلفوا فيه فى الصلاة، وكان ابن سيرين والنخعي وقوم يتعوذون فى الصلاة فى كل ركعة، ويمتنلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم؛ وأبو حنيفة والشافعي «يتعوذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثة — أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوذ لأنه

لفظ كتاب الله تعالى . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : ” يَا بَنَ أُمِّ عَبْدِ أَعُوذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ هَكَذَا أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَنِ اللّٰوْحِ الْمَحْفُوظِ عَنِ الْقَلَمِ “ .

الرابعة — روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة فقال عمرو : لا أدري أى صلاة هي ؟ فقال : ” الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفَخَهُ وَنَفَثَهُ وَهَمَزَهُ “ . قال عمرو : هَمَزَهُ الْمُؤْتَةُ ، وَنَفَثَهُ الشَّعْرُ ، وَنَفَخَهُ الْكِبَرُ . وقال ابن ماجه : الْمُؤْتَةُ يَعْنِي الْجَنُونَ . وَالنَّفَثُ : نَفَخَ الرَّجُلُ مِنْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرُجَ رِيْقُهُ . وَالْكِبَرُ : الْتِيَةُ . وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كَبَّرَ ثم يقول : ” سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ — ثم يقول : — لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمَزَهُ وَنَفَخَهُ وَنَفَثَهُ “ ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن القاسم رحمه الله أن الاستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : « وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المرید ؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نِعَمَتِ الْبِدْعَةُ ، وَلَا أَقُولُ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ » .

الخامسة — قال المهدوي : أجمع القراء على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة « الحمد » إلا حمزة فإنه أسرها . وروى السدي عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السمرقندي عن بعض المفسرين أن التعوذ فرض ، وإذا نسيه

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور في سند هذا الحديث (أنظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٢٩ وسنن أبي داود ج ١

ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) في بعض النسخ : « أبي القاسم » . (٣) في بعض النسخ : « المسيي » .

لقارئ وذكركه في بعض الحزب قطع وتعوذ، ثم ابتداء من أوله . وبعضهم يقول : يستعيز ثم يرجع الى موضعه الذي وقف فيه ؛ وبالأول قال أسانيد الحجاز والعراق ؛ وبالثاني قال أسانيد الشام ومصر .

السادسة — حكى الزهراوى قال : نزلت الآية في الصلاة وتُنبأنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة وليس بفرض ؛ قال غيره : كانت فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم تأسبنا به .

السابعة — روى عن أبي هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربي : « انتهى العي بقوم إلى أن قالوا : إذ أفرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة ، وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها بامثالها أمراً أو اجتنابها نهياً ؛ وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة ؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » . قال ابن العربي : ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » قال : ذلك بعد قراءة أم القرآن لمن قرأ في الصلاة ، وهذا قول لم يرد به أثر ، ولا يعضده نظر ؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن في الصلاة دعوى عريضة ، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فالثمة أعلم بسر هذه الرواية .

الثامنة — في فضل التعوذ . روى مسلم عن سليمان بن صرد قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنفخ أوداجه ؛ فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ” إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم “ . فقام الى الرجل رجل ممن سمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل تدري ما قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا ؟ قال : ” إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم “ . فقال له الرجل : أجنونا تراني ! أخرجه البخاري أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ذاك شيطان يقال له خنزب ^(١) فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه وأنفل عن يسارك ثلاثا “ قال : ففعلت فأذهب الله عني . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : ” يا أرضُ ربِّي وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يبدب عليك ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد “ . وروى خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل “ . أخرجه الموطأ ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوذ منه كثير ثابت في الأخبار ، والله المستعان .

التاسعة — معنى الاستعاذة في كلام العرب : الاستجارة والتحيز إلى الشيء ، على معنى الامتناع به من المكروه ؛ يقال : عذت بفلان واستعذت به ، أي بلأت إليه ؛ وهو عياذي ، أي ملجئي . وأعذت غيري به وعوذته بمعنى . ويقال : عوذ بالله منك ، أي أعوذ بالله منك ؛ قال الراجز .

قالت وفيها حيدة وذعر * عوذُ ربِّي مِنكمْ وحجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] ^(٢) : حجرا له (بالضم) أي دفعا ، وهو استعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويد كله بمعنى . وأصل أعوذ : أَعُوذُ نقلت الضمة إلى العين لا سنثقالها على الواو فسكنت .

(١) قوله : يقال له خنزب . في نهاية ابن الأثير : « قال أبو عمرو : وهو لقب له ، والخنزب (بالفتح) :

قطعة لم تنته ويرى بالكسر والضم » . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادة (حجر) .

العاشرة — الشيطان واحد الشياطين على التكسير والتون أصلية ، لأنه من شَطَن إذا بَعَدَ عن الخير ، وشطنت داره أى بعدت ؛ قال الشاعر :^(١)

نَأَتْ بِسَمَادٍ عَنْكَ نَوَى شَطُونُ * فَبَأَنْتَ وَالْفَوَادُ بِهَا رَهِينُ

وبثر شَطُون أى بعيدة القعر . والشَّطَن : الحبل ، سُمِيَ به لبعده طرفيه وامتداده . ووصف أعرابي فرسا [لَا يَحْتَفَى]^(٢) فقال : كأنه شيطان فى أشطان . وسمى الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمزده ، وذلك أن كل عاتٍ ممتزٍ من الجن والإنس والدواب شيطان ؛ قال جرير :
أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلٍ * وَهُنَّ يَهْوِينَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانًا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك^(٣) ، فالتون زائدة . وشاط إذا احترق . وشيطت اللحم إذا دخته ولم تنضجه . واشتاط الرجل إذا احتد غضبا . وناقة مشياط التى يطير فيها السَّمَن . واشتاط إذا هلك ؛ قال الأعشى :

قَدْ تَحْضِبُ الْعَيْرَ مِنْ مَكْنُونٍ فَائِلُهُ * وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَاطِلُ^(٤)

أى يهلك . ويرد على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشِيطُن فلان إذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بين أنه تفعيل من شطن ، ولو كان من شاط لقالوا : تشيط ، ويرد عليهم أيضا بيت أمية بن أبى الصلت :

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ^(٥) * وَرَمَاهُ فِي السَّجْنِ وَالْأَغْلَالِ

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجم أى المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرحمه ، فهو رجم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرده والشم ، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » . وقول أبى إبراهيم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

(١) هو النابتة الذباني كما فى لسان العرب مادة (شطن) . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادة (شطن) .

(٣) فى الأصول : « إذا بطل » ، والتصويب عن اللسان . (٤) الفائل : عرق فى الفخذين يكون

فى خربة الورك يتحد فى الرجلين . (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شده .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال علي بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه ، قلت : ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله ؟ قال : « هذا الشيطان الرجيم » فقلت : يا عدو الله ، والله لأقتلنك ولأريحن الأمة منك ؛ قال : ما هذا جزائي منك ؛ قلت : وما جزاؤك مني يا عدو الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحد قط إلا شيركت أباه في رحم أمه .

البسمة

وفيها سبع وعشرون مسألة :

الأولى — قال العلماء : بسم الله الرحمن الرحيم ، قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة ، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق ، وإني أني لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدى ولطفى وبترى . و « بسم الله الرحمن الرحيم » مما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشرع ، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات ، وهذا صحيح .

الثانية — قال سعيد بن أبي سكينه : بلغني أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه نظر الى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال له : جودها فإن رجلا جودها فغفر له . قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبله ووضعها على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بشر الحافي ، فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها طيب اسمه^(١) ، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله

(١) نص القصة كما في وفيات الأعيان والرسالة القشيرية : « ... وسبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل وقد وطنها الأقدام ، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالبه فطيب بها الورقة وجعلها في شق حائط ، فرأى في النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر ، طيب اسمي لأطيقك في الدنيا والآخرة . فلما اتقه من نومه تاب .

صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تمس الشيطان فإنه يتعاضم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علي بن الحسين في تفسير قوله تعالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجي الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون في كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنا لك هي قوتهم ، وبسم الله استضعفوا . قال ابن عطية : ونظير هذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظ « هي » من كلمات سورة « إنا أنزلناه » . ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ؛ فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يتدرونها أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثة - روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب « باسمك اللهم » حتى أمر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلما نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفي مصنف أبي داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمار : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعة - روى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور .

قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وقد اختلف العلماء في هذا

المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثاني) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة؛ وتردد قوله في سائر السور؛ فتره قال :

هي آية من كل سورة، ومرة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .

وأحتج الشافعي بما رواه الدارقطني من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فأقروا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأتم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها “ . رفع هذا الحديث عبد الحميد ابن جعفر، وعبد الحميد هذا وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبو حاتم يقول فيه : محله الصدق؛ وكان سفيان الثوري يضعفه ويحمل عليه . ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغشى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : ” نزلت على آتفا سورة “ فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » . وذكر الحديث، وسيأتي بكمالهِ في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الاحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه . قال ابن العربي : « ويكفيك أنها

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا في الأصول والتصويب عن سنن الدارقطني وتهذيب التهذيب . وعبد الحميد بن جعفر هذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفي . راجع تهذيب التهذيب .

ليست من القرآن اختلاف الناس فيها ، والقرآن لا يختلف فيه . والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدي عبدي وإذا قال العبد الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثني على عبدي وإذا قال العبد مالك يوم الدين قال تجدي عبدي — وقال مرة فوض إلى عبدي — فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدى ما سأل فإذا قال آمين الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل . فقله سبحانه : قسمت الصلاة ؛ يريد الفاتحة ، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ بفعل الثلاث الآيات الأولى لنفسه ، واختص بها تبارك اسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى ، ثم ثلاث آيات تمتع سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : " هؤلاء لعبدى " أخرجه مالك ؛ ولم يقل : هاتان ؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال ابن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعالى وبقوله عليه السلام لأبي : " كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة " قال : فقرأت « الحمد لله رب العالمين » حتى أتيت على آخرها أن البسملة ليست بآية منها ، وكذا عد أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القراء عدوا « أنعمت عليهم » آية ، وكذا روى قتادة عن أبي نضرة عن أبي هريرة قال : الآية السادسة « أنعمت عليهم » . وأما أهل الكوفة من القراء والفقهاء فإنهم عدوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فإنها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت في النمل ، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكروا صحيح ؛ ولكن لكونها قرآنا ، أو لكونها فاصلة بين السور

— كما روى عن الصحابة : كما لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود — أوتبركا بها ، كما قد اتفقت الأمة على كتبها في أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجريري^(١) : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : في صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » في شيء من القرآن إلا في طس « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » . والفصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطراري . ثم قد اضطرب قول الشافعي فيها في أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ، والحمد لله .

فان قيل : فقد روى جماعة قرآنياتها ، وقد تولى الدارقطني جمع ذلك في جزء صحيحه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة في مقابقتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الاثبات . روت عائشة في صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، الحديث . وسيأتي بكامله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لافي أول قراءة ولا في آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجح في ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول ؛ وذلك أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرت عليه الأزمنة والدهور ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قط « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسنّة ، وهذا يرد أحاديثكم .

بيد أن أصحابنا استحجوا قراءتها في النقل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السعة في ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأها في النافلة ومن يعرض القرآن عرضا .

(١) الجريري (بضم الجيم وفتح الزا) الأول وكسر الثانية وسكون يا . ينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) :

وهو سعيد بن إلياس الجريري أبو مسعود البصري .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلى في المكتوبة ولا في غيرها سرا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها في النوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه رواية أخرى أنها تقرأ أول السورة في النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنه ابن نافع ابتداء القراءة بها في الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لا بد فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ابن عمر ، وابن شهاب ؛ وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهذا يدل على أن المسألة مسألة اجتهادية لا قطعية ، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور ؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإصرار بها مع الفاتحة منهم : أبو حنيفة والثوري ؛ وروى ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وعمار وابن الزبير ؛ وهو قول الحكم وحامد ؛ وبه قال أحمد ابن حنبل وأبو عبيد ؛ وروى عن الأوزاعي مثل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبد البر في (الاستذكار) . واحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رزيق^(١) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يمجهر بسم الله الرحمن الرحيم . قلت : هذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة . وقد روى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون المسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان الإمامة — يعنون مسيلمة — فأمر أن يخافت بسم الله الرحمن الرحيم ، ونزل : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا » . قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هذا على

(١) كذا في تهذيب التهذيب . ورزيق بتقديم الراء على الزاي مصفرا . وفي الأصول : « عمار بن رزيق وهو خطأ » .

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرَّمْلُ في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة - اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فان كان الكتاب ديوان شعر فروى مجاهد عن الشعبي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وقال الزهري : مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذهب الى رسم التسمية في أول كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي نختاره ونستجبه .

السابعة - قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله : بمسمل، وهي لغة مولدة، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد بَسَمَلْتُ لِسْلَى غَدَاةَ لَقِيْمَتِهَا * فَيَا حَبِذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمَبْسَمِلُ

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السكيت والمطهرز والنعالي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، اذا قال : بسم الله . يقال : قدأكثر من البسملة، أى من قول بسم الله . ومثله حَوَقَلَ الرجل اذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله . وهَلَّلَ، اذا قال : لا إله إلا الله . وَسَبَّحَلَ، اذا قال : سبحان الله . وَحَمَّدَلَ، اذا قال : الحمد لله . وَحَيَّصَلَ، اذا قال : حي على الصلاة . وَجَعَّقَلَ، اذا قال : جعلت فداك . وَطَبَّقَلَ، اذا قال : أطال الله بقاءك . وَدَمَّعَزَ، اذا قال : أدام الله عزك . وَحَيَّقَلَ، اذا قال : حي على الفلاح . ولم يذكر المطهرز : الحَيَّصَلَةَ، اذا قال : حي على الصلاة . وَجَعَّقَلَ، اذا قال : جعلت فداك . وَطَبَّقَلَ، اذا قال : أطال الله بقاءك . وَدَمَّعَزَ، اذا قال : أدام الله عزك .

الثامنة - ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ أَرُكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

(١) عليه وسلم : " أغلق بابك وأذ كر اسم الله وأطفئ مصباحك وأذ كر اسم الله ونحر إناءك وأذ كر اسم الله وأولك سقاءك وأذ كر اسم الله " . وقال : " لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدا " . وقال لعمر بن أبي سلمة : " يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك " وقال : " إن الشيطان يستحل الطعام ألا يذكرك اسم الله عليه " وقال : " من لم يذبح فليذبح باسم الله " . وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعا يحده في جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر " . هذا كله ثابت في الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله " . وروى الدرقي عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمي الله تعالى ، ثم يفرغ الماء على يديه .

التاسعة — قال علماؤنا : وفيها رد على القدرية وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك ، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله ، أي بالله . ومعنى بالله ، أي بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله بسم الله ، يعني بدأت بعون الله وتوقيقه وبركته ، وهذا تعليم من الله تعالى عباده ، ليدذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز .

العاشرة — ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صلة زائدة ، واستشهد بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(١) التفسير: النقطه . والوكاء : الخيط الذي تشد به الصرة والكيس وغيرها . أي شدرا روس الأسقية بالوكاء . لتلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شيء .

فذكر اسم زيادة، وإنما أراد ثم السلام عليهما .

وقد استدل علماؤنا بقول لييد هذا على أن الاسم هو المسمى . وسيأتي الكلام فيه في هذا الباب وغيره ، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — اختلف في معنى زيادة « اسم » ؛ فقال قُطْرُب : زيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك ؛ لأن أصل الكلام بالله .

الثانية عشرة — اختلفوا أيضا في معنى دخول الباء عليه ، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : ابدأ بسم الله ، أو على معنى الخبر؟ والتقدير : ابتدأت بسم الله ، قولان : الأول للفقهاء ، والثاني للزجاج . فبسم في موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى ابتدأت بسم الله ؛ فبسم الله في موضع رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محذوف ، أي ابتدأت مستقرا أو ثابت بسم الله ؛ فإذا أظهرته كان بسم الله في موضع نصب بثابت أو مستقر ، وكان بمنزلة قولك : زيد في الدار . وفي التنزيل : « فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » فعنده في موضع نصب ؛ روى هذا عن نحة أهل البصرة . وقيل : التقدير ابتدأت بسم الله موجود أو ثابت ، فبسم في موضع نصب بالمصدر الذي هو ابتدأت .

الثالثة عشرة — بسم الله ، تكتب بغير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال ؛ بخلاف قوله : « أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ » فانها لم تحذف لقلة الاستعمال . واختلفوا في حذفها مع الرحمن والقاهر ؛ فقال الكسائي وسعيد الأخفش : تحذف الألف . وقال يحيى ابن ثابت : لا تحذف إلا مع بسم الله فقط ، لأن الاستعمال إنما كثُر فيه .

الرابعة عشرة — واختلف في تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ ف قيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لما كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خصت بالخفض

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف فى قول الشاعر :

* وَرُحْنًا يَكَابِنِ الْمَاءُ يُجَنَّبُ وَسَطَنَا *

أى يمثل ابن الماء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة - اسم ، وزنه إفع ، والذاهب منه الواو ، لأنه من سَمَوْتُ وجمعه أسماء وتصغيره سُمَّى . واختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فَعَلَ ، وقيل : فَعُل . قال الجوهري : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جذع وأجذاع ، وقفل وأقفال ؛ وهذا لا تدرك صيقته إلا بالسمع . وفيه أربع لغات : اسم بالكسر ، وأسم بالضم ، قال أحمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقال : سِمَّ وسم ، وينشد :

والله أَسْمَاكَ سُمًّا مَبَارَكَا * أَشْرَكَ اللَّهُ بِهِ إِثْرَاكَ

وقال آخر :

وعَامُنَا أَعْجَبَنَا مَقْدَمُهُ * يُدْعَى أَبَا السَّمْحِ وَقِرْضَابُ سِمُهُ
* مُبْتَرِكَا لِكُلِّ عَظْمٍ يَلْحَمُهُ ^(٢) *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابساً فهو قرضاب . سِمُهُ بالضم والكسر جميعا . ومنه قول الآخر :

* بِاسْمِ الذِّى فِي كُلِّ سُورَةٍ سِمُهُ *

وسكنت السين من بسم اعتلا^(٣) على غير قياس ، وألفه ألف وصل ، وربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ، كقول الأحموس :

وما أنا بِالْمُخْشُوسِ فِي جِذْمِ مَالِكٍ * وَلَا مَنْ تَسْمَى ثُمَّ يَلْتَرَمُ الْإِسْمَا ^(٤)

(١) هو امرؤ القيس . وتام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتد على الشيء ، ملح . ويلح به : يزعج عنه اللحم .

(٣) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة الى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا .

(٤) المخشوس : المرذول . وجذم كل شئ : أصله .

ومالك : جد أعلى للشاعر .

السادسة عشرة — تقول العرب في النسب الى الاسم : سُمِّيَ ، وإن شئت : اُسْمِيَ ، تركته على حاله ، وجمعه أسماء ، وجمع الأسماء أسام . وحكى الفراء : أُعِيدَ بِكَ بِأَسْمَاءَاتِ اللَّهِ . السابعة عشرة — اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السَّمَو وهو العلو والرفعة ، فقليل : اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الاسم يسمى بالمسمى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سمي الاسم اسماً لأنه علا ببقوته على قسمي الكلام : الحرف والفعل ؛ والاسم أقوى منهما بالاجماع لأنه الأصل ؛ فلعلوه عليهما سمي اسماً ؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السَّمة وهي العلامة لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» . والأول أصح لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء ؛ والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضاً فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة — فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم ، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته ؛ وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات ، فاذا أفناهم بقى بلا اسم ولا صفة ؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة ، وهو أعظم في الخطأ من قولهم : إن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيب — إلى أن الاسم هو المسمى ، وارتضاه ابن قُورْك ؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فاذا قال قائل : الله عالم ، فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالماً ، فالاسم كونه عالماً وهو المسمى بعينه وكذلك إذا قال : الله خالق ، فالخالق هو الرب ، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينفي الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى ، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات وهي غير العبارات وهي الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان في « البقرة والأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ؛ ولذلك لم يُثن ولم يجمع ؛ وهو أحد تأويل قوله تعالى « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمى باسمه الذى هو « الله » . فأنه اسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقى ، لا إله الا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال ؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات علم ؟ . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله ؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه ، مثل فَعَال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة « لاه » وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ لَا أَفْضَلَ مِنْكَ فِي حَسَبٍ * غَنَى وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتَخْزُونِي

كذا الرواية : فتخزونى ، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفراء : معنى بسم الله ، بسم الإله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشددة ؛ كما قال عز وجل : « لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي » ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَهُ » إذا تحير ؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وله وأمرأة والهة وواله ، وماء موله^(١) : أرسل فى الصحارى . فأنه سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشد وتفتح الواو .

الألّاب وتذهب في حقائق صفاته والفكر في معرفته . فعلى هذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت في إشاح ووشاح ، وإسادة ووسادة ، وروى عن الخليل . وروى عن الضحاك أنه قال : إنما سمي « الله » إلهاء ، لأن الخلق يتألهون إليه في حوائجهم ، ويتضرعون إليه عند شدائدهم . وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألهون إليه (بنصب اللام) ويألهون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لآها ، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبد . وتأله إذا تنسك . ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكْ وَلَا هَتَكَ » على هذه القراءة ، فإن ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هذا ، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنه قول الموحدين : لا إله إلا الله ، معناه لا معبود غير الله . وإلا في الكلمة بمعنى غيره ، لا بمعنى الاستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التي هي الكناية عن الغائب ، وذلك أنهم أثبتوه موجودا في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار « له » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيمًا .

القول الثاني : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعي وأبو المعالي والخطابي والغزالي والمفضل وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابي : والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم ، ولم يدخلها للتعريف دخول حرف النداء عليه ، كقولك : يا الله ، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ، ألا ترى أنك لا تقول : يا الرحمن ولا يا الرحيم ، كما تقول : يا الله ، فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — واختلفوا أيضا في اشتقاق اسم الرحمن ، فقال بعضهم : لا اشتقاق له ، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم ، فإذن يقال : الله رحمن بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

لم تذكره العرب حين سمعوه ، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عز وجل : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ» الآية . ولما كتب على رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَّةَ بأمر النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل بن عمرو : أما بسم الله الرحمن الرحيم ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم ، الحديث . قال ابن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن ؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن ؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى : «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ» . وذهب الجمهور من الناس إلى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع .

قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما أخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» . وهذا نص فى الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق ، وإنكار العرب له بلهلم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له : أن الرحمن اسم عبرانى بقاء معه بالرحيم . وأنشد :

لَنْ تُدْرِكُوا الْمَجْدَ أَوْ تُشْرُوا عِبَاءَكُمْ * بِالْخَزْ أَوْ تَجْعَلُوا الْيَنْبُوتَ ضَمْرَانَا
أَوْ تَرْكُونَ إِلَى الْقَسَّيْنِ هِجْرَتَكُمْ * وَمَسْحَكُمْ صَلْبِهِمْ رَحْمَانٌ قُرْبَانَا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربى والرحمن عبرانى ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للدح كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مطرف عن قتادة فى قول الله عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن . وقال قطرب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق :

وهذا قول حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب، ويستغنى عن الاستشهاد؛ والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد: إنه تفضّل بعد تفضّل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعد لا يخيب آمله.

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنىين؟ فقيل: هما بمعنى واحد كندمان ونديم. قاله أبو عبيدة. وقيل: ليس ببناء فعّال كفعيل، فإن فعّال لا يقع إلا على مبالغة الفعل، نحو قولك: رجل غضبان، للمتلّى غضبا. وفعل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول. قال عمّس^(١):

فأما إذا عضت بك الحرب عضّة * فإنك معطوف عليك رَحِيمٌ

فالرحمن خاص الاسم عام الفعل. والرحيم عام الاسم خاص الفعل. هذا قول الجمهور.

قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، كما قال تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا». وقال العرزمي^(٢): الرحمن بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة، والرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم، واللفظ بهم. وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسئل غضب. وروى ابن ماجه في سننه والترمذي في جامعه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يسأل الله بغضب عليه" لفظ الترمذي. وقال ابن ماجه: "من لم يدع الله سبحانه غضب عليه" وقال: سألت أبا زرعة عن أبي صالح هذا، فقال: هو الذي يقال له: الفارسي وهو خوزي^(٣) ولا أعرف اسمه. وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

الله يغضب إن تركت سؤاله * وبني آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة.

(١) هو عمّس بن عقيل كما في هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم. (٢) هو عبد الملك

ابن أبي سليمان العرزمي كما في الخلاصة. (٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة.

قال الخطابي : وهذا مشكل ، لأن الرقة لا مدخل لها في شيء من صفات الله تعالى .
وقال الحسين بن الفضل البجلي : هذا وهم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى
في شيء ، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل ،
قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على
العنف “ .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عز وجل ، لا يجوز
أن يسمى به غيره ، ألا تراه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » فعادل الاسم الذى
لا يشركه فيه غيره . وقال : « وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ » فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز . وقد تجاسر مسيامة
الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسم به حتى قرع سامعه نعت
الكذاب فالزمه الله تعالى لذلك ، وإن كان كل كافر كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمسيامة
علما يعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى اسمه الرحمن : إنه اسم الله الأعظم ، ذكره
ابن العربى .

السادسة والعشرون — الرحيم صفة مطلقة للخلقين ، ولما فى الرحمن من العموم قدم
فى كلامنا على الرحيم مع موافقة التنزيل ، قاله المهدوى . وقيل : إن معنى الرحيم أى بالرحيم
وصلتم إلى الله وإلى الرحمن ، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال :
« رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن والرحيم ، أى وبمحمد صلى الله
عليه وسلم وصلتم إلى ، أى باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ،
والله أعلم .

السابعة والعشرون — روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال فى قوله
بسم الله : إنه شفاء من كل داء ، وعون على كل دواء . وأما الرحمن ، فهو عون لكل من
آمن به ، وهو اسم لم يسم به غيره . وأما الرحيم ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسرهم على الحروف ، فروى عن عثمان بن عفان أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم فقال : ” أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرتة وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة “ . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : ” الباء بهاؤه والسين سنأؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعاذه “ . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ؛ فالباء مفتاح اسمه بصير ، والسين مفتاح اسمه سميع ، والميم مفتاح اسمه مليك ، والألف مفتاح اسمه الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والهاء مفتاح اسمه هادي ، والراء مفتاح اسمه رازق ، والحاء مفتاح اسمه حلیم ، والنون مفتاح اسمه نور ؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون — واختلف في وصل الرحيم بالحمد لله ؛ فروى عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، الرحيم الحمد يسكن الميم ويقف عليها ، ويتبدئ بالألف مقطوعة ؛ وقرأ به قوم من الكوفيين ، وقرأ جمهور الناس : الرحيم الحمد ، تعرب الرحيم بالخفض وتوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد ، بفتح الميم وصلة الألف كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية : ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظري يحيى بن زياد في قوله تعالى : « أَلَمْ آتِ اللَّهَ » .

تفسير سورة الفاتحة

”بِحَوْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ“

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول - في فضائلها وأسمائها ، وفيه سبع مسائل

الأولى - روى الترمذى عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ”ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة بينى
 وبين عبدى وامبدى ما سأل“ . أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن
 أباً سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى
 أبى بن كعب وهو يصلى ؛ فذكر الحديث . قال ابن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على
 اسم وهو معدود فى أهل المدينة ، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل ؛ وقد روى
 هذا الحديث عن أبى سعيد بن المعلّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضاً ؛ رواه عنه
 حفص بن عاصم ، وعبيد بن حنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد : لا يوقف له على اسم . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف
 فى اسمه . والحديث خرجه البخارى عن أبى سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد
 فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلى ؛ فقال :
 ”ألم يقل الله أَتَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ“ - ثم قال : - ”إني لأعلمنك سورة
 هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد“ ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج
 قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : ”الحمد لله رب العالمين
 هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته“ . قال ابن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلّى

من جلة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرد به البخاري، واسمه رافع، ويقال : الحارث بن نفيح بن المعلی، ويقال : أوس بن المعلی^(١)، ويقال : أبو سعيد بن أوس بن المعلی ؛ توفي سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة] ، وهو أول من صلى الى القبلة حين حُوت ، وسيأتي . وقد أسند حديث أبي يزيد بن زريع قال : حدثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي وهو يصلي ؛ فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأنباري في كتاب الرد له : حدثني أبي حدثني أبو عبيد الله الوراق حدثنا أبو داود حدثنا شيبان عن منصور عن مجاهد قال : إن إبليس - نعت الله - رَكَ أربع رنات : حين لُعن ، وحين أهبط من الجنة ، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين نزلت فاتحة الكتاب ، وأنزلت بالمدينة .

الثانية - اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض ، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض ؛ فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض ؛ لأن الكل كلام الله ، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها ؛ ذهب الى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري ، والقاضي أبو بكر بن الطيب ، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي ، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك . قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو ترّد دون غيرها . وقال عن مالك في قول الله تعالى : « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » . قال محمكة مكان منسوخة . وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول ؛ والذاتية في الكل واحدة ، وهي كلام الله ، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستي : ومعنى هذه اللفظة " ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن " ، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال ابن حجر في الإصابة : « وهو خطأ ، فإنه يستلزم أن تكون نصته مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير ،

وسبق الحديث بإسناده » .

ما يعطى لقارئ أم القرآن ، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم ، وأعطاهما من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه ، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : ” أعظم سورة “ أراد به في الأجر ، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض . وقال قوم بالتفضيل ، وأن ما تضمنه قوله تعالى : «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسي ، وآخرة سورة الحشر ، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلاً في «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها ، لا من حيث الصفة ، وهذا هو الحق . ومن قال بالتفضيل اسحاق بن راهويه وغيره من العلماء والمتكلمين ، وهو اختيار القاضي أبي بكر بن العربي وابن الحصار ، لحديث أبي سعيد بن المولى وحديث أبي بن كعب أنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا أبا أي- آية معك في كتاب الله أعظم “ قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب في صدرى وقال : «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أبا المنذر» أخرجه البخاري ومسلم .

قال ابن الحصار : عجيبي ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص .

وقال ابن العربي : قوله : ” ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها “ وسكت عن سائر الكتب ، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها ؛ لأن هذه المذكورة أفضلها ، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل ، صار أفضل الكل ، كقولك : زيد أفضل العلماء ، فهو أفضل الناس .

وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده ، ولا تصح القرابة إلا بها ، ولا يلحق عمل بشواها ، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم ،

(١) ضبطه ابن خلكان فقال : « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة ، وقبل فيه أيضا : راهويه ، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء » .

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قل هو الله أحد» فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبي : «أى آية في القرآن أعظم» قال : «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له» أفضل الله كرهاً لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد ، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ، ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، وشهادة الله أنه لا إله إلا هو ، وقيل اللهم مالك الملك ، هذه الآيات معلقة بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب» . أسنده أبو عمرو الداني في كتاب البيان له .

الرابعة — في أسمائها وهي اثنا عشر اسماً :

(الأول) الصلاة ، قال الله تعالى : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث . وقد تقدم .

(الثاني) الحمد ، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب ، من غير خلاف بين العلماء ، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً ، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطأ ، وتفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، وفي هذا الاسم خلاف ، جوزه الجمهور ، وكرهه أنس والحسن وابن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام ، قال الله تعالى : «آيات محمدات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» . وقال أنس وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : «ولأنه في أم الكتاب» .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا، بخوزه الجمهور، وكرهه أنس وابن سيرين؛ والأحاديث الثابتة تزد هذين القولين . روى الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي البخارى قال : وسميت أم الكتاب لأنه يتبدأ بكتابها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة . وقال يحيى بن يعمر : أم القرى مكة . وأم خراسان : مرو . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع علومه ، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أول الأرض ومنها دُحيت ، ومنه سميت الأم أمًا لأنها أصل النسل ، والأرض أمًا ، في قول أمية بن أبي الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا * فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب : أم ، لتقدمها واتباع الجيش لها . وأصل أم أمّة ، ولذلك تجمع على أمّات ، قال الله تعالى : « وَأُمّهَاتُكُمْ » . ويقال : أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجَّتِ الظَّلَامَ بِأُمّاتِكَ *

وقيل : إن أمّات في الناس ، وأمّات في البهائم ، حكاه ابن فارس في المعجم .

(السادس) المثاني ، سميت بذلك لأنها تُتلى في كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والاعتراف بالمعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانتة تعالى ، وعلى الابتهاال إليه في الهداية الى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارمى^(١) عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم" .

(١) في بعض الأصول : « الدارقطنى » .

(التاسع) الرقية، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رقى سيد الحي : "ما أدراك أنها رقية" فقال : يا رسول الله شيء ألقى في روعي، الحديث . نخرجه الأئمة وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس، شكا رجل الى الشعبي وجع الحاصرة ؛ فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دحيت ؛ وأساس السموات غريباً^(١)، وهي السماء السابعة ؛ وأساس الأرض عجيباً، وهي الأرض السابعة السفلى ؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهي سره الجنان عليها أسست الجنة ؛ وأساس النار جهنم، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ؛ وأساس الخلق آدم ؛ وأساس الأنبياء نوح ؛ وأساس بنى إسرائيل يعقوب ؛ وأساس الكتب القرآن ؛ وأساس القرآن الفاتحة ؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فإذا اعتلت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادى عشر) الوافيه، قاله سفيان بن عيينة، لأنها لا تنصف ولا تحتل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها فى ركعة، ونصفها الآخر فى ركعة، لأجزأ ؛ ولو نصف الفاتحة فى ركعتين لم يجز .

(الثانى عشر) الكافية، قال يحيى بن أبى كثير : لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلاد الاسكندراني قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضاً" .

الخامسة - قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وقيل : السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : أن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدم والله أعلم .

السادسة - ليس في تسميتها بالمثنائي وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي » فأطلق على كتابه : مثنائي، لأن الأخبار تثني فيه . وقد سميت السبع الطول أيضا مثنائي ، لأن الفرائض والقصص تثني فيها . قال ابن عباس : أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثنائي ؛ قال : السبع الطول . ذكره النسائي ، وهي من البقرة إلى الأعراف ست ، واختلفوا في السابعة ، ف قيل : يونس ، وقيل : الأنفال والتوبة ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فَلِجُوعِ الْمَسْجِدِ وَادْعُوا رَبِّكُمْ * وَادْرَسُوا هَذِي الْمَثَانِي وَالطُّوْلَ

وسياق لهذا مزيد بيان في سورة « الحجر » إن شاء الله تعالى .

السابعة - المثنائي جمع مثنى، وهي التي جاءت بعد الأولى ، والطول جمع أطول . وقد سميت الأنفال من المثنائي لأنها تتلو الطول في القدر . وقيل : هي التي تزيد آياتها على المفصل وتنقص عن المثني . المثون : هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثاني - في نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة

الأولى - أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات ؛ إلا ما روى عن حسين الجعفي : أنها ست ، وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمر بن عبيد أنه جعل « إياك نعبد » آية ، وهي على عده ثمان آيات ، وهذا شاذ . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي » وقوله : « قسمت الصلاة » الحديث ، رد هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود في مصحفه ، ولما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنباري قال : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان ابن الأشعث حدثنا ابن أبي قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

قيل لعبد الله بن مسعود : لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها ، فقال : اختصرت بإسقاطها ، ووثقت بحفظ المسلمين لها ، ولم أثبتها في موضع فيلزمي أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تقدمها في الصلاة .

الثانية — اختلفوا أهى مكة أم مدنية ؟ . فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحي — واسمه رفيع — وغيرهم : هى مكة . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى في تفسيره . والأول أصح لقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » والمجر مكة بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الحمد لله رب العالمين ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » . وهذا خبر عن الحكم ، لا عن الابتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى ابن الطيب اختلاف الناس في أول ما نزل من القرآن ، فقيل : المذثر ، وقيل : اقرأ ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقى في دلائل النبوة عن أبي مسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : « إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا » قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عتيق ، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال : انطلق بنا إلى ورقة ، فقال : « ومن أخبرك » . قال : خديجة ، فانطلقا إليه فقصا عليه ؛ فقال : « إذا خلوت وحدى سمعت نداء خفى يا محمد يا محمد فانطلق هاربا في الأرض » فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فأثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى . فلما خلا ناداه : يا محمد ، قل بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب

العالمين؛ حتى بلغ ولا الضالين، قل: لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له؛ فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به عيسى ابن مريم، وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل، وأنت سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركني ذلك لأجاهدك معك. فلما توفى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني" يعنى ورقة. قال البيهقي رضي الله عنه: هذا منقطع. يعنى هذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه «اقْرَأْ بِأَمْرِ رَبِّكَ» و«يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ».

الثالثة - قال ابن عطية: ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم؛ فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته. قال ابن عطية: وليس كما ظن، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم معلما به وبما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها، والله أعلم.

قلت: الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى: «نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بشواها بالمدينة. والله أعلم. وقد قيل: إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاه الثعلبي. وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة، والله الحمد والمنة.

الرابعة - قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، وإذا ثبت ذلك لحكم المصلي إذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت ، ولا يذكر توجيهها ولا تسبيحها ، لحديث عائشة وأنس المتقدمين وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا افتتح الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ؛ وبه قال سفيان وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي . وكان الشافعي يقول بالذي روى عن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : "وجهت وجهي" الحديث ، ذكره مسلم ، وسيأتي بتمامه في آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتي القول في هذه المسألة مستوفى إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ يقول : "اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد" واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتان فاغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذا الباب .

الخامسة - واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هي متعينة للإمام والمنفرد في كل ركعة . قال ابن خويز منداد البصري المالكي : لم يختلف قول مالك أنه من نسيها في صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزئه . واختلف قوله فيمن تركها ناسيا في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدة السهو ؛ وهي رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال ابن خويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البر : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتي بركعة بدلا منها ، كن

أسقط سجدة سهواً ، وهو اختيار ابن القاسم . وقال الحسن البصري وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة في الصلاة أجزأه ولم يكن عليه إعادة ؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهي تامة لقوله عليه السلام : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كل ركعة ، وهو الصحيح على ما يأتي ، ويحتمل لا صلاة لمن يقرأ بها في أكثر عدد الركعات ، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي : إن تركها عامداً في صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه ، على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الذين . وعن محمد بن الحسن أيضاً قال : أسوق الاجتهاد في مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة ؛ نحو : « الحمد لله » . ولا أسوغه في حرف لا يكون كلاماً .

وقال الطبري : يقرأ المصلي بأم القرآن في كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يحزه إلا مثلها من القرآن عدد آياتها وحروفها . قال ابن عبد البر : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يحى بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يحى بها ويعود إليها ، كسائر المفروضات المتعينات في العبادات .

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعاً فالإمام يحمل عنه القراءة ؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعاً أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئاً ، وإن أدركه قائماً فإنه يقرأ ، وهي المسئلة :

السابعة — ولا ينبغي لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه في صلاة السر ؛ فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهي المسئلة :

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها في المشهور من مذهب مالك ، لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالي أنأزع القرآن" وقوله في الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

وقال الشافعي فيما حكى عنه البويطي وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحه الكتاب في كل ركعة ، إماما كان أو مأموما ، جهر إمامه أو أسر . وكان الشافعي بالعراق يقول في المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر فيما يحهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ ويكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا ، جهر إمامه أو أسر ؛ لقوله عليه السلام : " فقراءة الإمام له قراءة " وهذا عام ، ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأتم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعينة في كل ركعة لكل أحد على العموم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحه الكتاب " وقوله : " من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأتم القرآن فهي خداج " ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : " لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد " أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ وبه قال عبد الله بن عون وأيوب السخيتاني وأبو ثور وغيره من أصحاب الشافعي وداود بن علي ، وروى مثله عن الأوزاعي ؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأبي بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاصي وعبادة بن الصامت وأبي سعيد الخدري وعثمان ابن أبي العاصي وخوات بن جبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحه الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي ؛ فهؤلاء الصحابة بهم القدوة ، وفيهم الأسوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال فقال : حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن فضيل ، ح ، وحدثنا سويد بن سعيد

حدثنا علي بن مُسهر جميعا عن أبي سفيان السعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد لله وسورة في فريضة أو غيرها" . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال للذي عليه الصلاة : "وافعل ذلك في صلاتك كلها" وسيأتي . ومن الحجة في ذلك أيضا ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال : أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبي نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عبادة يقرأ بأتم القرآن ؛ فلما انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأتم القرآن وأبو نعيم يجهر ؛ قال : أجل ! صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه ؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه وقال : "هل تقرأون إذا جهرت بالقراءة" فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ، قال : "فلا وأنا أقول مالي ينازعني القرآن فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت إلا بأتم القرآن" . وهذا نص صريح في المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ؛ وهو قول مالك بن أنس وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدارقطني وقال : هذا إسناد حسن ، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيلياء^(١) ، وأن أبا نعيم أول من أذن في بيت المقدس . وقال أبو محمد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخاري في تاريخه ولا ابن أبي حاتم ؛ ولا أخرج له البخاري ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر الدارقطني عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرني أن أقرأ ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال الدارقطني : هذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبد الله

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ، وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسي أن يقرأ بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم استدلل بقوله تعالى : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أما ما استدلل به الأولون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ، وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة عن الزيادة "وإذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطني : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة ، وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ، منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبي عروبة وهمام وأبو عوانة ومعمرو وعدى بن أبي عمارة . قال الدارقطني : فاجماعهم يدل على وهمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعه التيمي ، ولكن ليس هو بالقوي ، تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال : هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : وما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الأمام أحمد بن حنبل وابن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ، فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالي أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أكيمة الليثي ، واسمه فيما قال مالك : عمرو ،

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمار، وقيل عباد، يكتنأ الوليد توفي سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة، لم يرو عنه الزهري إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره، والمعنى في حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجادب وتخالج، اقرءوا في أنفسكم . بينه حديث عبادة وقتيا الفاروق وأبي هريرة الراوي للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : ” مالى أنازع القرآن “ لما أفتى بخلافه ؛ وقول الزهري في حديث ابن أبي عمير : فاتته الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالحمد على ما بيننا ؛ وبالله توفيقنا .

أما قوله صلى الله عليه وسلم : ” من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة “ فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمار وهو متروك ، وأبو حنيفة^(١) وهو ضعيف ؛ كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شذاد عن جابر . أخرجه الدارقطني وقال : رواه سفيان الثوري وشعبة وإسرائيل ابن يونس وشريك وأبو خالد الدالاني وأبو الأحوص وسفيان بن عيينة وجرير بن عبد الحميد وغيرهم ، عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شذاد مرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبد البر : ورواه يحيى ابن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وصوابه موقوف على جابر كما في الموطأ . وفيه من الفقه إبطال الركعة التي لا يقرأ فيها بأم القرآن ؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب إليه ابن القاسم ورواه عن مالك في إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتد المصلي بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

(١) قد ترجمه ابن حجر في التهذيب وابن خلكان في الوفيات ولم يذكر عنه ضعفا في الحديث ولكن ابن سعد في الطبقات قد وصفه بذلك .

الحادية عشرة — قال ابن العربي : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النفي على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ؛ فمن تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : " افعل ذلك في صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة يرّد على الكوفيين قولهم في أن الفاتحة لا تتعين ، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء ؛ وقد عيّنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده في قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي : " اقرأ ما تيسر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسّر مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن — زاد في رواية — فصاعداً " . وقوله عليه السلام : " هي خداج — ثلاثا — غير تمام " أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ، إذا ألفت ولدها لغير تمام ، وأخذجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب في نقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أمر ، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعي يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها ، ولا يجزئه أن ينقص حرفاً منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفاً أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح في المسئلة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد ، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمي عن عمر ؛ ومرة يرويه إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ؛ وقد ذكره مالك في الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه ^(١) بأخرية ، وقال ليس عليه العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج " وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنه . روى يحيى بن يحيى التيسابوري قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شاهده همام من عمر روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك عن الذي نسي القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هكذا في المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدم من أصولهم في ذلك ، وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب ، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال مالك : وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة ، وفي الأخيرين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعي : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه ، وقال : وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد . وقال الثوري : يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبح في الأخيرين إن شاء وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أي بآخره بعد عن الخير .

صلاته ، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : اقرأ في الأولين وسبح في الآخرين ، وبه قال النخعي . قال سفيان : فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئ قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة ، كقول الشافعي المصري ، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال ابن خُوَيْرِ مَنَدَاد المالكي : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة ، وهذا هو الصحيح في المسألة . روى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين ، ويسمعنا الآية أحيانا ، وكان يطول في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : ويقرأ في الركعتين الآخرين بفاتحة الكتاب ، وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك ، ونص في تعيين الفاتحة في كل ركعة ؛ خلافا لمن أبي ذلك ، والحجة في السنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور الى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة ؛ فما أسمعنا النبي صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفي البخاري : وإن زدت فهو خير . وقد أبي كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة ؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخدري وخوات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمرو وابن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين ، ومنهم من حدّ آية ، ومنهم من لم يحدّ ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما يتسر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة وأبي سعيد الخدري وغيرهما . وفي المدونة : وكيع عن الأعمش عن خيشمة قال : حدثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا علق منه شيء، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تحميد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده أو مع إمام فيما أسرفه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلمني ما يجزئني منه؛ قال: «قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله»؛ قال: يا رسول الله، هذا لله، فإلى؟ قال: «قل اللهم ارحمني وعافني واهدني وارزقني».

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله؛ وعليه أبداً أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله.

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانه إلى التكلم بالعربية من الأعجمين وغيرهم ترجم له الدعاء العربي بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية، لأن المقصود إصابة المعنى. قال ابن المنذر: لا يجزئه ذلك؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين. ولا نعلم أحداً وافقه على ما قال.

الموفية العشرين — من أفتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة، فطراً عليه العلم بها في أثناء الصلاة، ويتصور ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعَلقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف الصلاة؛ لأنه أدى ما مضى على حسب ما أمر به؛ فلا وجه لإبطاله. قاله في كتاب ابن سحنون.

الباب الثالث - في التأمين، وفيه ثمان مسائل

الأولى - ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون «ولا الضالين» : آمين، ليميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية - ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا آمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال علماءنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنوب على مقدمات أربع تضمنها هذا الحديث : الأولى : تأمين الإمام ، الثانية : تأمين من خلفه ، الثالثة : تأمين الملائكة ، الرابعة : موافقة التأمين ؛ قيل في الإجابة ، وقيل في الزمن ، وقيل في الصفة من إخلاص الدعاء ، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه" .

الثالثة - روى أبو داود عن أبي مَصْبُح المِقْرَانِي قال : كنا نجلس إلى أبي زهير النخعي وكان من الصحابة ، فيحدث أحسن الحديث ، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين ، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة ؛ قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك ، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فأتينا على رجل قد ألح في المسئلة ، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يسمع منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأي شيء يختم ؟ قال : "بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يا فلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النخعي اسمه يحيى بن نفير روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم" وقال وهب بن منبه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملكا يقول : اللهم اغفر لكل من قال آمين . وفي الخبر "لقني جبريل آمين عند

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالتحتم على الكتاب " وفي حديث آخر : " آمين خاتم رب العالمين " . قال المروى قال أبو بكر : . معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع ^(١) [به عنهم] الآفات والبلايا ؛ فكان تحتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده وإظهار ما فيه . وفي حديث آخر : " آمين درجة فى الجنة " ؛ قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء . وقال قوم : هو اسم من أسماء الله ، روى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يساف ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله ابن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهري . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : " رب افعل " . وقال مقاتل : هو قوة للدعاء ، واستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تحجب رجاءنا .

الخامسة — وفي آمين لفتان : المذ على وزن فاعيل يكاسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر فى المذ :

يَا رَبِّ لَا تَسْلُبْنِي حَبَّهَا أَبَدًا * وَيَرْحُمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَا

وقال آخر :

آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ * حَتَّى أَبْلُغَهَا أَلْفِينَ آمِينَا

وقال آخر فى القصر :

تَبَاعِدْ مِنِّي فَطُحِّلْ إِذَا سَأَلْتُهُ * آمِينَ فزاد الله ما بيننا بُعْدًا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهري . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ، من أم إذا قصد أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِينَ » .

(١) الزيادة من اللسان مادة (أمن) .

آلَيْتَ الْحَرَامَ . حكاه أبو نصر عبد الرحيم . عبد الكريم القشيري . قال الجوهري : وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أَمْنٌ فلان تأمينا .

السادسة — واختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين الى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبري ؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخير . وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك ؛ ووجههم حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال : ” إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤتمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا وإذا قال غير المفضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يحبكم الله “ وذكر الحديث ، أخرجه مسلم . ومثله حديث مُمَيٍّ عن أبي هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدارقطني ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سنة تفرد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذي بعده » . وترجم البخاري « باب جهر الإمام بالتأمين » . وقال عطاء : آمين دعاء ؛ أتمن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للسجد ^(١) للجنة . قال الترمذي : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق . وفي الموطأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غير المفضوب عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد . وأما حديث أبي موسى ومُمَيٍّ فمعناها التعريف بالموضع الذي يقال فيه آمين ؛ وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولها معا ، ولا يتقدموه بقول : آمين

لما ذكرناه ، والله أعلم . ولقوله عليه السلام : " إذا آمن الإمام فآمنوا " وقال ابن نافع في كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمام يقول : « ولا الضالين » . وإذا كان بعيد لا يسمعه فلا يقل . وقال ابن عبدوس : يتحرى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعة — قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما روى في تأويل قوله تعالى : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن ؛ فسيهما الله داعيين .

والجواب : أن إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر ، وإظهار حق يتدب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يستجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين .

الثامنة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذي الحكيم في (نواذر الأصول) : حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدثنا أبي قال حدثنا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدثنا أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتي ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وآمن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عند ما ذكر دعاء موسى في تنزيله : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : رَبَّنَا ، فكان من هارون التأمين ، فسماه داعيا في تنزيله ، إذ صير ذلك منه دعوة . وقد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين " . قال علماؤنا^(١) رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد لله وثناء عليه ثم خضوع له واستكانة ، ثم دعاء لنا بالهداية الى الصراط المستقيم ، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع - فيما تضمنته الفتحة من المعاني والقراءات

والإعراب وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة

الأولى - قوله سبحانه وتعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ . روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لي " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " . وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ " . وفي (نواذر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من امتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك " . قال أبو عبد الله : «معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية ، هي من الباقيات الصالحات ؛ قال [الله تعالى : «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»^(٢) خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» . وقيل في بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ . فصير الكلمة إعطاءً من العبد ، والدنيا أخذاً من الله ، فهذا في

(١) هذا حل منهم للحديث على الفتحة مع آمين في آخرها .

(٢) زيادة عن نواذر الأصول يقتضيها السياق .

التدبير^(١). كذلك يجرى في الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله ؛ وكلاهما من الله في الأصل ، الدنيا منه والكلمة منه ؛ أعطاه الدنيا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : ”أن عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا الى السماء وقالا ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله عز وجل وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدي قالوا يا رب إنه قد قال يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتبها كما قال عبدي حتى يلقياني فأجزيه بها “ .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق ؛ والمعضلات (بتشديد الضاد) ، الشدائد . وعضلت المرأة والشاة ، إذا نُسب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون : أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغير باء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”الطهور شرط الإيمان والحمد لله يملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأن أو تملأ ما بين السماء والأرض“ وذكر الحديث .

الثانية — اختلف العلماء أيما أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ؛ ففي قوله توحيد وحيد ؛ وفي قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ”أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله“ . واختار هذا القول ابن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : ”أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له“ .

(١) في بعض نسخ الأصل : «في التدكير» .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدل على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله: «رب العالمين». والعالمون جملة المخلوقات، ومن جعلها الإيمان، لا كما قال القَدْرِيَّةُ: إنه خَلَقَ لهم، على ما يأتي بيانه.

الرابعة — الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلاء؛ وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر:

وأبلغ محمود الثناء خصصته * بأفضل أقوالى وأفضل أحمدي

فالحمد نقيض الذم؛ تقول: حمدت الرجل أحده حمدا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، والمحمد: الذي كثرت خصاله المحمودة. قال الشاعر:

* إلى المساجد القُرْم الجَوَادِ مُحَمَّدٍ *

وبذلك سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الشاعر:

فشق له من اسمه ليحمله * فذو العرش محمود وهذا محمد

والمحمدة: خلاف المذمة؛ وأحمد الرجل: صار أمره إلى الحمد؛ وأحمدته: وجدته محمودا؛ تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه؛ ورجل مُحَمَّدة — مثل همزة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها. وحَمْدَةُ النار — بالتحريك — : صوت التها بها.

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضى. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر لله إذا كان منه الامتتان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. وأستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرا. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعم من الحمد، لأنه باللسان وبالجوارح

والقلب؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح؛ وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . وروى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام : « فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » وقال إبراهيم عليه السلام : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » . وقال في قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وقال لنبية صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » . وقال أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ » . « وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . فهي كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على المدح بصفات من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان^(١) . وعلى هذا الحد قال علماءنا : الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر؛ والجزء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفًا؛ فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا؛ يقال : بلوته لحمدته، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَجْمُودًا » وقال عليه السلام : « الحمد إليكم غسل الإحليل » أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق في قوله : « الحمد لله » من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوجدانية، والميم من الملك، والدال من الديمومية؛ فمن عرفه بالوجدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئًا تعرف من أعطاك . والثاني أن ترضى بما أعطاك . والثالث مادامت قوته في جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد .

(١) عقب ذلك ابن عطية في تفسيره بقوله : فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمنثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف .

السادسة - أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال : «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» وقال عليه السلام : «احتثوا في وجوه المداحين التراب» رواه المقداد . وسيأتى القول فيه في النساء ان شاء الله تعالى .

فعنى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدى أحد من العالمين، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة، وحمدى الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقيح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار . وقيل : لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه فى الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده هو محل المعجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر المعجز بقوله : «لا أحصى ثناء عليك» . وأنشدوا :

إذا نحن أثينا عليك بصالح * فانت كما تثنى وفوق الذى تثنى

وقيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنا لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة .

السابعة - وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله» . وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج الحمد لله، بنصب الدال وهذا على إضمار فعل . ويقال : الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة فى هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك : حمدت الله حمدا، إلا أن الذى يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذى ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيذا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث : «من شغل بذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» . وقيل : إن مدحه عز وجل لنفسه وثناء عليها يعلم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا : قولوا الحمد لله . قال الطبري :

الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله ؛ وعلى هذا يحىء قولوا إياك . وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كما قال الشاعر :

وأعلم أنني سأكون رَمْسًا * إذا سار النواجج ^(١) لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى المحفور لهم وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، وهذا كثير . وروى عن ابن أبي عبلة الحمد لله ، بضم الدال واللام على اتباع الثانى الأول وليتجانس اللفظ ، وطلب التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم ، نحو أجوءك ، وهو منحدر من الجبل ، بضم الدال والجيم . قال :

* أضرب الساقين أُمك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفى قراءة لأهل مكة « مُرْدَفِين » بضم الراء اتباعا للميم ، وعلى ذلك « مُقْتَلِينَ » بضم القاف . وقالوا : لإمك ، فكسروا الهمزة اتباعا للام ؛ وأنشد النعمان بن بشير :

ويل أمها فى هواء الجوّ طالبة * ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها ؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن على : الحمد لله ؛ بكسر الدال على اتباع الأول الثانى .

الثامنة - قوله تعالى : رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ أى مالِكهم ، وكل من ملك شيئا فهو ربه ؛ فالرب : المالك . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة ؛ وقد قالوه فى الجاهلية لللك ، قال الحارث بن حِزّة :

وهو الربّ والشهيد على يو * م الحيارين والبلاء ^(٢) بلاء

(١) النواجج من الإبل : السراع . (٢) الحياران : موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء .

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» وفي الحديث : «أن تلد الأمة ربتها» أي سيدتها ؛ وقد ببناء في كتاب (التذكرة) . والرب : المصلح والمدبر والجار والقائم . قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربه يربه فهو رب له ورب ؛ ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : «هل لك من نعمة تُربها عليه» أي تقوم بها وتصلحها . والرب : المعبود ؛ ومنه قول الشاعر :

أرب يول الثعلبان برأسه * لقد ذل من بالث عليه الثعالب

ويقال على التكثير : رباه وربيه وربته ؛ حكاه النحاس . وفي الصحاح : ورب فلان ولده يربه ربا وربيه وتربيته بمعنى ، أي رباه . والمربوب : المربي .

التاسعة - قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو أسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الداعين به ؛ وتأمل ذلك في القرآن ، كما في آخر آل عمران وسورة إبراهيم وغيرهما ، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب ، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال .

واختلف في اشتقاقه ، ف قيل : إنه مشتق من التربية ؛ ف الله سبحانه وتعالى مدبر خلقه ومربيهم ، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَّانِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ» . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر خلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة - متى أدخلت الألف واللام على رب اختص الله تعالى به لأنها للمهد ؛ وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب الدار ؛ ف الله سبحانه رب الأرباب ؛ يملك المالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق ، وكل مملوك فمُملَك بعد أن لم يكن ، ومنترع ذلك من يده ، وإنما

يملك شيئا دون شيء ، وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني ، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشر — قوله تعالى : ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالمون جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحدا له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم ؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى : « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ » أى من الناس . وقال العجاج :

* نَحْنُ دُنْفُ هَامَةٍ هَذَا الْعَالَمِ *

وقال جرير بن الخطفي :

تنصفه البرية وهو سام * ويُضحى العالمون له عيالا

وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى « لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفراء وأبو عبيدة : العالم عبارة عن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجن والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة .

قال الأعشى :

* ما إن سمعت بمن لهم في العالمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء : هم الروحانيون ، وهو معنى قول ابن عباس أيضا : كل ذى روح دب على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن لله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سعيد الخدري : إن لله أربعين ألف عالم ؛ الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم ، أربعون ألف عالم في البر ، وأربعون ألف عالم في البحر . وروى الربيع ابن أنس عن أبي العالية قال : الجن عالم ، والإنس عالم ؛ وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمائة عالم ، خلقهم لعبادته .

قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، دليله قوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة ، لأنه يدل على موجوده . كذا قال الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العلم والعلامة والمعلم : ما دل على الشيء ؛ فالعالم دال على أن له خالقاً ومدبراً ، وهذا واضح . وقد ذكر أن رجلاً قال بين يدي الجنيّد : الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : رب العالمين ؛ فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخو ، فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب في رب ؛ فالنصب على المدح ، والرفع على القطع ؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٠﴾ وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين ، بأنه الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم ، لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع ؛ كما قال : « نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . وقال : « غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بيمينه أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد " . وقد تقدّم ما في هذين الاسمين من المعاني ، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٠١﴾ قرأ محمد بن السّمِيع بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مَالِكٌ وَمَلِكٌ وَمَلَكٌ — مخففة من مَلِكٌ — ومَلِكٌ ؛ قال الشاعر^(١) :
وَأَيَّامٌ لَنَا غُرَطُوَال * عَصِينَا الْمَلِكُ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

وقال آخر^(١) :

فاقنع بما قسم المليك فإنما * قسم الخلائق بيننا علامها
الخلائق : الطباع التي جُبل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة في ملك ؛
فيقرأ مَلِكِي على لغة من يشبع الحركات ، وهي لغة للعرب ذكرها المهدي وغيره .

الخامسة عشرة - اختلف العلماء أيما أبلغ : مَلِك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن
النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، ذكرهما الترمذي ؛ ف قيل : مَلِك أعم وأبلغ من مالك ؛
إذ كل مَلِك مالك ، وليس كل مالك مَلِكاً ، ولأن أمر المَلِك نافذ على المالك في ملكه ، حتى
لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون
مالكا للناس وغيرهم ؛ فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم ، إذ إليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده
زيادة التملك .

وقال أبو علي : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من أختار القراءة بملك أن الله سبحانه
قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : « رب العالمين » فلا فائدة في قراءة من قرأ مالك
لأنها تكرار . قال أبو علي : ولا حجة في هذا ، لأن في التزييل أشياء على هذه الصورة ، تقدم
العام ثم ذكر الخاص كقوله : « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ » فالخالق بهم . وذكر المصور
لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعالى : « وَإِلَآئِهَا هُمْ يُوقِنُونَ »
بعد قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . والغيب بهم الآخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لعظمها ،
والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : « الرحمن الرحيم »
فذكر الرحمن الذي هو عام وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به في قوله : « وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك ، وملك أبلغ
في مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا
كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضي أبو بكر بن العربي وذكر ثلاثة

(١) هو ليدي بن ربيعة العامري .

أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوكة . الثاني : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك الملوكة ؛ ولا تقول : ملك الملوكة . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك ، لأن المراد من مالك الدلالة على الملك بكسر الميم وهو لا يتضمن الملك بضم الميم ، وملك يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة ؛ ويتضمن أيضا الكمال ، ولذلك استحق الملك على من دونه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسَمِ » ، ولهذا قال عليه السلام : « الإمامة في قریش » وقریش أفضل قبائل العرب ، والعرب أفضل من العجم وأشرف ؛ ويتضمن الاقتدار والاختيار وذلك أمر ضروري في الملك إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره ، قهره عدوه وغلبه غيره وازدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : « مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا » . إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعاني الشريفة التي لا توجد في المالك .

قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف ؛ فلقارنه عشر حسانات زيادة عن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك ، وفيه من المعنى ما ليس في مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض » وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنْ أَخْنَعَ اسْمُ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلًا تَسْمَى مَلِكُ الْأَمْلَاقِ — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عز وجل » قال سفيان : « مثل : شاهان شاه . وقال أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيباني عن أخنع ؛ فقال : أَوْضَعَ » . وعنه قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ” أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه “ . قال ابن الحصار : وكذلك ملك يوم الدين ، ومالك الملك ، لا ينبغي أن يختلف في أن هذا محترم على جميع المخلوقين كتحرير ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمالك وملك وهي :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من أنصف بمفهومهما ؛ قال الله العظيم : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » . وقال صلى الله عليه وسلم : ” ناس من أمتي عُرِضُوا عَلَى غُرَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ شِجَّ ^(١) هَذَا الْبَحْرِ مَلُوكًا عَلَى الْإِسْرَةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْإِسْرَةِ “ .
الثامنة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين » ويوم الدين لم يوجد بعد ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجد ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ، كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاج بيت الله في العام المقبل ، تأويله سيحج في العام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد ينسب إليه وهو لم يفعله بعد ، وإنما أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عز وجل : « مالك يوم الدين » على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدين أو في يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المالك راجعا إلى القدرة ؛ أى أنه قادر في يوم الدين ، أو على يوم الدين وأحداثه ، لأن المالك للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليه ؛ والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أمس بالعربية وأنفذ في طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجي .

ووجه ثالث : فيقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك ، مثل فرعون ونمرود وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد

(١) شج البحر : وسطه ومعظمه .

في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أى في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجاز غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إِنَّ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ مَلِكٌ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ ، وَإِنْ وَصَفَ بِأَنَّهُ مَالِكٌ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ فَعْلِهِ .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر الى وقت غروب الشمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة الى وقت استقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » . وجمع يوم أيام ؛ وأصله أيّام فأدغم ؛ وربما عبروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيّوم ، كما يقال : ليلة ليلاء . قال الزاجر^(١) :

* نِعَمَ أَخُو الْمِجَاءِ فِي الْيَوْمِ الْيَمَى *

^(٢) وهو مقلوب منه ، آخر الواو وقدم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفاً ؛ كما قالوا : أدل في جمع دَلَو .

الحادية والعشرون — الدين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ » أى حسابهم . وقال : « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وقال : « أَتُنَاسِلُ الَّذِينَ هُمْ » أى مجزون محاسبون . وقال لبيد :

حَصَادُكَ يَوْمَا مَا زَرَعْتَ وَإِنَّمَا * يُدَانُ الْفَتَى يَوْمَا كَمَا هُوَ دَائِنُ

آخر :

إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمِينَاهُمْ * وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرَضُونَا

(٢) وهو أى اليمى .

(١) هو أبو الأنزرد الحناني كما في اللسان مادة « يوم » .

آخر :

وَأَعْلَمُ يَقِينًا ^(١) أَنَّ مَلِكَكَ زَائِلٌ * وَأَعْلَمُ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْتُهُ بفعله دِينًا بفتح الدال ودِينًا بكسرها جزيته ؛ ومنه الدِيَانُ في صفة الرب تعالى أى المجازى ؛ وفي الحديث : "الكَيْسُ من دان نفسه" أى حاسب ؛ وقيل : القضاء . روى عن ابن عباس أيضا ؛ ومنه قول طرفة :

لَعَمْرُكَ مَا كَانَتْ حَمُولَةٌ مَعْبِيدٍ ^(٢) * عَلَى جُدِّهَا حَرْبًا لِدِينِكَ مِنْ مُضَرٍّ ^(٣)

ومعاني هذه الثلاثة متقاربة . والدِّينُ أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وَأَيَّامٌ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ * عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانية والعشرون — قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع ، ودان إذا عصى ، ودان إذا عز ، ودان إذا ذل ، ودان إذا قهر ؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن ، كما قال :

* كدِينِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقال المَثْقَبُ [يذكر ناقتة] :

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئِي ^(٤) * أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي

والدِّينُ : سيرة الملك . قال زهير :

لَتَنْ حَلَلَتْ يَجُوفِي بَنَى أَسَدٍ * فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ

(١) في اللسان مادة (دين) : « قال خو يلد بن نوفل الكلابي للحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد اغتصبه ابنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * الخ

(٢) الحمولة : الإبل التي يحمل عليها . (٣) الجدد (بالضم) البثر الجيدة الموضع من الكلا . والخطاب لعمر

ابن هند وقد أغار على أبل مبدأ أخى طرفة .

(٤) درأت وضين البعير ، إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشد به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض

يشد به الرجل على البعير .

أراد في موضع طاعة عمرو . والدين : الداء ، عن الهيانى وأنشد :

* يَدِينُ قَلْبِكَ مِنْ سَلَمَى وَقَدْ دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** . رجع من الغيبة الى الخطاب على التلويح ؛ لأن من أول السورة الى هاهنا خبرا عن الله تعالى وشاء عليه ، كقوله : « **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** » . ثم قال : « **إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً** » . وعكسه : « **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِكُمْ** » . على ما يأتي . و (**نعبد**) معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل ، وطريق مُعْبَد إذا كان مذكلا للسالكين ؛ قاله الهروي . ونُطِقُ المكلف به لإقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك . (**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) أى نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السلمي في حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول : من أقرب إياك نعبد وإياك نستعين ، فقد برئ من الجبر والقدر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدم اهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكرون أعرابيا سب آخر فأعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعنى ؛ فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدم الأهم ؛ وأيضا لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال العجاج :

إِيَّاكَ أَدْعُو فَتَقْبَلُ مَلَقِي * وَأَغْفِرُ خَطَايَايَ وَكَثْرَ وَرَقِي

ويروى وثمّر . وأما قول الشاعر :

* إِلَيْكَ حَتَّى بَلَغْتَ إِيَّاكَ *

فشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الراء من الدراهم ، وافتحها المال . وكرر الاسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

(١) هو حيد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القراء والعلماء على شدّ الياء من إياك في الموضعين ؛
 وقرأ عمرو بن فائد : إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء ، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها
 وكون الكسرة قبلها ، وهذه قراءة مرغوب عنها ، فإن المعنى يصير : شمسك نعبد أو ضوءك ؛
 وإيالة الشمس بكسر الهمزة : ضوءها وقد تفتح . وقال :

سقته إيالة الشمس إلا لثاته * أسف فلم تكدم عليه بإثم

فان أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإيالة للشمس كالهالة للقمر ، وهي الدارة حولها .
 وقرأ الفضل الرقاشي : أياك بفتح الهمزة وهي لغة مشهورة ، وقرأ أبو السوار الغنوي : هياك
 في الموضعين وهي لغة ؛ قال :

فهيّاك والأمر الذي إن توسعت * موارد ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٦٦﴾ عطف جملة على جملة ؛ وقرأ يحيى بن
 وثّاب والأعمش : نستعين بكسر النون ، وهي لغة تميم وأسد وقيس وربيعة ، ليدل على أنه من
 استعان فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل . وأصل نستعين نستعون ، قلبت حركة الواو
 الى العين فصارت ياء ، والمصدر استعانة ، والأصل استعوان ؛ قلبت حركة الواو الى العين
 فانقلبت ألفا ولا يلتقي ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقبل الأولى لأن الثانية
 للعين ، ولزمت الهاء عوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٧﴾ إهدنا دعاء
 ورغبة من المربوب الى الرب ؛ والمعنى دلّنا على الصراط المستقيم وأرشدنا اليه ، وأرنا طريق هدايتك
 الموصلة الى أنسك وقربك . قال بعض العلماء : لجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملة
 موضوعا في هذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا

(١) قاله طرفة بن العبد . والهاء في « سقته » و « لثاته » يعود على الثمر ، وكذا المضمر الذي في « أسف » .
 ومعنى سقته : حسنته وبيضته وأشر به حسنا . وأسف : ذرطه . ولم تكدم عليه ، أى لم تمضض عظامه في ثمرها .
 (عن شرح المطلقات) .

الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به [الداعي] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فانت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به ؛ وفي الحديث : " ليس شيء أكرم على الله من الدعاء " . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السنن في أداء فرائضك ؛ وقيل الأصل فيه الإمامة ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى ملنا ؛ وخرج عليه السلام في مرضه يهادى بين اثنين ، أى يتمايل ؛ ومنه الهدية لأنها تمال من ملك الى ملك . ومنه الهدى للحيوان الذى يساق الى الحرم ؛ فالمعنى مل بقلوبنا الى الحق . وقال الفضيل بن عياض : الصراط المستقيم طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى ؛ قال محمد بن الحنفية في قوله عز وجل : « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده ؛ قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطفيل :

شعنا أرضهم بالخليل حتى * تركاهم أذل من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط * إذا عوج الموارد مستقيم

وقال آخر :

* فصدد عن نهج الصراط الواضح *

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدا ، وقرئ : السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد ؛ وقرئ بزى خالصة والسين الأصل ؛ وحكى سلمة عن الفراء قال : الزراط بإخلاص الزاى لغة لعدرة وكلب وبني الثقين ، قال : وهؤلاء يقولون [فأصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأزدد والأسدد ، ولسق به ولصق به . والصراط نصب على المفعول الثانى لأن الفعل من الهداية يتعدى الى المفعول الثانى بحرف جر ؛ قال الله تعالى : « فَأَهْدُوهُمْ »

إِلَى صِرَاطٍ الْجَمِيمِ . وبغير حرف كما في هذه الآية . المستقيم صفة للصراط ، وهو الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » وأصله مستقوم ، تقلت الحركة الى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون - صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ^(١) . صراط بدل من الأول بدل الشيء من الشيء ؛ كقولك : جاءني زيد أبوك . ومعناه : أديم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يهتدى الى الطريق ثم يقطع به ، وقيل : هو صراط آخر ، ومعناه العلم بالله جل وعز والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين في الرفع والنصب والجر ؛ وهذيل تقول : اللذون في الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذون ، ومنهم من يقول : الذي^(٢) وسيأتي .

وفي عليهم عشر لغات : قرئ بعامتها عليهم بضم الهاء وإسكان الميم ، وعليهم بكسر الهاء وإسكان الميم ، وعليهم بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة ، وعليهم بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة ، وعليهم بضم الهاء والميم ككتبيهما وإدخال واو بعد الميم ، وعليهم بضم الهاء والميم من غير زيادة واو ؛ وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القراء : عليهم بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم ، حكاها الحسن البصري عن العرب ؛ وعليهم بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء ، وعليهم بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو ، وعليهم بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم ، وكلها صواب قاله ابن الأنباري .

الموفية الثلاثين - قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير رضي الله عنهما « صراط من أنعمت عليهم » . واختلف الناس في المنعم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وانتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ

(١) أى قوله تعالى : اهدنا وما بعده . (٢) أى أفرادا أو جمعا في الرفع والنصب والجر كما يؤخذ من

لسان العرب . (٣) في بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصري » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .

أُولَئِكَ رَفِيقًا» فالآية تقضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد؛ وجميع ما قيل الى هذا يرجع، فلا معنى لتعدد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — في هذه الآية ردّ على القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه الى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سأله الهداية الى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر اليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سأله الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم اليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». فكما سأله أن يهديهم سأله ألا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون: «رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» الآية .

الثانية والثلاثون — غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) اختلف في المغضوب عليهم والضالين من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عدى بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، والترمذي في جامعه . وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه في اليهود: «وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» وقال: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» وقال في النصارى: «قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ». وقيل المغضوب عليهم المشركون . ولا الضالين المنافقون . وقيل المغضوب عليهم هو من أسقط فرض هذه السورة في الصلاة؛ والضالين عن بركة قراءتها، حكاه السلمي في حقائقه والماوردي في تفسيره . — وليس بشيء — قال الماوردي: وهذا وجه مردود؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف، لم يجوز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل: المغضوب عليهم باتباع البدع؛ والضالين عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . وعليهم في موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب في اللغة الشدة ؛ ورجل غضوب أى شديد الخلق . والغضوب : الحية الحبيثة لشدةها . والغضبة : الدرة من جلد البعير يطوى بعضها على بعض ؛ سميت بذلك لشدةها . ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — (وَلَا الضَّالِّينَ) الضلال في كلام العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، ومنه : ضل اللبن في الماء أى غاب . ومنه : «أَعِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ؛ قال :

ألم تسأل فتخبرك الديار * عن الحى المضلل أين ساروا

والضلالة : حجر أملس يردده الماء في الوادى ؛ وكذلك الغضبة : صخرة في الجبل مخالفة لونه ، قال :

* وغضبة في هضبة مأمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأبى بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما في الرأى النصب والخفض في الحرفين ؛ فالخفض على البدل من الذين أو من الهاء والميم في عليهم ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف ، إلا أن الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إني لأمر بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن غير تعرفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول : الحى غير الميت ، والساکن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأول للفارسي ، والثاني للزمخشري . والنصب في الرأى على وجهين : على الحال من الذين ، أو من الهاء والميم في عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى وحكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — « لا » في قوله « ولا الضالين » اختلف فيها، فقيل هي زائدة قاله الطبري . ومنه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » وقيل : هي تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكي والمهدوي . وقال الكوفيون : « لا » بمعنى غير وهي قراءة عمر وأبي وقد تقدم .

السادسة والثلاثون — الأصل في الضالين : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام في اللام فاجتمع سا كان مدة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السخيتاني : ولا الضالين بهمزة غير ممدودة كأنه قرأ من التقاء الساكنين وهي لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبة وشأبة ؛ قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كثير :
 * إذا ما العوالى بالعبيط احمازت *^(١)

نجز تفسير سورة الحمد؛ والله الحمد والمنة .

(١) عوالى الرماح : أستها . واحداً طالبة . العبيط : الدم الطرى . أحمر الشيء واحمازت بمعنى .

تفسير سورة البقرة

”بحول الله وكرمه ، لا رب سواه“

وأول مبدوء به الكلام فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

سورة البقرة مدنية، نزلت فى مدد شتى ؛ وقيل : هى أول سورة نزلت بالمدينة، لا قوله تعالى : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ؛ ويقال لها : فسطاط القرآن . قاله خالد ابن معدان ؛ وذلك لعظمها وبهاثها، وكثرة أحكامها ومواظها ؛ وتعلمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحوى عليه فى اثنتى عشرة سنة، وأبنته عبد الله فى ثمانى سنين كما تقدم

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر وألف نهى وألف حكم وألف خبر . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له : ” اذهب فانت أميرهم “ أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة “^(١) قال معاوية :

بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة “ . وزوى الدارمى عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ؛ وإن لكل شىء لبابا وإن لباب القرآن المفصل ؛ قال أبو محمد الدارمى : الباب : الخالص . وفى صحيح البستى

(١) معارية هذا، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" . قال أبو حاتم البستي : قوله صلى الله عليه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ؛ أربعة من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أولها : «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ» . وعن الشعبي عنه : لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقرآن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قد حفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سبيع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان ليبد بن ربيعة [بن عامر] بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ؛ أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره وأستشده ؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله للبقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قوله ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده بمسئاة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن ليبد لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله : الحمد لله إذ لم يأتني أجلى * حتى اكتسبت من الإسلام سربالا . قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن نفاثة السلولي ، وهو أعمى عندي ؛ وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرأة الكريم كنفه * والمرء يصلحه القرين الصالح

وسأني ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة ، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادة بين

لفضل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

”رَبِّ سِرِّ وَأَمْنِ“

قوله تعالى : **الْم** ۝ **ذَٰلِكَ** **الْكِتَابُ** **لَا رَيْبَ فِيهِ** **هُدًى** **لِّلْمُتَّقِينَ** ۝

اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور ؛ فقال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ، والله في كل كتاب من كتبه سر ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، وإمكن توهم بها ونقرأ كما جاءت ، وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .
وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمرو وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور ، ولا ندري ما أراد الله جل وعز بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأثباري : حدثنا الحسن بن الحَبَّاب حدثنا أبو بكر بن أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مغول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خثيم ^(١) قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به لنفسه فلم يبنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتظهرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم ، اختبارا من الله عز وجل وامتحانا ؛ فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومن كفر وشك أثيم وبعُد . حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حريث بن ظهير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ؛ ثم قرأ :
« **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** » .

(١) قال صاحب تهذيب التهذيب : « في القريب الربيع بن خثيم ، بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ولكن في الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تخانية ساكنة . »

قلت : هذا القول في التشابه وحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في آل عمران إن شاء الله تعالى . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيها ، ونلتمس الفوائد التي تحتها ، والمعاني التي نتخرج عليها ، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن ابن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُبُ والفراء وغيرهما : هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم ، ليكون عجزم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون عند سماع القرآن ، فلما سمعوا : « آلم » و « المص » استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبتته في أسماعهم وأذانهم وقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها ، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله : « آلم » قال : أنا الله أعلم ، « آلر » أنا الله أرى ، « المص » أنا الله أفصل . فالألف تؤدى عن معنى أنا ، واللام تؤدى عن اسم الله ، والميم تؤدى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدى عن معنى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعها بدل الكلمات التي الحروف منها ؛ كقوله :

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فآ * ولا أريد الشر إلا أن تآ

أراد : وإن شراً فشر . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال آخر :

نادوهم ألا الجأوا إلّا نآ * قالوا جميعا كلهم إلّا فآ

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فاركبوا . وفي الحديث : " من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة " قال شقيق : هو أن يقول في اقتل : أُق ؛ كما قال عليه السلام " كفى بالسيف شا " معناه : شافيا .

وقال زيد بن أسلم : هي أسماء للسور . وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها ؛ وهي من أسمائه عن ابن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل : إن وقد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : « لا ريب فيه » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ لكان الكلام سديدا ، وتكون لا ، جواب القسم . فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة في القسم من الله تعالى ، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين : مصدق ، ومكذب ؛ فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم ؟ . قيل له : القرآن نزل بلغة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجّة فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : « الم » أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله : « الم » قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علي الترمذي أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبيّ أو وليّ ، ثم بين ذلك في جميع السورة ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال ؛ فالله أعلم . والوقف على هذه الحروف على السكون لتقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفها فإنك تعربها ؛ واختلف : هل لها محل من الإعراب ؟ فقليل : لا لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا أفعالا مضارعة ؛ وإنما هي بمنزلة حروف التهجي فهي محكية ؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه .

ومن قال : إنها أسماء السور فوضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر، أى هذه « الم » كما تقول : هذه سورة البقرة ، أو تكون رفعا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى : « الم » فى موضع نصب ؛ كما تقول : اقرأ « الم » أو عليك « الم » وقيل : فى موضع خفض بالقسم ، لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب ، وذلك قد تستعمل فى الإشارة الى حاضر ، وإن كان موضوعا للإشارة الى غائب ، كما قال تعالى فى الإخبار عن نفسه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ؛ ومنه قول خُفَّاء بن نُذبة :
أقول له والزمحْ يَاطِرُ مَتْنَهْ * تأمل خُفَّاءا إننى أنا ذلِكَ

أى أنا هذا ، فذلك إشارة إلى القرآن ، موضوع موضع هذا ، تلخيصه الم هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : « وَذَٰلِكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » « تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » أى هذه ؛ لكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت ؛ فقليل تلك . وفى البخارى وقال معمر : ذلك الكتاب ، هذا القرآن : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بيان ودلالة كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ يَنْتُكُمْ » هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هذا بمعنى ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أمّ حَرام : « يركبون شَجَّ هذا البحر » أى ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل هو على بابه إشارة الى غائب .

واختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة ؛ فقليل : ذلك الكتاب ، أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلاق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه ، أى لا مبدل له . وقيل : ذلك الكتاب ، أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل أن رحمتى سبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتى تغلب غضبى » فى رواية : « سبقت » . وقيل :

إن الله تعالى قد كان وعد نبيه عليه السلام أن ينزل عليه كتاباً لا يحويه الماء؛ فأشار إلى ذلك الوعد كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان» الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » لم ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستشرقاً لإنجاز هذا الوعد من ربه عز وجل ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « أَلَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هذا القرآن الذي أنزلته عليك بالمدينة ، ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أوحيه إليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى ما في التوراة والإنجيل . و « أَلَمْ » اسم للقرآن ؛ والتقدير هذا القرآن ذلك الكتاب المفسر في التوراة والإنجيل ؛ يعني أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما ؛ والمعنى : أَلَمْ ذَانِكَ الْكِتَابَانِ أَوْ مِثْلَ ذَيْنِكَ الْكِتَابَيْنِ ؛ أى هذا القرآن جامع لما في ذينك الكتابين فعبّر بذلك عن الاثنين بشاهد من القرآن ؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » أى عوان بين تينك : الفارض واليكر ؛ وسيأتى . وقيل : إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائي : ذلك إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعد . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على عهد صلى الله عليه وسلم كتاباً ، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « أَلَمْ » الحروف التى تحدثكم بالنظم منها .

والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كَتَبْتِى لاجتماعها ، وتكثبت الخيل صارت كتائب . وكثبت البغلة إذا جمعت بين شقري رحمتها بحلقة أو سير ؛ قال : لا تَأْمَنَنَّ فَرَارِيًّا حَلَّتْ بِهِ * عَلَى قُلُوصِكَ وَكَتَبْتُهَا بِأَسْيَارِ

والكتابة (بضم الكاف) : الخُرْزَةُ، والجمع كُتَبٌ ؛ والكُتُبُ : الخُرْزُ . قال ذو الرمة :
وَفَرَاءَ غَرْفِيَةِ أَتَى خَوَارِزَهَا * مُشَلَّشٌ ضِيعَتُهُ بَيْنَهَا الْكُتُبُ^(١)

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ؛ وسمى كتابا وإن كان مكتوبا
كما قال الشاعر :

تُؤَمِّلُ رَجْعَةً مَنَى فِيهَا * كِتَابٌ مِثْلُ مَا لَصِقَ الْغَرَاءُ

والكتاب : الفَرَضُ والحُكْمُ والقَدَرُ؛ قال الجعدي :

يَا بَنَةَ عَمِّي كِتَابَ اللَّهِ أَخْرَجَنِي * عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا

قوله تعالى : (لَا رَيْبَ) نفى عام ؛ ولذلك نصب الريب به . وفي الريب ثلاثة معان :

أحدها — الشك ؛ قال عبد الله بن الزبيري :

لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيَّةُ رَيْبٌ * إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الْجَهْلُولُ

وثانيها — التهمة ؛ قال جميل :

بُيِّنَةٌ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي * فَقُلْتُ كَلَّانَا يَا بَيْنَ مَرِيْبٍ

وثالثها — الحاجة ؛ قال^(٢) :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ * وَخَيْرَ ثَمٍّ أَجَمَمْنَا السِّيفُ

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب ؛ والمعنى أنه في ذاته حق وأنه منزل من عند الله ،

وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا محدث ، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه

النهى أى لا ترتابوا ، وتم الكلام ؛ كأنه قال ذلك الكتاب حقا . وتقول : رايت هذا الأمر إذا

أدخل عليك شكاً وخوفاً . وأراب : صار ذا ريبة فهو مُرِيْبٌ . ورايت أمره . وريْبُ

الدهر : صروفه .

قوله تعالى : (فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فيه ست مسائل :

(١) قوله : وفراء ، أى واسعة . وغرفية : مذبوغة بالغرف ، وهو نبت تدفع به الجلود . والثأى والثأى

(بكون الهزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلل : الذى يكاد يتصل قفاره وسيلانه لتناجه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصاري ؛ كما في اللسان مادة (ريب) .

الأولى - قوله تعالى : (فِيهِ) الهاء في فيه في موضع خفض بـني ، وفيه خمسة أوجه ؛ أجودها : فِيهِ هُدًى ، ويليه فِيهِ هُدًى بضم الهاء بغير واو وهي قراءة الزهري وسلام أبي المنذر ، ويليه فِيهِ هُدًى بإثبات الياء وهي قراءة ابن كثير ، ويجوز فِيهِ هُدًى بالواو ، ويجوز فيه هدى مدغماً ، وارتفع هدى على الابتداء والخبر فيه . والهُدًى في كلام العرب معناه الرشد والبيان ، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانية - الهُدًى هُديان : هُدًى دلالة ، وهو الذى تقدر عليه الرسل واتباعهم ، قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ؛ وتفرد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » فالهدى على هذا يحى بمعنى خلق الإيمان فى القلب ؛ ومنه قوله تعالى : « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ » وقوله : « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . والهُدًى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرف . قال أبو المعالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المقضية اليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَإِنْ يَضِلُّ أَعْمَالُهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ » ومنه قوله تعالى « فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ » معناه فاسلكوهم إليها .

الثالثة - الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض بنى أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هُدًى حسنة . وقال الفياني : هو مذكر ، ولم يرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك ، ويتعدى بحرف وبغير حرف وقد مضى فى الفاتحة ، تقول : هَدَيْتُهُ الطريق والى الطريق ، والدَّارَ والى الدار أى عرّفته ، الأولى لغة أهل الجواز والثانية حكاها الأخفش . وفى التنزيل : « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » و « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا » . وقيل : إن الهدى اسم من أسماء النهار ، لأن الناس يهتدون فيه لمعاشهم وجميع مآربهم ؛ ومنه قول ابن مقبل :
[حتى استبنت الهدى واليد هاجمة • يخشع فى الآل غُلْفًا أو يُصَلِّيًا]

(١) أى بعد الهاء من « فيه » . (٢) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول ؛ والزائدة من اللسان مادة (هدى) . والبحر المحيوط فى هذا الموضع .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خص الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم ، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروى عن أبي رَوْحٍ أنه قال : هدى للتقين أى كرامة لهم ، يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم . وأصل للتقين : للوثقين بياءين مخفقتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء فى التاء فصارت للتقين .

الخامسة - التقوى يقال أصلها فى اللغة قلة الكلام ؛ حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : ”التَّقِيُّ مُلْجَمٌ وَالمُتَّقِيٌّ فَوْقَ الْمُؤْمِنِ وَالطَّائِعِ“ وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجعله حائزا بينك وبينه ؛ كما قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ^(١) وَلَمْ تَرِدْ إِسْقَاطُهُ * فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَيْنَا بِالْيَدِ

وقال آخر :

فَالْتَقْتُ قَنَاعًا دُونَهُ الشَّمْسُ وَاتَّقَيْتُ * بِأَحْسَنِ مَوْصُولِينَ كَفَّ وَمِعْصَمٍ

وخرج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زُرَّيٍّ أبى عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن زُرَّ بن حُبَيْش عن ابن مسعود قال قال يوما لابن أخيه : يَا بَنَ أَخِي تَرَى النَّاسَ مَا أَكْثَرَهُمْ ؟ قال : نعم ؛ قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقي . ثم قال : يَا بَنَ أَخِي تَرَى النَّاسَ مَا أَكْثَرَهُمْ ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد الإسطامى : المتقى من اذا قال قال لله ، ومن اذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الداراني : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل : المتقى الذى اتقى الشرك وبرىء من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا عن التقوى ؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) النصف : ثوب يجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمي نصيفا لأنه نصف بين الناس وبينها لحجز أبصارهم عنها .

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خَلَّ الذُّنُوبَ صَمِيرَهَا * وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْ * ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً * إِنْ الْجِبَالُ مِنَ الْحَصَى

السادسة — التقوى فيها جماع الخير كله ، وهي وصية الله في الأولين والآخرين ، وهي خير ما يستفيد به الإنسان ؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظت عنك شيء ؛ فقال :

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مَنَاهُ * وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالِي * وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول :
” ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله “ .

والأصل في التقوى : وقوى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقته أقيه أى منعه ؛ ورجل تقى أى خائف ، أصله وفى ؛ وكذلك تقاء كانت في الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وترات ، والأصل وجاه ووراث :

قوله تعالى : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٤﴾ فيها ست وعشرون مسألة .

الأولى — قوله : (الَّذِينَ) في موضع خفض نعت للمتقين ، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين ، ويجوز النصب على المدح . (يُؤْمِنُونَ) يصدقون ؛ والإيمان في اللغة : التصديق ؛ وفى التزويل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » أى بمصدق ؛ ويتعدى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ يَبْعَ دِينَكُمْ » « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى » . وروى حجاج بن حجاج

الأحول — ويلقب بزق العسل — قال سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا عن نشاط فإن نفسك مائلة إلى السَّامة والفترة والملة ؛ ولكنَّ المؤمن هو المتحامل ، والمؤمن هو المتقوى ، والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين هم العجاجون إلى الله الليل والنهار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربَّنَا ربَّنَا في السرِّ والعَلانية حتى استجاب لهم في السرِّ والعَلانية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب في كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منه : غابت الشمس تغيب ؛ والغيبة معروفة . وأُغابت المرأة فهي مغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا في غيبة وغَيابة ، أي هبطت من الأرض ؛ والغَيابة : الأَجعة ، وهي جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثة — واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب في هذه الآية : الله سبحانه . وضعفه ابن العربي . وقال آخرون : القضا والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أسرار الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : فأخبرني عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . قلت : وفي التنزيل : « وَمَا تُكَاذِبِينَ » وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ » . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئي في هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ؛

(١) تحامل في الأمر ربه : تكلفه على مشقة وإجبار . (٢) الغيب : رفع الصوت بالتيه .

فهم يؤمنون أن لهم رباً قادراً يجازي على الأعمال ، فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم باطلاعه عليهم ؛ وعلى هذا تتفق الآي ولا تتعارض ؛ والحمد لله . وقيل : بالغيب أى بضمايرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمناً وقد كان قومنا * يصلون للأوثان قيل محمد

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة ؛ وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها على ما يأتى بيانه ؛ يقال : قام الشيء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرجل ؛ وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتم لم يرحوا * حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل : يقيمون يديمون ، وأقامه أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

الخامسة - إقامة الصلاة معروفة ؛ وهى سنة عند الجمهور ، وأنه لا إعادة على تاركها ؛ وعند الأوزاعي وعطاء ومجاهد وابن أبى ليلي هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظاهر . وروى عن مالك ، وأخبره ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى " وأقم " فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء .

قال : فأما أتم الآن وقد وقفت على الحديث فقد تعين عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسلم : " وتحريمها التكبير " دليل على أنه لم يدخل فى الصلاة من لم يُحرم ، فما كان قبل الإحرام لحكمه ألا تماد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للإجماع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علمائنا : من تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لأستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن ، والله أعلم .

السادسة - واختلف العلماء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أولاً ؟ فذهب الأكثر الى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا " . رواه أبوهريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا تَوُبَّ بالصلاة فلا يَسْمَعْ اليها أحدكم ولكن لِيَمْسُ وعليه السكينة والوقار صَلَّى ما أدركت وأَقِضَ ما سبقك " . وهذا نص ؛ ومن جهة المعنى أنه اذا أُسرع انبهر فشوش عليه دخوله في الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر وابن مسعود على اختلاف عنه أنه اذا خاف فواتها أُسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه ، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرك الفرس ؛ وتأوله بعضهم على الفرق بين الماشي والراكب لأن الراكب لا يكاد أن ينبر كما ينبر الماشي .

قلت : واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حال أولى ، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار لأنه في صلاة ؛ ومحال ان يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر ؛ فكما أن الداخل في الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك الماشي ، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه ؛ ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة ، وما أخرجه الترمذي في مسنده قال : حدثنا محمد بن يوسف قال حدثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبري عن كعب بن عُجْرَةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذا توضأت فعمدت الى المسجد فلا تشبكن بين أصابعك فانك في صلاة " . فمنع صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعله كالمنصلي ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعالى : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام ، وإنما عنى العمل والفعل ؛ هكذا فسرهُ مالك ، وهو الصواب في ذلك والله أعلم .

السابعة - واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فآتوا" وقوله : "واقض ما سبقك" هل هما بمعنى واحد أو لا ؟ فقيل : هما بمعنى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمام ، قال الله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » وقال : « فَإِذَا قُضِيَ مَنَاسِكُكُمْ » . وقبل : معناهما مختلف وهو الصحيح ، ويترب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أول صلاته أو آخرها ؟ فذهب الى الأول جماعة من أصحاب مالك ، منهم ابن القاسم ولكنه يقضى ما فاتته بالحمد وسورة ، فيكون بانيا في الأفعال قاضيا في الأقوال . قال ابن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خويز منداد : وهو الذى عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعي والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود بن ابن على . وروى أشهب وهو الذى ذكره ابن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا في الأفعال والأقوال ، وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من جعل ما أدرك أول صلاته فأظنهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا فى أول الصلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ، فن ها هنا قالوا : إن ما أدرك فهو أول صلاته ، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : " فآتوا " والتمام هو الآخر .

واحتج الآخرون بقوله : " فاقضوا " والذى يقضيه هو الفائت ، إلا أن رواية من روى " فآتوا " أكثر ، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أول صلاته ويترد ، إلا ما قاله عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون والمزنى وإسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ، وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ، فهؤلاء اطرء على أصلهم قولهم وفعلهم ، رضى الله عنهم .

الثامنة - الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" أخرجه مسلم وغيره ، فأما إذا شرع فى نافلة

فلا يقطعها لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » وخاصة إذا صلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث في ذلك . والله أعلم .

التاسعة - واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتي الفجر ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوت ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما في شيء من أفنية المسجد - التي تصل فيها الجمعة - اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأن يصليهما إذا طلعت الشمس أحب إلى وأفضل من تركهما . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشي أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع في الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتي الفجر خارج المسجد ، ثم يدخل مع الإمام ؛ وكذلك قال الأوزاعي ؛ إلا أنه يجوز ركوعهما في المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة ؛ وقال الثوري : إن خشي فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حنبل ويقال ابن حيّان : إذا أخذ المقيم في الإقامة فلا تطوع إلا ركعتي الفجر . وقال الشافعي : من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا في المسجد ؛ وكذلك قال الطبري وبه قال أحمد بن حنبل ؛ وحكى عن مالك وهو الصحيح في ذلك ؛ لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إما سنة ، وإما فضيلة ، وإما رغبة ؛ والحجة عند النزاع حجة السنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة ما روى عن ابن عمر أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلاهما في حجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجة الثوري والأوزاعي ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى أسطوانة^(١) في المسجد ركعتي الفجر ، ثم دخل الصلاة بحضور من حذيفة وأبي موسى رضي الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

(١١)
المكتوبة خارج المسجد جازله ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بختة
قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلي والمؤذن يقيم ،
فقال : "أتصلي الصبح أربعاً" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتي
الفجر في المسجد والإمام يصلي ، ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتي الفجر إن وقعت
في تلك الحال صححت ؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العاشرة - الصلاة أصلها في اللغة الدعاء ، مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا ، ومنه قوله
عليه السلام : "إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فليُجِبْ فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما
فليصل" أي فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصل ركعتين
وينصرف ؛ والأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته
إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسماء : ثم مسح وصلى عليه ، أي دعا له . وقال تعالى :
« وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » أي أدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول يَلْتِي وقد قُرْبِتْ مرتحلا * يا رَبِّ جنب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صَلَّيتْ فَاغْتَمِضِي * نوماً فإنَّ لِحْنِبِ الْمَرْءِ مُضْطَجِعاً

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرِّيحُ في دَنِّها * وصَلَّى على دَنِّها وارْتَسَمَ

ارتسم الرجل : كبر ودعا ، قاله في الصحاح . وقال قوم : هي مأخوذة من الصَّلَا وهو عرق
في وسط الظهر ويفترق عند العَجَب فيكتنفه ؛ ومنه أَخَذَ الْمُصَلَّى في سبق الخيل ، لأنه يأتي
في الحَلْبَةِ ورأسه عند صَلَوَى السابق ؛ فاشتقت الصلاة منه ، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان
فشبهت بِالْمُصَلَّى من الخيل ، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاهُ . والصَّلَا مغرز الذَّنْب من الفرس ،

(١) بحية أمه وهي بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدي .

والإثنان صلوان . والمصلى : تالى السابق ، لأن رأسه عند صلاه . وقال على رضى الله عنه : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلاث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم ؛ ومنه صلى بالنار إذ لزمها ؛ ومنه : « تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » . قال الحارث بن عباد :
لم أكن من جُنَاتِهَا علم الله * له وإنى يحترها اليوم صال

أى ملازم لحرها ، وكأن المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحد الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَّيت العود بالنار إذا قَوْمْتَهُ وَلَبَّيْتَهُ بِالصَّلَاةِ ؛ والصَّلاء : صلاء النار بكسر الصاد ممدود ، فإن فتحت الصاد قصرت ، فقلت صلا النار ، فكأن المصلى يقوم نفسه بالمعانة فيها ويلين ويخضع ؛ قال الخارزنجي ^(١) :

فلا تعجل بأمرك واستدمه * فما صَلَّيْ عَصَاكَ كَمَسْتَدِيمِ ^(٢)

والصلاة : الدعاء ؛ والصلاة : الرحمة ، ومنه : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ » الحديث . والصلاة : العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ » الآية ، أى عبادتهم . والصلاة : النافلة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » . والصلاة : التسبيح ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلين . ومنه سبعة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » نصل . والصلاة : القراءة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ » فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلى فيه ، قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم علم وضع لهذه العبادة ؛ فإن الله تعالى لم يُخَلِّ زمانا من شرع ، ولم يُخَلِّ شرع من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيري .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها ؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى ، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج ، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام ، أو هل

(١) كذا فى جميع الأصول ، وفى اللسان مادة (صلا) : « ... فیس بن زهير » . (٢) كذا فى جميع

الأصول ؛ وفى اللسان : « عصاه » .

تلك الزيادة من الشرع تصيرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم والأول أصح ، لأن الشريعة ثبتت بالعربية ، والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين ؛ ولكن للعرب تحكُّم في الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدب ؛ ثم خصصها العرف بالبهائم ؛ فكذلك لعرف الشرع تحكُّم في الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف في المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معاً ، وهو الصحيح لأن اللفظ عام والمتقى يأتي بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق ؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية . على ما يأتي بيانه في «طه» إن شاء الله تعالى ، وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : هَجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَجَرْتُ فَصَلَيْتُ ثُمَّ جَلَسْتُ ؛ فَانْتَفَتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : «أَشْكَيْتَ دَرْدَ» قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : «قم فصل فإن في الصلاة شفاء» في رواية : «أَشْكَيْتَ دَرِيدَ» يعني تشكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمرٌ فَرَّعَ (٢) إِلَى الصَّلَاةِ .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض ؛ فمن شروطها : الطهارة ، ونسبأتى بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة . وستر العورة ، يأتي في الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبير الإحرام والقيام لها ، وقراءة أم القرآن والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدين والطمأنينة فيه ، والسجود الثاني والطمأنينة فيه . والأصل في هذه الجملة حديث أبي هريرة في الرجل الذي علمه النبي - صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها ، فقال له : «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم أركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع

(١) التمجيد : التكبير إلى كل شيء والمبادرة إليه . (٢) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه ، وقيل : منعته .

حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها” أخرجه مسلم . ومثله حديث رفاعه بن رافع ، أخرجه الدارقطني وغيره . قال علماؤنا : فيين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حد القراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود ، وعن الجلسة الوسطى وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام . أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما . وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء وعامة الفقهاء ، لحديث أبي هريرة وحديث رفاعه بن رافع ، وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ، وهو قول الحميدى ، ورواية عن الأوزاعي . واحتجوا بقوله عليه السلام : ”صلوا كما رأيتموني أصلي“ أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ، لأنه المبلغ عن الله مراده . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور ، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته ، وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضاً للسهو ، فإن لم يفعل فلا شيء عليه ، وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها . وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملة عند فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه . وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام ، فإن تركه ساهياً سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شيء عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير تامداً ، لأنه سنة من سنن الصلاة ، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم . وقد ترجم البخارى رحمه الله (باب إتمام التكبير في الركوع والسجود) وساق حديث مطرف بن عبد الله قال :

صليت خلف علي بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين، فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال : لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم . وحديث عكرمة قال : رأيت رجلا عند المقام يكبر في كل خفض ورفع ، وإذا قام وإذا وضع ؛ فأخبرت ابن عباس فقال : أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أم لك ^(١) ! فذلك البخاري رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم . روى أبو إسحاق السبيعي عن يزيد بن أبي مريم عن أبي موسى الأشعري قال : صلى بنا علي يوم الجمل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر في كل خفض ورفع ، وقيام وقعود ؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها وإما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض ، والشئ إذا لم يجب أفراداه لم يجب جميعه ؛ وبالله التوفيق . الخامسة عشرة — وأما التسبيح في الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور ؛ وأوجبه إسحاق بن راهويه ، وأن من تركه أعاد الصلاة ، لقوله عليه السلام : " أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم " .

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء في ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والتشهد له متان . وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعرايا من المزانية ، والقراض من الإجازات ، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا . واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله : لا أم لك . في نهاية ابن الأثير : « هو ذم وسب . أي أنت لقيط لا تعرف لك أم . وقيل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُدٌّ » .

(٢) العرايا : النخل كانت توهب للساكنين فلا يستطيعون أن ينظروا بها رخص لم أن يبيعوها بما شاءوا من التمر .

(٣) المزانية : بيع الرطب على رموس النخل بالتركيلا ، وبيع الزبيب بالكرم .

(٤) القراض (بالكسر) : اجارة على التجر في مال بجزء من ربحه .

العائد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة . احتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، ويراعى فيه ما يراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة ؛ ثم يسجد لسهو كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله ابن بُحَيِّنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائما فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدة السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم . واختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والسلام فرض ؛ ومن قال ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل فى رواية ، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدة السهو تركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . واحتجوا بأن بيان النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فرض ، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر الى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : ” صلوا كما رأيتمونى أصلى “ .

القول الثانى : أن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب ، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، وإليه ذهب إبراهيم بن عُلَيَّة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، يخالف الجمهور وشذ ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حججهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته “ وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد بيناه فى كتاب المقتبس . وهذا اللفظ إنما يسقط السلام لا الجلوس .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضاً .
قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريق
عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس
أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلم فقد تمت صلاته " . قال ابن العربي : وكان
شيخنا نفي الإسلام ينشدنا في الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضرطة * أين الضراط من السلام عليكم

قال ابن العربي : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما :
فروى عبد الملك بن عبد الملك أن من سلم من ركعتين متلعباً ، فخرج البيان أنه كان على
أربع أن يجزئه ؛ وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثاني : فوقع في الكتب المنبوذة أن
الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمداً وقبل السلام أنه يجزئ من خلفه ؛ وهذا مما لا ينبغي
أن يلتفت إليه في الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكري .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا
مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية . واحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر
يجب الا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان ، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة
منهم إسحاق بن راهويه ، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علمه رسول الله صلى الله
عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " .
قال الدارقطني : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير
في الحديث ، ووصله بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شبابة عن زهير وجعله من
كلام ابن مسعود ؛ وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبي صلى الله
عليه وسلم . وشبابة ثقة وقد تابعه غسان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام
ابن مسعود ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — واختلف العلماء في السلام؛ فقليل : واجب، وقيل : ليس بواجب .
والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث عليّ الصحيح خرجه أبو داود والترمذي ورواه
سفيان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن عليّ قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث
أصل في إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها
باتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدي : لو افتتح رجل صلاته بسبعين أسما من أسماء الله عز
وجل ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه ، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه ؛ وهذا تصحيح من
عبد الرحمن بن مهدي لحديث عليّ وهو امام في علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيم .
وحسبك به !

وقد اختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي : —

التاسعة عشرة — فقال ابن شهاب الزهري وسعيد بن المسيب والأوزاعي وعبد الرحمن
وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقد روى عن مالك في المأموم ما يدل على هذا
القول ؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة ؛
وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك فحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — واختلف العلماء في اللفظ الذي يدخل به في الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه
وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير ، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تهجد .
هذا قول المجازين وأكثر العراقيين ؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر » لا غير ذلك .
وكذلك قال الشافعي وزاد : ويجزئ « الله أكبر » و « الله الكبير » . والحجة لمالك حديث
عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بـ « الحمد
لله رب العالمين » . وحديث عليّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابي : فكبر . وفي سنن
ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعليّ بن الطنافسي قالا : حدثنا أبو أسامة قال حدثني
عبد الحميد بن جعفر قال حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدي يقول :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح في تعيين لفظ التكبير ؛ قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء * محاولة وأعظمه جنودا

ثم أنه يتضمن القدم ، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم ، فكان أبلغ في المعنى والله أعلم . وقال أبو حنيفة : إن افتتح بلا إله إلا الله يحزبه ، وإن قال : اللهم اغفر لي لم يحزه . وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يحزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتية يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أحد من أحسن القراءة فهل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة ، فمن كان هذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يحزبه مكان التكبير غيره ، كما لا يحزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يحزؤه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يحزبه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ؛ ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — وانفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روء عن بعض أصحابنا يأتي الكلام عليه في آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الأمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربي : والأصل في كل نية أن يكون عقده مع التلبس بالفعل المنوي بها ، أو قبل ذلك بشرط استصحابها ، فإن تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة في تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ؛ وقد رخص في تقديمها في الصوم لعظم الحرج في اقترانها بأوله . قال ابن العربي : وقال لنا أبو الحسن القروي بشعر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويمرر النظر في الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهي نظره إلى نية الصلاة ؛ قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل ، وإنما يكون ذلك في أوحى لحظة ، لا ز

تعليم الجمل يفتقر الى الزمان الطويل ، وتذكارها يكون في لحظة ، ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لما كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع في عزوب النية في أثنائها . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبي سحنونا ربما يكمل الصلاة فبعيدها ، فقلت له ما هذا ؟ فقال : عزيت نيتي في أثنائها فلاجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة ، وسائر أحكامها يأتي بيانها في مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى ، فيأتي ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة الى الأوقات ، وبعض صلاة الخوف في هذه السورة ، ويأتي ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف ، في « النساء » والأوقات في « هود وسبحان والروم » وصلاة الليل في « المزمل » وسجود التلاوة في « الأعراف » وسجود الشكر في « ص » كل في موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما . خلافا للعقلة في قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه ، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صبي مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا ، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه الى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه ، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد ، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التملك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا ، ولا البهائم التي ترعى في الصحراء ، ولا السخال من البهائم ، لأن ابن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون ، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء لأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون ،

وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذي يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وقال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » وقال : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » وهذا قاطع ؛ فالله تعالى رازق حقيقة وابن آدم رازق تجوزا ، لأنه يملك ملكا متزعا كما يبناه في الفاتحة ؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التي لا ملك لها ؛ إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له في تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد نخرج بعض النبلاء من قوله تعالى : « كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً رَبُّ غَفُورٌ » فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) الرزق مصدره رزق يرزق رزقا ورزقا ، فالرزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض] . وارتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغة . وقال ابن السكيت : الرزق بلغة أزد شئونة : الشكر ؛ وهو قوله عز وجل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : (يَنْفِقُونَ) ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المال من اليد ؛ ومنه نفق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشتري . ونفقت الدابة : خرجت روحها ؛ ومنه النافقاء لبحر اليربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه ؛ ونفق السراويل معروفة وهو يخرج الرجل منها . ونفق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا لَأَسْكَنْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » .

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل : الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مَسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ » . وروى عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ دِينَارٍ يَنْفَقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يَنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ وَدِينَارٌ يَنْفَقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَدِينَارٌ يَنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال أبو قلابة : (١) وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفقهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صدقة التطوع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع؛ فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بها إلى الله جل وعز على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات في « براءة » . وقيل : إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضا، ولما عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح؛ لأنه نخرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا؛ وذلك لا يكون إلا من الحلال، أى يؤتون ما أزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يعن في بعض الأحوال مع ما تدبهم إليه . وقيل : الإيمان بالغيب حظ القلب . وإقام الصلاة حظ البدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المال؛ وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى : « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى مما علمناهم يعلمون، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري .

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث . (٢) مثل قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة » الآية . فقد قال ابن العربي أنها ناسخة لآية « والذين يكتزون الذهب والفضة » الآية أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴿١﴾ قيل : المراد مؤمنوا أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمنى العرب. وقيل : الآيتان جميعا في المؤمنين، وعليه فإعراب الذين خفض على العطف، ويصح أن يكون رفعا على الاستئناف أى وهم الذين؛ ومن جعلها في صنفين فإعراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى؛ ويحتمل خفض عطفًا .

قوله تعالى : **(بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)** يعنى القرآن **(وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)** يعنى الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله : **« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا »** الآية. ويقال : لما نزلت هذه الآية : **« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ »** . قالت اليهود والنصارى : نحن آمننا بالغيب؛ فلما قال : **« وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ »** . قالوا : نحن نقيم الصلاة، فلما قال **« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »** قالوا : نحن ننفق ونتصدق؛ فلما قال : **« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ »** نفروا من ذلك .

وفي حديث أبي ذر قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : **« مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان »** .

الحديث أخرجه الحسين الأجرى وأبو حاتم الهنتى .

وهنا مسألة — ان قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله ، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة، على ما يأتى بيانه ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **(وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)** أى وبالبعث والنشرهم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : **يَقِنْتُ الأمرَ بالكسر يقنًا**، وأيقنْتُ واستيقنْتُ وتيقنْتُ كله بمعنى؛

وأنا على يقين منه . وإنما صارت الياء واوا في قولك : مُوقِنٌ ، للضمّة قبلها وإذا صغرته رددته الى الأصل ، فقلت مُيَقِّنٌ . والتصغير يرد الأشياء الى أصولها وكذلك الجمع ، وربما عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا في اليمين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يدين له أنه خلاف ذلك فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر ^(١) :

تَحَسَّبَ هَوَاسٌ وَأَيَقَنَ أَتَى * بها مُقْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لَا أَغَايِرُهُ

يقول : تشم الأسد ناقتي ، يظن أنني مفتد بها منه ، واستحى نفسي فتركها له ولا أفتح الممالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد في التزويل وهو في الشعر كثير وسيأتي . والآنرة مشتقة من التأنر لتأنرها عنا وتأنرها عنها ، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتي . قوله تعالى : **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿٢٥﴾ قال النحاس أهل نجد يقولون : أولاك ، وبعضهم يقول ، ألاك والكاف للخطاب . قال الكسائي : من قال أولئك فواحدة ذلك ، ومن قال ألاك فواحدة ذاك ، وألأك مثل أولئك ؛ وأنشد ابن السكيت : **أَلَأَلِكِ قَوْمِي لَمْ يَكُونُوا أَشَابَةً** ^(٢) * وهل يَعِظُ الضَّلِيلُ إِلَّا أَلَأَلَكَا وربما قالوا : أولئك في غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

دُمَ المنازل بعد منزلة اللَّوَى * والعيش بعد أولئك الأيام

وقال تعالى : **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** » وقال علماءنا : إن في قوله تعالى : **« مِنْ رَبِّهِمْ »** ردا على القدرية في قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم ؛ تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال : **« مِنْ أَنْفُسِهِمْ »** ؛ وقد تقدم الكلام فيه وفي الهدى فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ هم ، يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون ، والثاني وخبره خبر الأول ؛ ويجوز أن تكون هم زائدة — يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفلحون خبر أولئك .

(١) هو أبو سدرة الأسدي ، ويقال : الهجيمي .
(٢) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة في الكسب : ما خالطه الحرام الذي لا خير فيه والسحت .
(٣) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩
(٤) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء .

والفَلَح أصله في اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحديد بالحديد يُفْلَح *

أى يشق ، ومنه فلاحه الأرضين انما هو شقها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سمي
الْأَكَّارُ فلاحا . ويقال للذى شقت شفته السفلى أفلاح ، وهو بين الفلحة ، فكأن المفلح قد
قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل في الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضا في اللغة ،
ومنه قول الرجل لامرأته : استفْلِحِي بأمرِك ؛ معناه فوزي بأمرِك ؛ وقال الشاعر :

لو كان حى مدرك الفلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قريع السعدى في الجاهلية الجاهلاء :

لَكُلِّ هَمٍّ من الهموم سَعَةٌ * والمُسْنَى وَالصُّبْحُ لا فَلَاحَ مَعَهُ

يقول : ليس مع كثر الليل والنهار بقاء ؛ وقال آخر :

نحل بلادا كلها حل قبلنا * ونرجوا الفلاح بعد عاد وحمير

أى البقاء ؛ وقال عبيد :

أفْلَحَ بما شئتَ فقد يدرك بالضع * ف وقد يُخَدِّعُ الأريبُ

أى أبى بما شئت من كبس وحق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . فعنى وأولئك هم
المفلحون : أى الفائزون بالحنسة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين
أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ؛ والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح في السحور ؛
ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح ؟
قال : السحور . أخرجه أبو داود . فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه
فلاحا . والفلاح بتشديد اللام : المكارى في قول القائل^(١) .

لها رطلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه * وفلاحٌ يسوق لها حماراً

ثم الفلاح في العرف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

(١) هو عمرو بن أحر الباهلي ؛ كما في اللسان مادة (فلح) .

مسئلة - إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهم وإليهم ولديهم ، ولم يقرأ من ربهم ولا فيهم ولا جنتيهم ؟ فالجواب إن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه متقبة من أنف ، والأصل علاهم ولداهم وألاهم فأقرت الهاء على صحتها ؛ وليس ذلك في فيهم ولا من ربهم ولا جنتيهم ، ووافقه الكسائي في « عليهم الذلة وإليهم اثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد في الآية ؛ وقد يكون بمعنى محمود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه السلام في النساء في حديث الكسوف : « ورأيت النار فلم أر منظرا كالיום قط أظفح ورأيت أكثر أهلها النساء » قيل : **يَمَ يا رسول الله ؟** قال : « بكفرنهن » ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط » أخرجه البخاري وغيره .

وأصل الكفر في كلام العرب : السروالتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* في ليلة كَفَر النجوم غَمَامُها *

أي سترها ؛ ومنه سمي الليل كافرا لأنه يغطي كل شيء بسواده ؛ قال الشاعر ^(١) :

فَتَذَكَّرَا قَفَلًا رَشِيدًا بَعْدَ مَا * أَلَقْتُ دُكَاءَ يَمِينِها في كافِر

دُكَاء يضم الذال والمذ أسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردت قبل انبلاج الفجر * وأبْنُ دُكَاءٍ كَايْنٌ في كَفِير

أي في ليل . والكافر أيضا البحر والنهر العظيم . والكافر : الزارع والجمع كُفَّار ، قال الله تعالى : « كَثَلٌ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ » . يعني الزراع لأنهم يغطون الحب ، ورماد

(١) هو ثعلبة بن صبرة المازني ، يصف الظلم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس . والنفل

(بالتحريك) ها : بيض النعام المصون . والرئيد : المتصد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها في كافر .

أي بدأت في الغيب . السان مادة (كفر) .

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بُعد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمتز به أحد ؛ ومن حل بتلك المواضع فهم أهل الكفور؛ ويقال الكفور : القرى .
 قوله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ) معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا .
 وجيء بالاستفهام من أجل التسوية ، ومثله قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » .
 وقال الشاعر^(١) :

وليل يقول الناس من ظلماته * سواء صحيجات العيون وعورها

قوله تعالى : (أَعْذَرْتَهُمْ) الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتسع زمانه للاحتراز ، فان لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا ؛ قال الشاعر :
 أئذرت عمرا وهو فى مهل * قبل الصباح فقد عصى عمرو
 وتناذر بنو فلان هذا الأمر إذا خوفه بعضهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقليل : هى عامة ومعناها الخصوص فىمن حقت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس من هذه حاله دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبي : نزلت فى رؤساء اليهود ، منهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فىمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأول أصح ، فإن من عين أحدا فإنما مثل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : (لَا يُؤْمِنُونَ) موضعه رفع خبر إن ، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون ، وقيل خبر إن سواء ، وما بعده يقوم مقام الصلة ؛ قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رفع بالابتداء ، أعذرتهم أم لم تنذرهم الخبر ، والجملة خبر إن . قال النحاس : أى أنهم تباهاؤوا فلم تكن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة « أعذرتهم » فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

(١) هو أعتى قيس الملقب بالأعتى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق : أنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، واختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش وسعد بن بكر ، وعليها قول الشاعر ^(١) :

أيا ظبية الوعساء بين جُلَاجِلٍ * وبين النقا أنت أم أم سالم
هجاء « أنت » ألف واحدة . وقال الآخر :

تطاللت فاستشرفته فعرفته * فقلت له أنت زيد الأرناب

وروى عن ابن محيصن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، لحذف لالتقاء الهمزتين ، أولأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

روح من الحى أم تَبْتَكِرُ * وماذا يَضِيرُكَ لو تَنْتَظِرُ

أراد : أروح فاكفى بأم من الألف . وروى عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ » ، فحق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية ؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا ؛ وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين : « أَنْذَرْتَهُمْ » وهو اختيار أبي عبيد ، وذلك بعيد عند الخليل ؛ وقال سيبويه : يشبه فى الثقل ضَنُّوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء ، لأنهم إنما يخففون بعد الاستئصال ، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهذه سبعة أوجه من القراءات ، ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن ، لأنه مخالف للسواد ؛ قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : ها أنذرتهم ؛ كما يقال هياك وإياك ؛ وقال الأخفش فى قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أنتم .

قوله تعالى : خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ فيها عشر مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (خَتَمَ اللَّهُ) بين سبحانه فى هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختم شدد للبالغة ؛ ومعناه

(١) هو ذوالرمة كما فى كتاب سيبويه ، والمفصل للزحشرى . (٢) الدواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعاني : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرّين والموت والقساوة والانصراف والحية والإنكار . فقال في الإنكار : « قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » . وقال في الحية : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَيَّةَ » . وقال في الانصراف : « ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ قُلُوبِهِمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » . وقال في القساوة : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » . وقال في الموت : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » . وقال في الرّين : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال في المرض : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » . وقال في الضيق : « وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » . وقال في الطبع : « وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » . وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وقال في الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وسيأتي بيانها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانية - الختم يكون محسوسا كما بينا، ومعنى كما في هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعات ، هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثة - في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرة القائلين بخلق إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا ؛ وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فتي يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم . « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » ! وكان

فعل الله ذلك مدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ، ولا يجوز أن تكون حقيقة التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ، هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ، كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الختم والطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممنوع ، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم ، وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ، دليله قوله تعالى : « كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » . أى لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعة - قوله : (عَلَى قُلُوبِهِمْ) فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ، فالقلب موضع الفكر . وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته ، وقلبت الإناء : رددته على وجهه ، ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، وترددها عليه ، كما قيل :

ما سَمَّى القلب إلا من تَقَلُّبِهِ * فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقاً بينه وبين أصله ؛ روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ رِيْشَةٍ تَقْلِبُهَا الرِّيحُ بِفَلَاةٍ" . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللَّهُمَّ يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ" . فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك إقتداء به ؛ قال الله تعالى : «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» . وسيأتى .

الخامسة — الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — وإن كان رئيسها وملوكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدق فتنتك فى قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه" . وروى الترمذى وصححه عن أبي هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فإن هو تاب صقل قلبه" . قال : وهو الزين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : «كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب لمصبع ، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقياً والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصنوبرة ؛ وهو يعضد قول مجاهد . والله أعلم . وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدثنا : "أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيبطل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيبطل أثرها مثل الحجل بحمير درجته على رجلك فنقط فتراه مشتتاً وليس فيه شيء — ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله — فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن

في بني فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجَلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبائع منكم إلا فلانا وقلانا.

ففي قوله : الوكت وهو الأثر اليسير ؛ ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرباب قد وكت، فهو موكت . وقوله : المجل، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء ؛ وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "بحمر دحرجته" أي دورته على رجلك فنفط . فقرأه منتبرا أي مرتفعاً ؛ ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يفعل فيه ؛ وكذلك اللحم والطبع والله أعلم . وفي حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلوبين على أبيض مثل الصفا فلا تضربه فتنة ما دامت السموات والأرض والآخرة أسوداً مُرباداً كالكوز مجحياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه "وذكر الحديث . مجحياً : يعنى مائلاً .

السادسة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى : «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» . وقال : «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» يعنى في الموضعين قلبك، وقد يعبر به عن العقل . قال الله تعالى : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» أي عقل، لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ» . وقال : «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ» . قال : والسمع يدرك به من الجهات الست، وفي النور والظلمة ؛ ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به

الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووحد السمع ؟ قيل له : إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، يقال : سمعت الشيء أسمعه سمعا وسماعا، فالسمع مصدر وسمعت ؛ والسمع أيضا اسم للمارحة المسموع بها سُميت بالمصدر . وقيل : إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ؛ كما قال الشاعر ^(١) :

بها جِيفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا * فَيَبِضُّ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

إنما يريد جلودها، فوحد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر ^(٢) في مثله :

لَا تُشَكِّرِ الْقَتْلَ وَقَدْ سُبِينَا * فِي حَلَقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ تَحْيِينَا

يريد في حلوقكم ومثله قول الآخر :

كَأَنَّهُ وَجْهَ تَرْكِينٍ قَدْ غَضِبَا * مُسْتَهْدَفَ لَطْمَانٍ غَيْرَ تَذْيِبِ

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركين لأنه قد علم أنه لا يكون للثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسماعهم ؛ ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا ينحتم وإنما ينحتم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سمعت حديثي — أى استماعك إلى حديثي — يعجبني، ومنه قول ذي الرمة، يصف نورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

وَقَدْ تَوَجَّسَ رِيكُوا مُقْفِرٌ تَدُسُّ * بَنِيَّةُ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبٌ

(١) هو عطفة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شافا على من سلكه . بجيف الحسرى وهي المعية من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فيض ، أى أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وبدأ رضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملق بالقلا لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ، أى قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه .
(٢) عن شرح الشواهد للشتمري . (٢) هو المسيب بن زيد مائة الغنوى ، كما في كتاب سيبويه .

أى مافى استماعه كذب، أى هو صادق الاستماع، والتدّس : اللذوق . والنّبأ : الصوت الخفى، وكذلك الرّكز . والسّمع بكسر السين وإسكان الميم : ذكر الإنسان بالجميل ، يقال : ذهب سمّعه فى الناس أى ذكره . والسّمع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : وعلى سمّهم . وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره . والضماير فى قلوبهم وما عطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع ، وهو أصوب لأنه يعم . فالتّلم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاسعة - ومنه غاشية السّرج، وغشيت الشئ أغشيه . قال النابغة :
هلا سألت بنى ذبيان ما حسبي * إذا الدخان تَغَشَّى الأشمط^(١) البرما
وقال آخر :^(٢)

صَحْبُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غَشَاوَةٌ * فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسَ الْيَوْمِهَا

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بمحذف الهاء . وحكى الفراء : غشاوى مثل أداوى . وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله :
* عَفَفْتُهَا تَبَنَّا وَمَاءً بَارِدًا *
وقول الآخر :^(٣)

يَا لَيْتَ زَوْجَكَ قَدْ غَدَا * مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسي : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سعة واختيار ؛ فقراءة الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار؛ والوقف على قلوبهم . وقال آخرون : التّلم فى الجميع ، والغشاوة هى التّلم فالوقف على هذا على غشاوة ؛ وقرأ الحسن غشاوة بضم الغين، وقرأ أبو حيوة بفتحها ، وروى عن

(١) الأشمط : الذى خالطه الشيب . والبرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ويا كل منهم من لجه .

(٢) هو الحارث بن خالد الخزرمي ، كما فى اللسان مادة (غشا) . (٣) هو عبد الله بن الزبير . كما

فى الكامل للبرد ص ١٨٩ طبع أوردبا .

أبى عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر؛ قال ابن كيسان : ويجوز غشوة وغشوة وأجودها غشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء ، نحو عمامة وكثانة وقلادة وعصابة وغير ذلك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ ﴾ أى للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعتة . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد ؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفى التزييل : « وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال فى اللغة : أعذبه عن كذا أى أحبسه وأمنعه ، ومنه سمي عذوبة الماء لأنها قد أعذبت ، واستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول على رضى الله عنه : أعذّبوا نساءكم عن الخروج ، أى احبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيع سيرة فقال : أعذّبوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يكسركم عن الغزو؛ وكل من منعه شيئا فقد أعذّبه ؛ وفى المثل : « لألجئتك لحاما معذبا » أى مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أعذّب أى امتنع . وأعذّب غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جريح عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين ، واثنان فى نعت الكافرين ، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدى فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ » قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس ، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانية — واختلف النحاة فى لفظ الناس ؛ فقيل : هو اسم من أسماء الجوع ، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ ، وتصغيره نويس ، فالناس من النوس وهو الحركة يقال : ناس ينوس أى تحرك ، ومنه حديث أم زرع : « أَنَاسٌ مِّنْ حُلٍّ أُذُنِيَّ » . وقيل : أصله من نسي فأصل

ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقليل : الناس . قال ابن عباس : نسي آدم عهد الله فسمى إنسانا . وقال عليه السلام : "نسي آدم فنسيت ذريته" . وفي التزويل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَى» وسيأتي، وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تنسين تلك العهود فإنما * سميت إنسانا لأنك ناسي

وقال آخر :

فإن نسيت عهدا منك سألقة * فاغفر فأول ناس أول الناس

وقيل : سمي إنسانا لأنسه بحواء . وقيل : لأنسه بربه ، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر :

وما سمي الانسان إلا لأنسه * ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثة - لما ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أولا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين في مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق : «وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» ففي هذا رد على الكرامة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ واحتجوا بقوله تعالى : «فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ بِمَا قَالُوا» . ولم يقل : بما قالوا وأضربوا؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وترك نظير لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان". أخرجه ابن ماجه في سننه . فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعة - قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحببه الله ويواليه، ومؤمن لا يحببه الله ولا يواليه ، بل يبغضه ويعاديه؛ فكل من علم الله أنه يوافي بالإيمان، فانه محب له ، موال له ، راض عنه . وكل من علم الله أنه يوافي بالكفر، فانه مبغض له ، ساخط

عليه ، معاد له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذي يوافق به . والكافر ضربان : كافر يُعاقب لا محالة ، وكافر لا يُعاقب . فالذي يُعاقب هو الذي يُوافق بالكفر ، فإله ساخط عليه معاد له ؛ والذي لا يعاقب هو الموافق بالإيمان ، فإله غير ساخط على هذا ولا باغض له ، بل يحب له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمانه الموافق به . فلا يجوز أن يطلق القول وهي : —

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب ، والكافر يستحق العقاب ، بل يجب تقييده بالموافاة ، ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن عمر في الوقت الذي كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافق به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادته لكفره الموافق به .

وخالفت القدرية في هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته ، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافق به إبليس لعنه الله ، وبما يوافق به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر ؛ ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار ، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله عليه وسلم : ” وإنما الأعمال بالخواتيم ” ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان بحرئ السعادة في سوابق الأزل ؛ وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة . . .

قلت : هذا كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : ” إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل

يعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها". فان قيل وهي : —

السادسة — فقد خرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه" قال قلت : كيف يحيى الله الموتى؟ قال : "أما مررت بأرض لك مجذبة ثم مررت بها مخضبة ثم مررت بها مجذبة ثم مررت بها مخضبة" قلت : بلى . قال : "كذلك النشور" قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن؟ قال : "ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن أبى قيس : أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها لى المؤمن".

قلت : وهذا الحديث وإن كانت سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود؛ فان ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : "ولمّا الأعمال بالخواتيم". وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال والله أعلم .

السابعة — قال طباء اللغة : إنما سمي المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمّر تشبيها باليربوع له . جحر يقال له : النافقاء، وآثر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جحره تراب، وباطنه حفرة؛ وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدم هذا المعنى .

قوله تعالى : يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٠﴾

قال طباؤنا : معنى يخادعون الله أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيل : فى الكلام حلف، تقديره : يخادعون رسول الله

صلى الله عليه وسلم؛ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسوله خداعاً لهم؛ لأنه دعاهم برسائه؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهره من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقُقُوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغة : أصل الخدع في كلام العرب الفساد ، حكاه نعلب عن ابن الأصبغى . وأنشد :

أبيض اللون لذيذ طعمه * طيب الريق إذا الريق خدع^(١)

قلت : فيخادعون الله على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسراً عن النبي صلى الله عليه وسلم على ما يأتى . وفى التنزيل : « يَرَاءُونَ النَّاسَ » . وقيل : أصله الإخفاء؛ ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشئ؛ حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب : الخدع الضب فى حجره .

قوله تعالى : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) نفي وإيجاب ، أى ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : من خَدَعَ من لا يُخَدَع فإنما يَخَدَع نفسه . وهذا صحيح لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يَخَدَع نفسه . ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يَخَدَع ؛ وقد تقدم من قوله عليه السلام أنه قال : "لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يَخَدَع لو يشعر" قالوا : يارسول الله ، وكيف يُخَادَع الله؟ قال : "تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره" . وسبأنى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمة والكسائى وابن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خَدَعَ بكسر الخاء وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مورو العجلي : «يُخَدِّعُونَ الله» بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير . وقرأ أبو طلوت عبد السلام بن شداد والجارود بضم الياء وإسكان الخاء وفتح

(١) قاله سويد بن أبي كاهل . يصف ثمر امرأة ، كفا فى اللسان مادة (خدع) .

الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم؛ فحذف حرف الجر كما قال تعالى : «وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ» أى من قومه .

قوله تعالى : (وَمَا يَشْعُرُونَ) أى يَقْطُنُونَ أَنْ وَبَالَ خُدْعِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا ؛ وإنما ذلك فى الدنيا ، وفى الآخرة يقال لهم : «أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا» على ما يأتى . قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بِالشئِ أى فِطَنْتُ لَهُ ؛ ومنه الشاعر لَفِطْنُهُ لِأَنَّهُ يَفْطِنُ لِمَا لَا يَفْطِنُ لَهُ غَيْرُهُ مِنْ غَرِيبِ الْمَعَانِي . ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِي ، أى لَيْتَنِي عَلِمْتُ .

قوله تعالى : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أَنْ يَكُونَ شَكًا وَنِفَاقًا ، وإما جحداً وتكذيباً . والمعنى قلوبهم مرضى نحلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من «مَرَضٌ» إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى : (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) قيل : هو داء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يَأْمُرُ سِلَ الرِّيحُ جُنُوبًا وَصَبَا * إِذْ غَضِبْتُ زَيْدٌ فَزَادَهَا غَضَبًا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه . وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطردهم ، لأنهم شر خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم ، أى فزادهم الله مرضا الى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» . وقال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم الى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها . وقوله : «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا» أى وكَلَّهْمُ الى أنفسهم ،

وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك الى اهتمام بالدين . «ولهم عذاب أليم» بما يغنى عما يبق . وقال الجنيد : علل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن . قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أليم في كلام العرب معناه مؤلم أى موجه ، مثل السميع بمعنى السميع ؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونرفع من صدور شمردلات * بصك وجوهها وهج^(١) أليم

والألم إذا أوجع . والإيلام : الإيحاء . والألم : الوجع ، وقد ألم يألم ألمًا . والتألم : التوجع . ويجمع أليم على إلام وألماء مثل كريم وكرماء ، وآلام مثل أشرف .

قوله تعالى : ﴿ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ما مصدرية ، أى بتكذيبهم الرسل وردهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ، قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بالتخفيف ؛ ومعناه يكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة - واختلف العلماء فى إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول - قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا فى سائر الأحكام . قال ابن العربى : وهذا متقضى ، فقد قُتل بالمجذّر بن زياد الحارث بن سويد بن الصامت لأن المجذّر قتل أباه سويدا يوم بعاث^(٢) ، فأسلم الحارث وأغفله يوم أحد فقتله ؛ فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقتله به لأن قتله كان غيلة^(٣) ؛ وقتل الغيلة حد من حدود الله .

(١) شمردلات : إبل طوال . و نرفع : نسحبها فى السير . والهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحي المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج . (٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوروبا . وكتاب الاستيعاب فى اسم المجذر .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمتقضى بما ذكره ، لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي ؛ وعلى هذا فكون تلك قضية في عين بوحي ، فلا يحتاج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وهم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نقل ذلك أحد ، ولا يقول أحد إن استتابه الزنديق واجبة ^(١) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم معرضاً عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن استتابه الزنديق جائزة ^(٢) قال قولاً لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحة لتأليف القلوب عليه ، لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : " معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي " أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يعطى للؤلؤة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفاً ؛ وهذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نص على هذا محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والأبهري وابن الماجشون ، واحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » إلى قوله . « وَتَوَلَّوْا تَقْتِيلًا » . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم ؛ فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابه ؛ وهو أحد قولي الشافعي . قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأئمة أن الحاكم لا يحكم بعلامة إذ لم يشهد على المنافقين . قال القاضي اسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أبي ^(٣) إلا زيد بن أرقم وحده ؛

(١) الذي في كتاب الأحكام لابن العربي : « ... ان استتابه الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا في الأصول وكتاب الأحكام لابن العربي . ولعل صواب العبارة : « ان استتابه الزنديق واجبة » .

(٣) سيذكر الامام القرطبي قصته عند تفسير سورة « المنافقون » . وقد وردت في سيرة ابن هشام ص ٧٢٦

(١) ولا على الجُلَّاس بن سُويد إلا عُثَيْر بن سعد ربيبه ، ولو شهد على أحد منهم رجلاً بكفروه ونفاقه لقتل . وقال الشافعي رحمه الله محتجاً للقول الآخر : السنة فيمن شهد عليه بالزندقة بفحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأي وأحمد والطبري وغيرهم . قال الشافعي وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يَجِبُ ما قبله . وقال الطبري : جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر ، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر لأنه حكم بالظنون ؛ ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا ، ووَكَّلَ سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم في قوله : « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تُعَيِّنْ أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالتفاق ؛ وبقى لكل واحد منهم أن يقول : لم أُرَدِّها وما أنا إلا مؤمن ، ولو عَيَّنْ أحد لما جبَّ كذبه شيئاً .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمُهُمْ أو كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه ؛ وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام إياه حتى كان عمر رضي الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن في تبييتهم ضرر ، وليس كذلك اليوم ؛ لأننا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالتنا .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

«إذا» في موضع نصب على الظرف والعامل فيها قالوا ؛ وهي تؤذن بوقوع الفعل المتظر . قال الجوهري : إذا اسم يدل على زمان مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة ، تقول : أجيئك إذا أحمر البُسر وإذا قَدِمَ فلان . والذي يدل على أنها اسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقْدَمُ فلان ؛ فهي ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء وإذا ؛ فالفعل قولك : إن تأتني آتاك . والفاء إن تأتني فأنا أحسن إليك . وإذا كقوله تعالى «وإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» . ومما جاء من المجازاة بإذا في الشعر قول قيس بن الخطيم :

(١) إِذَا قَصُرْتُ أَسِيفَاتُنَا كَانَ وَصْلُهَا * خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنَضَارِبُ

فعطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم ، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضارب بالنصب . وقد تزايد على «إذا» «ما» تأكيداً ، فيجزم بها أيضاً ؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو ليلى إليه ابنُ ظالم * وكان إذا ما سَلَّلَ السيفَ يضربُ

قال سيبويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

(٢) وَإِذَا مَا تَشَاءُ تَبْعْتُ مِنْهَا * مَغْرَبَ الشَّمْسِ نَاشِطًا مَدْعُورًا

يعنى أن الجيد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم في هذا البيت . وحكى عن المبرد أنها في قولك في المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ، لأنها تضمنت جُثَّةً ، وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ، وإنما تضمنت المصدر كما يقضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : «اليومَ تَمَرُّ وَغَدًا أَمْرٌ» فعناه وجود تَمَرٍّ ووقوع أمر

(١) يقول : إذا نصرت أسيفاتنا في اللقاء عن الوصول إلى الأفران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم .
(٢) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ، فشبهها في انبعاثها بسرعة بنشاط قد ذكر من صائد أوسيع والنشاط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ، فذلك أوحش له وأذعر . (عن شرح الشواهد للشننري) .

قوله : **(قِيلَ)** من القول وأصله قول ، نقلت كسرة الواو الى القاف فانقلبت الواو ياء ؛ ويجوز : قيل لهم ، بإدغام اللام في اللام . وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مد ولين . قال الأخفش : ويجوز قِيلَ بضم القاف والياء . وقال الكسائي : ويجوز إشتام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله ، وهي لفظة قيس ؛ وكذلك جرى وغيض وحيل وسبق وسئ وسيئت . وكذلك روى هشام عن ابن عباس ، ورؤيس ^(١) عن يعقوب ؛ وأشم منها نافع سئ وسيئت خاصة ؛ وزاد ابن ذكوان : حيل وسبق ؛ وكسر الباقون في الجميع . فأما هذيل وبنو ديار من أسد وبنو فقعس فيقولون : قول بواو ساكنة .

قوله : **(لَا تُفْسِدُوا)** لا ، نهي . والفساد ضدّ الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها . فسَدَ الشيء يَفْسُدُ فسادا وفسودا وهو فاسد وفيسد . والمعنى في الآية لا تفسدوا في الارض بالكفر وموالاته أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الارض قبل أن يُبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد ، ويُفعل فيها بالمعاصي ؛ فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلاح الأرض . فاذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ؛ كما قال في آية أخرى : **«وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»** .

قوله : **(فِي الْأَرْضِ)** الأرض مؤنثة وهي اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة ، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذي ليست فيه هاء التأنيث بآاء كقولهم : عُرسات . ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والنون ؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون متقوصا كثبّة وخبّة ، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها ، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أروض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرض وأراض ، كما قالوا : أهل وآهل . والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا ؛ وكل ما أسفل فهو أرض . وأرض أرضة [وأريضة] ، أى زكية بيّنة الأراضة ،

(١) في نسخة : «ابن عامر» . (٢) رؤيس (كزير) محمد بن الحوكل القاري ، رأى يعقوب بن إسحاق .

وقد أَرْضَتْ بالضم أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضاً أَرْضِضْهُ أى معجبة للعين ؛ ويقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أُم لك . والأرض أسفل قوائم الدابة ؛ قال حميد يصف فرساً : ولم يُقَلِّبْ أَرْضَهَا الْبَيْطَارُ * ولا لَحَبَلَيْهِ بِهَا حَبَارُ

أى أثر . والأرض : النفضة والرعدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن الحارث قال : زلزلت الأرض بالبصرة ، فقال ابن عباس : والله ما أدرى ! أزلزلت الأرض أم بى أرض . أى أم بى رعدة ؛ وقال ذو الرمة يصف صائداً :

إِذَا تَوَجَّسَ رِيكُومًا مِنْ سَنَابِكِهَا * أَوْ كَانَ صَاحِبَ أَرْضٍ أَوْ بِهِ الْمَوْمُ^(١)

والأرض : الزكام ؛ وقد أرضه الله إرضاءً أى أزكمه فهو مأروض . وقيل مستأرض ، وودية مستأرضة بكسر الراء ، وهو أن يكون له عِرق فى الأرض ؛ فاما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض ، أى متواضع خلىق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم . وشئ عريض أريض اتباع له ؛ وبعضهم يفردونه ويقول : جَدَّى أريض أى سمين .

قوله : « نَحْنُ » أصل نحن نحن ، قلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضممة من جنس الواو ؛ فلما اضطروا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : ولهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : نحن مثل قبل وبعد لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر ، فانا للواحد ، ونحن للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن فمنا ؛ قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ » . والمؤنث فى هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر ؛ تقول المرأة : قت وزهبت ، وقنا وزهبنا ، وأنا فعلت ذلك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فاعلم .

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنايكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخيل ، وقيل : الموم الجدرى الكثير المقراب . ومعناه أن الصياد يذهب نفسه إلى السماء ويفغر إليها أبداً لتلاييجد الوحش نفسه فيفتر . وشبه بالمبرم أو المزكوم لأن البرسام مفتر والزكام مفتر . عن اللسان .

قوله تعالى ﴿مُصْلِحُونَ﴾ اسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد ، وصُلِّحَ الشيء بضم اللام وفتحها لغتان ؛ قاله ابن السكيت . والصُّلُوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام ؛ قال الشاعر :

فكيف بإطراقى إذا ما شمتنى * وما بعد شتم الوالدين صُلُوحُ

وَصَلَّاح من أسماء مكة . والصِّلح بكسر الصاد : نهر .

ولمّا قالوا ذلك على ظنهم ، لأن إفسادهم عندهم إصلاح ، أى إن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله آبن عباس وغيره .

قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢)

قوله عز وجل : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ردّا عليهم وتكذيباً لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : «ألا إنهم هم المفسدون» وهذا صحيح . وكسرت «إن» لأنها مبتدأ ، قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا . وهم ، يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إيت . ويجوز أن تكون هم توكيدا للهاء والميم في إنهم . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — والمفسدون خبر إيت ، والتقدير ألا إنهم المفسدون ، كما تقدم في قوله : «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال آبن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ، قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبين الحق واتباعه . «ولكن» حرف تأكيد واستدراك ،

(١) في العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعدها كانتا بمعنى حقا أنك ... وإذا كسرت كانتا أداتى استفتاح . راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٦٢ طبع بولاق .

ولا بد فيه من نفى وإثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، وإن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الاختصار بعده على اسم واحد إذا تقدم الإيجاب ، ولكك تذكر جملة مضادة لما قبلها كما في هذه الآية ، وقولك : جاءني زيد لكن عمرو لم يحن ؛ ولا يجوز جاءني زيد لكن عمرو ثم تسكت ، لأنهم قد استغنوا ببل في مثل هذا الموضع عن لكن ، وإنما يجوز ذلك إذا تقدم النفي كقولك : ما جاءني زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) يعنى المنافقين في قول مقاتل وغيره . (ءَامِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) أى صدقوا بحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب . وألف آمنوا ألف قطع لأنك تقول : يؤمن ، والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف ، أى إيماننا كإيمان الناس .

قوله تعالى : (قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عباس ؛ وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك ، وقرر أن السفه ورقة الحُلوم وفساد البصائر إنما هى في حيزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للذين الذين على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود ، أى وإذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن الناس : عبد الله بن سلام وأصحابه ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السفه في كلام العرب : الخفة والركة ، يقال : ثوب سفيف إذا كان رديئ النسج خفيفه ، أو كان باليا رقيقا . وتسففت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرمة :

(١) مَشِينٌ كَمَا أَهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهُتُ * أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِيمِ

(١) وصف نساء فيقول : إذا مشين اهتززن في مشين وتنين فكانن رماح نصبت فرت عليها الرياح فاهتزت وتنت . والنواسم : الضعيفة الهبوب .

وتسفهت الشيء : استحققرته . والسفه : ضد الحلم . ويقال : إن السفه أن يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز في همزتي السفهاء أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهي قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبي عمرو . وإن شئت خففتها جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية . وإن شئت حققتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل ولكن لا يشعرون ؛ وقد تقدم ، والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : علمت الشيء أعلمه علما عرفته ، وعلمت الرجل فعلمته أعلمه بالضم في المستقبل غلبته بالعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين . أصل لقوا : لقيوا نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السميع اليماني : لاقوا الذين آمنوا . والأصل لاقوا تحركت الياء وقبلها فتحة اقلبت ألفا ، اجتمع سا كان الألف والواو وحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم . وإن قيل : لم ضمت الواو في لاقوا في الإدراج وحذفت من لقوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التي في لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحركت في لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل : لم وصلت خلوا بواو وعرفها أن توصل بالياء ؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ، ومنه قول الفرزدق :

كَيْفَ تَرَانِي قَالِبًا يَجْنَى * [أَضْرِبُ أَمْرِي ظَهْرَهُ لِبَطْنٍ]

* قد قتل الله زياداً عني *

(١) أى مع كلمة ألا التي بعدها .
(٢) الزيادة عن آب القناص . وزياد ، هو زياد بن أبيه .
والجنى : القرس .

لما أنزله منزله صرف ؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع ، وفيه ضعف . وقال قوم : إلى بمعنى الباء ، وهذا يا أباة الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ، فإلى على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير ، وقد تقدم القول في اشتقاقه ومعناه في الاستعاذة .

واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا ، فقال ابن عباس والسدي : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذي معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر . والله أعلم . قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) أى مكذبون بما تدعى إليه ، وقيل : سائحون . والهزاء : السخرية واللعب ؛ يقال : هزئ به واستهزأ ؛ قال الرازي :

قد هزئت منى أم طيسله * قالت أراه معيدا لا مال له

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام ؛ كما قال الآخر :

قد استهزوا منهم بالقى مديج * سرأتهم وسط الصّاحح جنم^(٢)

قوله تعالى : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أن ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ؛ فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا في كلامهم ؛ من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهل أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وحزاء ذكره بمثل لفظه وإن كان مخالفا له في معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة . وقال

(١) هو صخر القى الخليل . والبيت كما ذكره القاتل في أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية .

تهزأ مني أخت آل طيسله * قالت أراه مبطلا لا شيء له

(٢) الصّاحح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شيء . ولا شجر ولا قرار للنساء . والجاهنم : اللازم مكانه لا يرج .

الله عز وجل : « رَجَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا » . وقال : « قَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلُ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ، ومثله : « وَمَكْرُؤًا مَكَرَ اللَّهِ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » . الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ « وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ، وكذلك « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخِرَّ اللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا ولا يَسَامُ حتى تَسَامُوا " قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا ، وقيل : المعنى وأتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هى فى تأمل البشر هُزءٌ وَخَدَعٌ وَمَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجعد كما تجعد الإهالة ^(١) فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا » هم منافقوا أهل الكتاب ، فذكر استهزاءهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤسائهم فى الكفر — على ما تقدم — قالوا : إنا معكم على دينكم « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . « الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبَحُونَ فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الجبال ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ، فذلك قول الله عز وجل : « الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين عُلِّقَتْ دُونَهُمُ الأبواب ، فذلك قوله تعالى : « قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى أهل النار « هَلْ تُؤَبُّ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بדרور النعم الدنيوية عليهم ، فأنه سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يغييب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

(١) الإهالة : ما أذيب من الآية والشحم . وقيل : الدم الجائد .

قد حتم عذابهم . فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ؛ ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الله عز وجل يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج " . ثم نزع بهذه الآية : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال بعض العلماء في قوله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : (وَيَمُدُّهُمْ) أى يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملى لهم ؛ كما قال : « إِنَّمَا تُمَلَّى لَهُمْ لِيزِدُوا إِثْمًا » وأصله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مد لهم في الشر ، وأمد في الخير ؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفراء والحلياني : مددت ، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مد النهر [النهر^(١)] ، وفي التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » . وأمددت ، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجبش بمدد ، ومنه : « يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وأمد الجرح لأن المدة من غيره ، أى صارت فيه مدة .

قوله تعالى : (فِي طُغْيَانِهِمْ) كفرهم وضلالهم . وأصل الطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » أى ارتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزان . وقوله في فرعون : « إِنَّهُ طَغَى » أى أسرف في الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى في الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا في الطغيان فيزيدهم في عذابهم .

قوله تعالى : (يَعْصُونَ) يعصون . وقال مجاهد : أى يترددون متحيرين في الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِيَ الرجل يَعْمَى عُمُوها وَعَمَّها فهو عَمِي وعَامِي إذا حار ، ويقال رجل عَامِي وعَمِي : حائر متردد ، وجمعه عُمَمٌ . وذهبت إبله العُمَى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمَى

(١) الزيادة عن اللسان مادة (مد) .

في العين ، والعَمَّة في القلب ؛ وفي التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ قال سيبويه : ضُمَّت الواو في « اشتروا » فرقا بينها وبين الواو الأصلية ، نحو : « وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ » . وقال ابن كيسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كما فعل في نحن . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قَعْنَبِ أَبِي السَّمَّالِ العدوي أنه قرأ بفتح الواو خلفه الفتحة وأنَّ كَانَ ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائي همز الواو وضحا كأدور . واشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال : « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » فبرعنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء . قال أبو ذؤيب :

فَإِنْ تَزْعُمِينِي كُنْتُ أَجْهَلُ فَيْكُمْ * فَإِنِّي شَرِيتُ الْحِلْمَ بِعَدِي بِالْجَهْلِ ^(١)

(١) قال صاحب تهذيب التهذيب : « في التقريب ، بفتح التحتية والميم وبينهما مهملتا ما كنة . وفي المعنى ، بفتح الميم وضحا » . (٢) في بعض الأصول : « وَأَنْ مَا قَبْلُهَا مَفْتُوحَا » ، وفي بعض الآخر : « وَأَنْ كَانَ قَبْلُهَا مَفْتُوحَا » . والظاهر أنه يريد : خلفه الفتحة وسكون ما قبلها مفتوحا . وهذا المعنى لا يتأق إلا بما اثبتناه من مجموع النسخ . (٣) وروى : « اشتريت » كما في ديوان أبي ذؤيب . يقول : ان كنت تزعين أني كنت أجهل في هواي لكم وصبوت إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

وأصل الضلالة : الحيرة ؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جل وعز :
« فَعَلَّمَهَا إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْضَّالِّينَ » أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عز وجل :
« وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ قَا رَجَحْتُ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب
في قولهم : رَجَحَ بَيْعُكَ ، وخسرت صفقتك ؛ وقولهم : ليل قائم ، ونهار صائم ؛ والمعنى رَجَحْتُ
وَحَسِرْتُ في بَيْعِكَ ، وفقت في ليلك وصمت في نهارك ؛ أى فما ربحوا في تجارتهم . وقال الشاعر :
نَهَارُكَ هَائِمٌ وَلَيْلُكَ نَائِمٌ * كذلك في الدنيا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ
أَبْنُ كَيْسَانَ : ويجوز تجارة وتجار، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ في اشتراطهم الضلالة . وقيل : في سابق علم الله .
والاهتداء ضد الضلال ، وقد تقدّم ^(١) .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر في الكاف ،
فهى اسم ، كما هى في قول الأعشى :

أَتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذِي شَطِيطٍ * كَالطَّمَنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْقَتْلُ ^(٢)

وقول امرئ القيس :

وَرُحْنًا يَكَابُنِ الْمَاءِ يُجَنَّبُ وَسَطَنَا * تَصَوَّبُ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي ^(٣)

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء . (٢) المعنى : لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ، أى نافذ

إلى الجوف ، يفتب فيه الزيت والقتل . (من خزنة الأدب) . (٣) يقول : رجنا بفرس كأنه ابن ماء

(طير ماء) خفة وحسن وطول حق . وهو يجنب ، أى يقاد فلا يركب .

أراد مثل الطعن، وبمثل آبن الماء . ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً تقديره مثلهم مستقر كمثل، فالكاف على هذا حرف . والمثل والمثل والمثل واحد ومعناه الشبه ، والمثالثان : المتشابهان ؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله : ((الَّذِي)) يقع للواحد والجمع ؛ قال ابن السَّجَرِي هبَّةُ الله بن عليّ : ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذي حانت بفتح دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد^(١)

وقيل في قول الله تعالى : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي » قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال : « ذَهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ » ؛ فحمل أول الكلام على الواحد، وآخره على الجمع . فأما قوله تعالى : « وَخُضِّمُوا كَالَّذِي خَاضُوا » فإن الذي هاهنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذي خاضوا . وقيل : إنما وحّد الذي واستوقد لأن المستوقد كان واحداً من جماعة تولى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعاً فقال بنورهم . واستوقد بمعنى أوقد ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر^(٢) :

وداع دعا يامن يُجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذاك مُجيبٌ

أى يجبه . واختلف النحاة في جواب لمّا ، وفي عود الضمير من نورهم ؛ ف قيل : جواب لمّا محذوف وهو طَفِئَتْ ، والضمير في نورهم على هذا للناققين ، والإخبار بهذا عن حال تكون في الآخرة ؛ كما قال تعالى : « فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورِهِ لَهُ بَابٌ » ، وقيل : جوابه ذهب ، والضمير في نورهم عائِد على الذي ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده . والمعنى المراد بالآية ضَرْبٌ مَثَلٍ للمنافقين ،

(١) طبع (فتح أوله وسكون ثانيه) : موضع بين البصرة وضربة . وقيل : هو واد بطريق البصرة إلى مكة ،

بطنه منازل الحاج . فأنه الأصب بن ربيعة يرى قوماً قتلوا في هذا الموضع . (عن اللسان) . (٢) هو كعب

ابن سعد الفتوى يرى أخاه أبا المغوار . (عن اللسان) .

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان الذي تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناح والتسوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد ناراً في ليلة مظلمة فاستضاء بها ورأى ما ينبغي أن يتقيه وأمن منه؛ فإذا طفت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقى متحيراً؛ فكذلك المنافقون لما آمنوا اغتروا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — ويذهب نورهم؛ ولهذا يقولون : « أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ » . وقيل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وانصرفهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهاها . وقيل غير هذا . قوله : (نَارًا) النار مؤنثة وهي من النور وهو أيضاً الإشراق . وهي من الواو لأنك تقول في التصغير : نورية، وفي الجمع نُورٌ وَأَنْوَرٌ وَنِيرَانٌ، انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاعت وأضاءت لغتان؛ يقال : ضاء القمر يَضُو ضَوْءًا، وأضاء يَضِيء . ويكون لازماً ومتعدياً . وقرأ محمد بن السَّمِيع : ضاءت بغير ألف، والعامية بالألف؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دُجِيَ الليل حتى نَظَّمَ الْجَزَعُ^(١) ثاقبه

(مَا حَوْلَهُ) ما زائدة مؤكدة . وقيل : مفعولة بأضاءت . وحوله ظرف مكان، والهاء في موضع خفض بإضافته إليها . و (ذَهَبَ) وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء . (وَتَرَكَهُمْ) أى أبقاهم . (فِي ظُلُمَاتٍ) جمع ظلمة . وقرأ الأعمش : ظُلُمَاتٍ بِإِسْكَانِ اللام على الأصل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلي : ظُلُمَاتٍ بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائي : ظلمات جمع الجمع، جمع ظلم . (لَا يُبْصِرُونَ) فعل مستقبل في موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على ظلمات .

قوله تعالى : صُمُّ بُكْرٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

(١) الجزع (يفتح الجيم وكسرهما) : ضرب من الخرز . وقيل : هو الخرز اليابس، وهو الذي فيه بياض وسواد،

فتنه به الأمن .

قوله تعالى : (صُمُّ بَكْمٌ عُمَى) صمٌ أى هم صم ، فهو خبر ابتداء مضمرة . وفي قراءة عبد الله ابن مسعود وحفصة : صُمَّا بَكْمًا عُمِيًّا ، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونَيْنِ أَيْتَمَا تُقِفُوا » ، وكما قال : « وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ » ، وكما قال الشاعر :
سَقَوْنِي الْخَمْرَ ثُمَّ تَكْنُفُونِي * عُدَاةَ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ

فنصب عُدَاةَ اللَّهِ على الذم . فالوقف على يبصرون على هذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمَّا بتركهم ؛ كأنه قال : وتركهم صمًا بكمًا عميًّا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على يبصرون . والصم في كلام العرب : الانسداد ؛ يقال : قناة صمَاء إذا لم تكن مجوفة . وصممت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال رجل أبكم ويكيم أى أخرس بين الأخرس واليكم ؛ قال :

فليت لِسَانِي كَانِ نِصْفَيْنِ مِنْهُمَا * بَيْكِمُ وَنِصْفٌ عِنْدَ مَجْرَى الْكَوَاكِبِ

والعمى : ذهاب البصر . وقد عمى فهو أعمى ، وقوم عُمَى ، وأعماه الله . وتعمى الرجل أرى ذلك من نفسه . وعمى عليه الأمر إذا التبس ؛ ومنه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ » .

وليس الغرض مما ذكرناه فى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة ما ؛ تقول : فلان أصم عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :
* أَصَمُّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعُ *
وقال آخر :

وَعَوْرَاءُ الْكَلَامِ صَمَّتْ عَنْهَا * وَلَوْ أَتَى أَشَاءَ بِهَا سَمِيعُ
وقال الدارمي :

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يُوَارِي جَارَتِي الْجُدْرُ

(١) هو عمرو بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم أمرأته حين احتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم الى مفاداتها وكانت سبية عنده . (عن شرح الشواهد) .

وقال بعضهم في وصاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أَدْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى * وَأَخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَعْرَسَ

وقال قتادة : صَمٌّ عَنْ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ ، بَكَمٍ عَنْ التَّكَلُّمِ بِهِ ، عَمَى عَنْ الْإِبْصَارِ لَهُ .

قلت : وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي صلى الله عليه وسلم وَلَاةَ آخِرِ الزَّمَانِ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ "وَإِذَا رَأَيْتَ الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الثَّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا" . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال : رَجَعَ بنفسه رجوعاً ، وَرَجَعَهُ غَيْرُهُ ؛ وَهَذَا يَقُولُ : أَرْجَعَهُ غَيْرُهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم ، حسب ما بينه التنزيل في سورة « سبأ » .

قوله تعالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَفْئَادِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾
قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الطبري : أو بمعنى الواو ؛ وقاله الفراء .
وَأَنشُد :

(١) وَقَدْ زَعَمْتُ لَيْلَى بَأَنِّي فَاجِرٌ * لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا جُورُهَا

وقال آخر : (٢)

نَالَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا * كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ (٣)

أى وكانت . وقيل : أو للتخيير أى مثلهم بهذا أو بهذا ، لا على الاقتصار على أحد الأمرين .
والمعنى أَوْ كَأَصْحَابِ صَيْبٍ . وَالصَّيْبُ : الْمَطَرُ . وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ صَابَ يَصُوبُ إِذَا نَزَلَ ؛
قَالَ عَلْقَمَةُ :

(٤) فَلَا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمِّرٍ * سَقَتِكَ رَوَايَا الْمَزْنِ حَيْثُ تَصُوبُ

(١) البيت من قصيدة لثوبة الحفاجي قالها في ليل الأخييلة . (٢) هو جرير بن عطية بمدح عمر بن

عبد العزيز . (٣) في ديوانه المخطوط : « إذ » بدل أو . (٤) الْمُغَمِّرُ وَالْقَمَرُ : الْجَاهِلُ الَّذِي لَمْ

يجرب الأمور ؛ كَانَ الْجَاهِلُ غَمْرُهُ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ . وَرَوَايَا الْمَزْنِ : إِذَا حَمَلَ الْمَاءَ مِنْهُ . وَالرَّوَايَةُ : الْبَعِيرُ يَسْتَقِي عَلَيْهِ .

وأصله : صَيَّوبٌ ، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا في مَبَّتْ وسَيَّدَ وهَيَّنَ ولَيَّنَ . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوَّيبٌ على مثال فَعِيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طَوِيل .^(١) »
وجمع صيب صيايب . والتقدير في العربية مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً أو كمثل صَيَّبَ^(٢) .
قوله تعالى : ﴿ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكر وتؤنث ، وتجمع على اسمية وسماوات وسمُيَ على فُعُول ؛ قال المعجّاج :

* تَلَفَّه الزِّيَاحُ وَالسُّيُ^(٣) *

والسما : كل ما علاك فأظلك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر سمي به لنزوله من السماء ؛ قال حسان بن ثابت :
ديارٌ من بني الحسحاسٍ قَفَرٌ * تَغْفِيها الزَّوامِسُ والسَّما^(٤)
وقال آخر^(٥) :

إذا سَقَطَ السَّما بَأَرْضِ قَوْمٍ * رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَاباً

ويسمى الطين والكلأ أيضاً سماء ؛ يقال : ما زِلْنَا نَطَأُ السَّما حَتَّى أَتَيْنَاكُمْ . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء لعلوه ؛ قال :

وأَحْمَرُ كَالْتَّيَاجِ إِتْمَا سَمَائِهِ * قَرِيّاً وَأَتَمّاً أَرْضُهُ فُحُولٌ

والسما : ما علا ، والأرض : ما سفل ، على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَوَعْدٌ وَبَرَقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظلمة الليل وظلمة الدُّجْنِ ، وهو الغيم . ومن حيث تراكب وتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ما تقدّم إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل : « ... ناراً أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمي =

يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوي ، كما في اللسان مادة (سما) .

(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

واختلف العلماء في الرعد؛ ففى الترمذى عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : "ملك من الملائكة^(١) [موكل بالسحاب] معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله". فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : "زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى الى حيث أمر الله" قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : اسم الصوت المسموع ، وقاله على رضى الله عنه ، وهو المعلوم فى لغة العرب ؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

لَحَمَى الرَعْدُ والصَّوَاعِقُ بال * فَارِيسَ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجْدِ

وروى عن ابن عباس أنه قال : الرعد ريح تخرج بين السحاب فتصوت ذلك الصوت . واختلفوا فى البرق ؛ فروى عن على وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخرق حديد بيد الملك يسوق به السحاب — قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى — وعن ابن عباس أيضا هو سوط من نور بيد الملك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق ملك يترأى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب . والبرق ما يتقدح من اصطكاكها . وهذا مردود لا يصح به نقل ، والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة ؛ ومنه الرعديد للخبان . وارتعد : اضطرب ؛ ومنه الحديث : "يُخَيَّءَ بهما تُرْعَدُ قَوَائِصُهُمَا" الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصله من البريق والضوء ؛ ومنه البراق : دابة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورعدت السماء من الرعد ، وبرقت من البرق . ورعدت المرأة وبرقت : تحسنت وتزينت . ورعد الرجل وبرق تهتد وأوعد ؛ قال ابن أحر :

يَا جُلٍّ مَا بَعْدَتْ عَلَيْكَ يَلَاذُنَا * وَطِلَابُنَا فَأَبْرُقْ بِأَرْضِكَ وَأَرْعُدْ

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدد وأوعد ؛ وأنكره الأصمعي . واحتج عليه بقول الكعب :
أبرق وأرعد يا يزيد * مدُّنا وعيدُكَ لي يضائرُ
فقال : ليس الكعب بحجة .

فائدة — روى ابن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب في سفرة بين المدينة والشام ومعنا كعب الأحبار، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد، وفريق الناس . قال فقال لي كعب : إنه من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يُسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، عُوفي مما يكون في ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأننا كنا في غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذلك ؟ قال : لحدثته حديث كعب . قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! في رواية فإذا بردة ^(١) قد أصابت أنف عمر فأثرت به . وستأتي هذه الرواية في سورة « الرعد » إن شاء الله . ذكر الروائين أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

قوله تعالى : (يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ) جعلهم أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام ؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفي واحد الأصابع خمس لغات : إصبع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأصبع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ، وهي مؤنثة ، وكذلك الأذن وتخفف وتنقل وتصغرا ؛ فيقال : أذينة . ولو سُميت بها رجلا ثم صغرت قلت : أذينة ؛ فلم تؤث لزوال التانيث عنه بالنقل إلى المذكر ، فأما قولهم : أذينة في الاسم العلم فإنما سُمي به مصغرا ، والجمع آذان . وتقول : أذنته إذا ضربت أذنه . ورجل أذن إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

والجمع . وأذاني : عظيم الأذنين ؛ ونعجة أذناء ، وكبش آذن ؛ وأذنت النعل وغيرها تأذينا إذا جعلت لها أذنا ، وأذنت الصبي . عرّكت أذنه .

قوله تعالى : (مِنَ الصَّوَاعِقِ) أى من أجل الصواعق . والصواعق جمع صاعقة . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك طار النار من فيه وهى الصواعق . وكذا قال الخليل ، قال : هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما ألت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رمد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة بالسين . وقال أبو بكر النقاش : يقال صاعقة وصعقة وصاعقة بمعنى واحد ؛ وقرأ الحسن : من الصّواعق تتقديم القاف ؛ ومنه قول أبى النّجم :

يَحْكُونُ بِالْمَصْعُوقَةِ الْقَوَاطِعِ * تَشَقُّقُ الْبَرْقِ عَنِ الصَّوَاعِقِ

قال النحاس : وهى لغة تميم وبعض بنى ربيعة . ويقال : صعقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ » . ويقال : صعق الرجل صعقة وتصاعقا أى غشى عليه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَنَرُّ مُوسَى صَعِقًا » فأصعقه غيره ؛ قال ابن مقبل :

تَرَى الثُّعْرَاتِ الزُّرْقَ تَحْتَ أَبَانِهِ * أَحَادَ وَمَتْنَى أَصْعَقَتْهَا صَوَاهِلُهُ^(١)

وقوله تعالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى مات . وشبهه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيْبِ من الظلمات والرعد والبرق والصواعق . فالظلمات مثّل لما يعتقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مثّل لما يخوفون به . وقيل : مثّل الله تعالى القرآن بالصَّيْبِ لما فيه من الإشكال عليهم والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الوعد ؛ وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تبهرهم هو البرق . والصواعق

(١) الثعرة (مثال الهزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إمرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة .

واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويكون للإنسان وفيره . وأصعقتها صواهلها . أى

قتلها صبيلا .

مثل لما في القرآن من الدعاء إلى القتال في العاجل والوعيد في الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : (حَذَرَ الْمَوْتِ) حَذَرَ وَحَذَارَ بِمَعْنَى ؛ وَفَرَى بِهِمَا . قال سيبويه : هو منصوب لأنه مفعول له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :
وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ أَذْخَارَهُ * وَأَعْرِضُ عَنْ شَمِّ اللَّثِيمِ تَكْرُمًا^(١)

وقال الفراء : هو منصوب على التمييز . والموت : ضد الحياة . وقد مات يموت ، ومات أيضاً ؛ قال الرازي :

بُنَيَّتِي سَيِّدَةَ الْبَنَاتِ * عِيشِي وَلَا يُؤْمَنُ أَنْ تَمَاتِي

فهو ميت وميت ، وقوم موتى وأموات وميتون وميتون . والموات بالضم : الموت . والموات بالفتح : ما لا روح فيه . والموات أيضاً : الأرض التي لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد . والموتان بالتحريك خلاف الحيوان ؛ يقال : اشترى الموتان ، ولا تشتري الحيوان ؛ أى اشترى الأرضين والدور ، ولا تشتري الرقيق والدواب . والموتان بالضم : موت يقع في الماشية ؛ يقال : وقع في المال موتان . وأمانته الله وموته شدد للبالغة ؛ وقال :

فَعَرُوءُ مَاتَ مَوْتًا مُسْتَرِيحًا * فَهَذَا أَمَوْتُ كُلِّ يَوْمٍ

وأمانت الناقة إذا مات ولدها ، فهي مُمَيَّتٌ ومُيْتَةٌ . قال أبو عبيد : وكذلك المرأة ، وجمعها مَمَاوِيت . قال ابن السكيت : أمانت فلان إذا مات له ابن أو بنتون . والمَمَاوِيت من صفة الناسك المرائي . وموت مائت ، كقولك : لَيْلٌ لائِلٌ ؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكد به . والمُسْتَمِيتُ للأمر : المُسْتَرَسَلُ له ؛ قال رؤبة :

(١) البيت لحاتم الطائي . يقول : إذا جهل على الكريم احتملت جهله إبقاء عليه وأدخار له ، وإن سبى اللثيم أعرضت عن شتمه .

وَزَبَدُ الْبَحْرِ لَهُ كَتَبْتُ * وَاللَّيْلُ فَوْقَ الْمَاءِ مُسْتَمِيتٌ^(١)

والمستमित أيضا : المستقيل الذي لا يسأل في الحرب من الموت ؛ وفي الحديث :
"أرى القوم مُسْتَمِيتِينَ" وهم الذين يقاتلون على الموت . والمؤتة بالضم : جنس من الجنون
والصرع يعتري الإنسان ؛ فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله كالنائم والسكران . ومؤتة بضم الميم وهمز
الواو : اسم أرض قُتل بها جعفر بن أبي طالب عليه السلام .^(٢)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ابتداء وخبر ، أى لا يفوتونه . يقال أحاط
السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة ؛ قال الشاعر :

أَحَطْنَا بِهِمْ حَتَّى إِذَا مَا تَيَقَّنُوا * بِمَا قَدْ رَأَوْا مَالُوا بِجَمِيعَا إِلَى السَّلَامِ

ومنه قوله تعالى : « وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ » . وأصله مُحِيطٌ ، نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت .
فإن الله سبحانه محيط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَالْأَرْضُ
بَجَمِيعَا قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقيل : محيط بالكافرين ، أى عالم بهم . دليله : « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » . وقيل مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ »
أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ
وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية

رقم ١٦ هـ أدب :

وزبد البحر له كتب * تراه والحوت له كتب

كلاهما مفتوح مفتوح * وكل كل الماء له ميت

والليل فوق الماء مستميت * يدفع عنه جوفه المسحوت

الكتب : المدير . والثيت والزحير والطهير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأمر أو شدة) .
المفتوت : المفهوم . والمسحوت : الذى لا يشع . (٢) وقيل لأنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام .
وقيل : لأنها بمشارف الشام على اثني عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة : « مات » .

قوله تعالى : (يَكَادُ الْبَرَقُ يُخَطِّفُ أَبْصَارَهُمْ) يكاد معناه يقارب ، يقال : كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز في غير القرآن يكاد أن يفعل ؛ كما قال رؤبة :
 * قد كَادَ من طُولِ الْبَلَى أَنْ يَمْتَصِحَا ^(١) *

مشتق من المَصْح وهو الدرس . والأجود أن تكون بغير «أن» لأنها لمقاربة الحال ، و«أن» تصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف ؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير ، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحال . وكاد فعل متصرف على فِعْلٍ يَقَعْل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : «وما كِدْتُ آثِبًا» . ويجرى مجرى كاد كَرَب وجعل وقارب وطَفِق ، في كون خبرها بغير أن ؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة ؛ والحال لا يكون معها أن ، فاعلم .

قوله تعالى : (يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ) الخطف : الأخذ بسرعة ؛ ومنه سُمِّي الطير خُطَافًا لسرعته . فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما يتزل بهم يكاد يذهب أبصارهم . ومن جملة مثلا للبيان الذي في القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . وَيَخْطِفُ وَيَخْطِفُ لغتان قرئ بهما . وقد خطفه بالكسر يَخْطِفُهُ خَطْفًا ، وهي اللغة الجيدة . واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَفَ يَخْطِفُ ؛ الجوهرى : وهي قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرَقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ » . وقال النحاس : في يخطف سبعة أوجه ؛ القراءة الفصيحة : يَخْطِفُ ؛ وقرأ علي بن الحسين ويحيى بن وثاب : يَخْطِفُ بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هي لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي بفتح الياء وكسر الخاء والطاء . وروى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائي والأخفش والفراء : يجوز يَخْطِفُ بكسر الياء والحاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة لخط .

والسابعة حكاها عبد الوارث قال : رأيت في مصحف أبي بن كعب يتخطف ، وزعم سيبويه والكسائي أن من قرأ يَخِطُّف بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يَخْتِطِف ، ثم أدغم التاء في الطاء فالتقى ما كان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخاء ألقي حركة التاء عليها . وقال الكسائي : ومن كسر الياء فلا ن الألف في اختطف مكسورة . فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز ، لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبي رجاء يَخِطُّف . قال ابن مجاهد : وأظنه غلط ؛ واستدل على ذلك بأن « خَطَفَ الْخَطْفَةَ » لم يقرأه أحد بالفتح .

(أَبْصَارُهُمْ) جمع بصر ، وهي حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تبهرهم . ومن جعل البرق مثالا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم . قوله تعالى : (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) كلما منصوب لأنه ظرف . وإذا كان كلما بمعنى إذا فهي موصولة والعامل فيه مَشَوْا وهو جوابه . ولا يعمل فيه أضاء لأنه في صلة ما . والمفعول في قول المبرد محذوف ، التقدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريق . وقيل : يجوز أن يكون فعل وأفعل بمعنى ، كسكت وأسكت ؛ فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقدم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أنسوا ومشوا معه ، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه قاموا ، أي ثبتوا على نفاقهم ، عن ابن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواسيهم وتوالت عليهم النعم قالوا : دين محمد مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابهم شدة سخطوا وثبتوا في نفاقهم ، عن ابن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهذا قول حسن ، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » . وقال علماء الصوفية : هذا مثل ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءاً ، فارتقى من تلك الأحوال بالدواوى إلى أحوال الأكابر ، كان تضيء عليه أحوال

الإرادة لو صححها بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى في ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها . وروى عن ابن عباس أن المراد اليهود، لما نُصِرَ النبي صلى الله عليه وسلم ببدر طمعوا وقالوا : هذا والله النبي الذي بشرنا به موسى لا ترذله راية، فلما نكب بأحد ارتدوا وشكوا؛ وهذا ضعيف . والآية في المنافقين، وهذا أصح عن ابن عباس؛ والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ لو حرف تمن وفيه معنى الجزاء؛ وجوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب عنهم عز الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم . وخص السمع والبصر لتقدم ذكرهما في الآية أولاً، أولاً، لأنهما أشرف ما في الإنسان . وقرئ بأسماعهم على الجمع؛ وقد تقدم الكلام في هذا^(١).
قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه . وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قدیر قادر مقتدر . والقدیر أبلغ في الوصف من القادر؛ قاله الزجاجي . وقال الهروي : والقدیر والقادر بمعنى واحد؛ يقال : قَدَرْتُ على الشيء أَقْدِرُ قَدْرًا وَقَدَرًا وَمَقْدِرَةٌ وَمَقْدَرَةٌ وَقُدْرَانًا، أى قُدْرَةٌ . والاقْتِدَارُ على الشيء : القدرة عليه . فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدیر على كل ممكن يقبل الوجود والعدم . فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فعل ويفعل ما يشاء على وفق علمه واختياره . ويجب عليه أيضاً أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبد بقدرة . وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذکر دون غيرها؛ لأنه تقدم ذكر فعل مضمّن الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك . والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيتها في المنافقين . وقد تقدمت الرواية فيها عن ابن جريح، وقاله مجاهد أيضاً .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴿٢١﴾

قوله سبحانه وتعالى : **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم)** قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فإنما نزلت بمكة ، وكل آية أولها « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهذا يرده أن هذه السورة والنساء مدينتان وفيهما أيها الناس . وأما قولها في « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عروة بن الزبير : ما كان من حد أو فريضة فإنه نزل بالمدينة ، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » في قوله : « يَا أَيُّهَا » حرف نداء . « أي » منادى مفرد مبني على الضم لأنه منادى في اللفظ ، و « ها » للتنبيه . الناس مرفوع صفة لأي عند جماعة النحويين ما عدا المازني فإنه أجاز النصب قياسا على جوازه في يا هذا الرجل . وقيل : ضمت أي كما ضم المقصود المفرد ، وجاء وا ب « ها » عوضا عن ياء أخرى ، وإنما لم يأتوا بياء لثلاثا ينقطع الكلام بفاء وا ب « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الاسم بينهما ؛ كما قالوا : هاهو ذا . وقيل : لما تعدر عليهم الجمع بين حرفي تعريف أتوا في الصورة بمنادى مجزئ عن حرف تعريف ، وأجروا عليه المعترف باللام المقصود بالنداء ، وآلتموا رفعه لأنه المقصود بالنداء ؛ بفعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى ، فأعلمه .

واختلف من المراد بالناس هنا على قولين ، أحدهما : الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ » . الثاني : أنه عام في جميع الناس ، فيكون خطابه للؤمنين باستدامة العبادة ، وللكافرين بابتدائها ، وهذا حسن .

قوله تعالى : **(اعْبُدُوا)** أمر بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل ؛ يقال : طريق مُعبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام .

قال طرفة :

* وَظِيْفًا وَظِيْفًا فَوْقَ مَوْرِ مَعْبِدٍ ^(١) *

والعبادة : الطاعة ، والتعبد : التَّنَسُّك ، وعَبَّدْتُ فلانا : اتخذته عبداً .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك حجة عليهم وتقرباً لهم . وقيل : ليدكرهم بذلك نعمته عليهم ، وفي أصل الخلق وجهان ؛ أحدهما : التقدير ؛ يقال : خَلَقْتُ الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع ؛ قال الشاعر ^(٢) :

وَلَأَنْتَ تَقْرِي مَا خَلَقْتَ بِهِ • خُسُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَقْرِي

وقال المجاج : مَا خَلَقْتُ إِلَّا فَرَيْتُ ، وَلَا وَعَدْتُ إِلَّا وَقَيْتُ . الثاني : الإنشاء والاختراع والإبداع ؛ قال الله تعالى : « وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً » .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم ؛ فالجواب : أنه إنما يجري الكلام على التشبيه والتذكير ليكون أبلغ في العظة ؛ فذكرهم من قبلهم ليعلموا أن الذي أمات من قبلهم وهو خلقهم يميتهم ؛ ويفكرون فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أية الأمور مضوا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يبتلون كما ابتلوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لعل متصلة بعبادوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذراه الله لجهنم لم يخلقه ليتقى . وهذا وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ « فيه ثلاث تأويلات :

(١) صدوالبيت :

* تبارى عنافاً نجيات وآتيت *

تبارى : تعارض ، يقال : هما يتباريان في السير ، إذا فعل هذا شيئاً فعل هذا مثله . والعناق : الكرام من الإبل البيض . والنائجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : آتيت وظيْفاً وظيْفاً ، أي آتيت هذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت . والمورد : الطريق . (عن شرح المعاني) . (٢) هو زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدرت أمراً قطعت وأمضيته ، مرغيك بقدر ما لا يقطعه لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمته عليه . (عن اللسان) .

الأول — أن لعل على بابها من الترجى والتوقع، والترجى والتوقع إنما هو في حيز البشر؛ فكانه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تستقوا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه في قوله عز وجل : « أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَنذَرُكَرَّوُيَخْشَىٰ » قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشى . واختار هذا القول أبو المعالي .

الثاني — أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كي . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتستقوا؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنا كُفُّوا الحروب لعلنا * نَكُفُّ وَنُثَقِّمَ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ
فلما كففنا الحرب كانت عهدكم * كلَّعِ سَرَابٍ فِي الْمَلَأِ مُتَالِقِ

المعنى كفوا الحروب لنكف، ولو كانت لعل هنا شكاً لم يوتقوا لهم كل موثق؛ وهذا القول عن قطرب والطبري .

الثالث — أن تكون لعل بمعنى التعرض للشيء؛ كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تستقوا . والمعنى في قوله : «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار . وهذا من قول العرب : اتقاه بحقه إذا استقبله به؛ فكانه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة؛ ومنه قول علي رضي الله عنه : كنا إذا أحمر البأس اتقينا بالنبي صلى الله عليه وسلم، أى جعلناه وقاية لنا من العدو؛ وقال عنترة :
ولقد كَرَرْتُ المَهْرَ يَدْمِي نَحْوَهُ * حَتَّى اتَّقَنِي الخَيْلُ بِأَبْنِي حَذِيمِ

قوله تعالى : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا) فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ ﴾ معناه هنا صير لتعديده الى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ » وقوله : « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » . ويأتى بمعنى سَمَّى ؛ ومنه قوله تعالى : « حَمَّ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » . « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا » أى سَمَوْهُمْ . ويأتى بمعنى أخذ كما قال الشاعر :
وقد جعلت نفسى تطيبُ لضغمة * اضغمتها ها يقرعُ العظم ناهيا
وقد تاتى زائدة ؛ كما قال الآخر :

وقد جعلت أرى الاثنين أربعة * والأربع اثنين لما هتني الكبيرُ

وقد قيل فى قوله تعالى : « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » إنها زائدة . وجعل واجتعل بمعنى واحد ؛ قال الشاعر :^(٢)

ناط أمر الضعاف واجتعل اللب * لم تكبل العادية المدود

﴿ فِرَاشًا ﴾ أى وطاء يفتروشونها ويستقرون عليها . وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها ؛ لأن الجبال كالأوتاد ؛ كما قال : « أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » . والبحار تركب إلى سائر منافعها ؛ كما قال : « وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » .

الثانية - قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث ؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عرفا . وأما المالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنها محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه العين ؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

(١) هو مقلس بن لقيط الأسدى . وصف شدة أصابه بها رجلان من قومه ، فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لاصابتهما بمثل الشدة التى أصابانى بها . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم ناهيا . فجعل لها ناهيا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيها الى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنمري) .

(٢) هو أبو زيد الصائى يرى الجلاج ابن أخيه . يقول : جعل يسير الليل كله مستغيا كاستقامة جبل البئر الى الماء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت ؛ ولهذا قال وقوله الحق : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا » . وكل ما علا فأطل قيل له سماء ؛ وقد تقدم القول فيه .^(١) والوقف على « بِنَاءً » أحسن منه على « سَقُون » ؛ لأن قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرب . ويقال : بنى فلان بيتا ، وبنى على أهله بناء فيها أى زفها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأن الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها ؛ ف قيل لكل داخل بأهله : بان ؛ وبنى مقصورا شدد للكثرة . وابتنى دارا وبنى بمعنى ؛ ومنه بئان الحائط ؛ وأصله وضع لبنة على أخرى حتى ثبت .

وأصل الماء موه ؛ قلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقلت ماء ؛ فالتقى حرفان خفيفان فأبدلت من الهاء همزة لأنها أجلد ، وهى بالالف أشبه ؛ فقلت : ماء ؛ الالف الأولى عين الفعل ، وبعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء ، وبعدها الهمزة ألف بدل من التنوين . قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بالعين عند البصريين ، وإن شئت بثلاث ؛ فاذا جمعوا أو صغروا ردوا إلى الأصل ؛ فقالوا : مويه وأمواه ومياه ؛ مثل جمال وأجمال .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ الثمرات جمع ثمرة . ويقال : ثمر مثل شجر . ويقال : ثمر مثل خشب . ويقال : ثمر مثل بدن . وثمار مثل إكلام جمع ثمرة . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « الأنعام » إن شاء الله . وثمار السياط : عُقْدُ أطرافها .

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات ، وأنواعا من النبات . ﴿ رِزْقًا ﴾ طعاما لكم ، وعلفا لدوابكم ؛ وقد بين هذا قوله تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِنَّمْ كُمْ » . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفى والحمد لله .^(٢)

فإن قيل : كيف أطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك ؟ قيل له : لأنها معدة لأن تملك ويصح بها الانتفاع ، فهي رزق .

الخامسة - قلت : ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ؛ ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى : ” والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطّب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه “ . أخرجه مسلم . ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نداءً . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل في هذه الآية سبيل الفقر ؛ وهو أن تجعل الأرض وطاء والسما غطاء ، والماء طيباً والكلاط طعاماً ؛ ولا تعبد أحداً في الدنيا من الخلق بسبب الدنيا ، فإن الله عز وجل قد أتاح لك ما لا بد لك منه ، من غير منة فيه لأحد عليك . وقال توفى البكالي : رأيت على بن أبي طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا توفى ، أراقبُ أنت أم راقى ؟ قلت : بل راقى يا أمير المؤمنين ؛ قال : طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة ؛ أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً ، ورتابها فراشاً ، وماءها طيباً ، والقرآن والدعاء دثاراً وشعاراً ؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام . وذكري باقى الخبر ، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ » إن شاء الله تعالى .

السادسة - قوله تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا) نهى . (لِلَّهِ أَنْدَادًا) أى أكفاء وأمثالا ونظراء ؛ واحداً نداءً ؛ وكذلك قرأ محمد بن السميع : نداءً ؛ قال الشاعر :

لحمد الله ولا نداء له * عنده الخير وما شاء فعل

وقال حسان :

أتهجوه ولست له يند * فشر كما لخير كما الفداء

ويقال : نَدَّ وَنَدِيدٌ وَنَدِيدَةٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ ؛ قَالَ لَبِيد :

لِكَلَّا يَكُونُ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتِي * وَأَجْعَلْ أَقْوَامًا عُجُومًا عَمَامِي^(١)

وقال أبو عبيدة : أُنْدَادَا أَضْدَادَا . النحاس : أُنْدَادَا مَفْعُولُ أَوَّلِ ، وَنَدَّ فِي مَوْضِعِ الثَّانِي .
الجرهري : وَالنَّدَّ بَفَتْحِ النُّونِ : التَّلَّ الْمَرْتَفِعِ فِي السَّمَاءِ . وَالنَّدَّ مِنَ الطَّيِّبِ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ .
وَنَدَّ الْبَعِيرُ يَنْدُ نَدًّا وَنِدَادًا وَنُدُودًا : نَفَرَ وَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ ؛ وَمِنْهُ قَرَأَ بَعْضُهُمْ « يَوْمَ التَّنَادِّ » .
وَنَدَّدَ بِهِ أَيْ شَهَرَهُ وَسَمَّعَ بِهِ .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، والجملة في موضع الحال ،
والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى .
فالجواب من وجهين : أحدهما — وأنت تعلمون ، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق
الخلق وأنزل المَاءَ وَأَنْبَتَ الرِّزْقَ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ دُونَ الْأُنْدَادِ . الثاني — أن يكون
المعنى وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَحِدَانِيَّتَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانِ لَوْ تَدَبَّرْتُمْ وَنَظَرْتُمْ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وفي هذا دليل
على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد . وقال ابن قُورَك : يَحْتَمِلُ أَنْ تُتَنَاوَلَ الْآيَةُ
الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَالْمَعْنَى لَا تَرْتَدُّوا إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَجْعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا بَعْدَ عِلْمِكُمُ الَّذِي هُوَ نَفَى الْجَهْلَ
بأن الله واحد .

قوله تعالى : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ

مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أى في شك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القرآن ، والمراد

المشركون الذين تُحَدُّوا ، فانهم لما سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، وإنا لفي شك

(١) السندري : ابن يزيد الكلابي ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل ، فدعى لبيد

الى مهاجته فأبى وقال البيت . والعامم : الجماعات المتفرقون . ومعنى الشطر الثاني : وأجعل أقواما مجتمعين فرقا .

(عن شرح القاموس واللسان) .

منه . فزلت الآية . ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه ، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم . والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل ؛ فسمى الملوك — من جنس ما يفعله — عبداً لتذله لمولاه ؛ قال طرفة :
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها * وأفردت أفراد البعير المعبد
أى المذلل . قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بها أشرف الخلق ؛ سمي نبيه عبداً ، وأنشدوا :

يا قوم قلبى عند زهراء * يعرفه السامع والزائى
لا تدعنى إلا بيا عبدها * فإنه أشرف اسمائى

﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتوا مقصور لأنه من باب المجيء ؛ قاله ابن كيسان . وهو أمر معناه التعجيز لأنه تعالى علم عجزهم عنه . والسورة واحدة السور وقد تقدم الكلام فيها وفى إعجاز القرآن ، فلا معنى للإعادة . ومن — فى قوله : « مِنْ مِثْلِهِ » — زائدة ؛ كما قال : « فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى مثله عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعنى فاتوا بسورة من كتاب مثله فانها تصدق ما فيه . وقيل : يعود على النبي صلى الله عليه وسلم . المعنى من بشر أُمى مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمن على هذين التأويلين للتبويض . والوقف على « مثله » ليس بتمام ، لأن « وادعوا » نسق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفراء : آهتكم . وقال ابن كيسان : فإن قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء يشهدوا أمراً ، أولي خبروا بأمر شهده ، وإنما قيل لهم : فاتوا بسورة من مثله ؟ فالجواب أن المعنى استعينوا

بن وجدتموه من علمائكم ، وأحضرهم ليشاهدوا ما تأتون به ، فيكون الرد على الجميع أوكد في المحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى وادعوا شهداءكم ، أى ادعوا ناسا يشهدون لكم أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : شهداءكم نصب بالفعل جمع شهيد ؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من غيره ، ودُونُ نقبض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية ، ويكون ظرفا . والدون : الحفير الخسيس ؛ قال :
إذا ما علا المرء رام العلاء * ويقنع بالدون من كان دونا

ولا يشتق منه فعل ؛ وبعضهم يقول منه : دَانَ يَدُونُ دَوْنًا . ويقال : هذا دون ذاك ، أى أقرب منه . ويقال فى الإغراء بالشئ : دُونَكَ . قالت تميم للهجاء : أَقْبَرْنَا صَالِحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمْوه .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ، لقولهم فى آية أخرى : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » . والصدق : خلاف الكذب ، وقد صدق فى الحديث . والصدق : الصلب من الرماح . ويقال : صدقوهم القتال . والصدق : الملازم للصدق ؛ ويقال : رجلٌ صدق ؛ كما يقال : نيم الرجل . والصدقة مشتقة من الصدق فى النصيح والود .

قوله تعالى : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تطبقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على « صادقين » تام . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا ، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا فى أن نقره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتباً للهجاء ، ويرى رأى الخوارج .

فإن قيل : كيف دخلت « إن » على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجواب أن « إن » هاهنا غير عاملة في اللفظ، فدخلت على « لم » كما تدخل على الماضي؛ لأنها لا تعمل في لم كما لا تعمل في الماضي؛ فعني إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو عبيدة ؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أعرّض أبيت اللعن بالصفد ^(١)

وفي حديث ابن عمر حين ذهب به الى النار في منامه فقيل لى : لن تُرَخَّ . هذا على تلك اللغة . وفي قوله : « وَلَنْ تَفْعَلُوا » إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم ؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ابن كيسان : ولن تفعلوا ، توقيفا لم على أنه الحق ، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب ، وأنه مفترى وأنه سحر وأنه شعر ، وأنه أساطير الأولين ؛ وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب فإن لم تفعلوا ، أى اتقوا النار بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدم معنى التقوى فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد « فَتَقُوا النار » . وحكى سيبويه : تَقَى يَتَقَى ، مثل قضى يقضى . « النار » مفعولة . « التي » من نعمتها ، وفيها ثلاث لغات : التي والَّتِ بكسر التاء والَّتِ بإسكانها . وهى اسم مبهم للؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتكثير ، ولا تتم إلا بصلة . وفي تثنيتهما ثلاث لغات أيضا : اللَّتَانِ وَالَّتَا بجذف النون واللَّتَانِ بتشديد النون . وفي جمعها خمس لغات :

(١) رواية الديوان وهى المشهورة في مصادر الأدب : « فلم أعرّض » . وروى : « فما عرضت » .

وصدر البيت :

* هذا الثناء فان تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحية كانوا يحبون بها الملوك . والصفد : العطاء . معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلتن عليه وتندم . يقول : هذا الثناء الصحيح الصادق فن الحق أن تقبله منى ، فلم أمدحك متعرضا لعطائك ، لكن أمدحك اقترارا بفضلك . (عن شرح الديوان) . (٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

الَّلَاتِي وهي لغة القرآن . والَّلَاتِ بكسر التاء بلا ياء . والَّلَوَاتِي . والَّلَوَاتِ بلا ياء؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللَّوَاتِي وَالَّتِي وَالَّلَاتِي * زَعَمَنَ أَن قَدْ كَثِرَتْ لِدَاتِي

وَالَّلَوَاتِ بِإسقاط التاء، وهذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن الشجري : اللَّاتِي بالهمز وإثبات الياء، والَّلَاءِ بكسر الهمزة وحذف الياء، وَالَّلَا بِحذف الهمزة . فإن جمعت الجمع قلت في اللَّاتِي : اللواتي ، وفي اللَّاتِي : اللواتي . قال الجوهري : وتصغير التي اللَّتِيَّ بالفتح والتشديد ، قال الراجز^(١) :

بعد اللَّتِيَّ وَالَّتِيَّ وَالَّتِي * إِذَا عَلَنَهَا أَنْفُسٌ تَرَدَّتْ

وبعض الشعراء أدخل على التي حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها، وقال :

من أَجْلِكَ يَا الَّتِي تَمَيَّتْ قَلْبِي * وَأَنْتِ بِخَيْلَةٍ بِالْوَدِّ عَنِّي

ويقال : وقع فلان في اللَّتِيَّ وَالَّتِي ، وهما اسمان من أسماء الداهية . والْوَقُود بالفتح : الحطب . وبالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها، أجارنا الله منها . «والحجارة» هي حجارة الكبريت الأسود — عن مسعود والفراء — وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الانتقاد، تن الرائحة، كثرة الدخان، شدة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرها إذا تميَّت . وليس في قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة، بدليل ما ذكره في غير موضع من كون الجن والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» أي حطب جهنم . وعليه فتكون الحجارة والناس وقوداً للنار؛ وذكر ذلك تعظيماً للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس .

(١) هو العجاج . وصف دواهي شنيعة . بقول : بعد الجهد والمُشْرِف الذي أشرفت عليه . ومعنى تردت :

سقطت هاوية وهلكت .

وعلى التأويل الأول يكونون معذنين بالنار والحجارة . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مؤذٍ في النار " . وفي تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة بالنار . الثاني أن كل ما يؤذى الناس في الدنيا من السباع والهوم وغيرها في النار مُعَذِّدٌ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى صحصحاح^(١) — في رواية — ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار " . « وقودها » مبتدأ . « الناس » خبره . « والحجارة » عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف : « وقودها بضم الواو » . وقرأ عبيد بن عمير : « وقيدُها الناس » . قال الكسائي والأخفش : « الوقود بفتح الواو : الحطب ، وبالضم الفعل ؛ يقال : وقَدتِ النارُ تَقِدُ وقودا بالضم ووقداً وقدة [ووقيداً ووقداً] ووقدنا ، أى توقدت . وأوقدتها أنا واستوقدتها أيضاً ؛ والانتقاد مثل التوقد ، والموضع موقد ، مثل مجلس ، والنار موقدة . والوقدة : شدة الحر ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يقرأ إلا وقودها [بفتح الواو] لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحكى أن بعض العرب يجعل الوقود والوقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأول أكثر ، قال : كما أن الوضوء الماء ، والوضوء المصدر .

قوله تعالى : (أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للذنين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة على ما يأتى . وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافاً للبتدعة في قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البلوطى الأندلسى .

(١) الضحاح في الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، واستعار النار .

(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .

(١) روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة^(٢) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تدرون ما هذا" قال قلنا : الله ورسوله أعلم قال : "هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوى في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها" . وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احتجبت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عز وجل لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما مثوها" . وأخرجه مسلم^(٣) بمعناه . يقال : احتجبت بمعنى تحجج ، للحديث المتقدم حديث ابن مسعود^(٤) ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أريهما في صلاة الكسوف ، ورأهما أيضا في إسرانه ودخل الجنة فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق . و(أُعِدَّتْ) يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدَّة ، واضمرت معه قد ، كما قال : «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» فمعناه قد حصرت صدورهم ، فمع «حَصِرَتْ» قد مضمورة لأن الماضي لا يكون حالا إلا مع قد ، فعلى هذا لا يتم الوقف على الجملة . ويجوز أن يكون كلاما متقطعا عما قبله ، كما قال : «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأُكُمْ» . وقال السجستاني : أعدت للكافرين من صلة التي ، كما قال في آل عمران : «وَأَنْقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» . ابن الأنباري : وهذا غلط ، لأن التي في سورة البقرة قد وصلت بقوله : «وَقُودُهَا النَّاسُ» فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ، وفي آل عمران ليس لها صلة غير «أعدت» .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ ءُ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

(١) كذا في الأصول . وفي صحيح مسلم : «عن أبي هريرة» . (٢) الوجبة : صوت الشيء يسقط

فيسمع له ، كالمدة . (٣) بمراجعة صحيح البخاري ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخاري بمعناه .

(٤) يلاحظ أن راوي الحديث المتقدم في صحيح مسلم والبخاري أبو هريرة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشير : الإخبار بما يظهر أثره على البشارة وهي ظاهر الجلد لتغيرها بأول خبر يرد عليك ، ثم الغالب أن يستعمل في السرور مقيدا بالخير المبشر به ، وغير مقيد أيضا . ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيدا منصوصا على الشر المبشر به ، قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بشرته وبشرته — مخفف ومشدد — بشارة بكسر الباء فأبشر واستبشر . وبشر يبشر إذا فرح . ووجه تبشير إذا كان حسنا بين البشارة بفتح الباء . والبشرى : ما يعطاه المبشر . وتبشير الشيء : أوله .

الثانية — أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال : من بشرني من عبيدي بكذا فهو حر ، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حرا دون الثاني . واختلفوا إذا قال : من أخبرني من عبيدي بكذا فهو حر فهل يكون الثاني مثل الأول ؟ فقال أصحاب الشافعي : نعم ، لأن كل واحد منهم مخبر . وقال علماؤنا : لا ، لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة ؛ وذلك يختص بالأقل ؛ وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه . وفتى محمد بن الحسن بين قوله : أخبرني ، أو حدثني ؛ فقال : إذا قال الرجل أي غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حر — ولا نية له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يعتق ؛ لأن هذا خبر . وإن أخبره بعد ذلك غلام له عتق ؛ لأنه قال : أي غلام أخبرني فهو حر . ولو أخبروه كلهم عتقوا ؛ وإن كان عني حين حلف بالخبر كلام مشافهة لم يعتق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : وإذا قال أي غلام لي حدثني ؛ فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ رد على من يقول : إن الإيمان يجزؤه يقتضى الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنة تتال بالإيمان والعمل الصالح . وقيل : الجنة تتال بالإيمان ؛ والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

(أَنَّ لَهُمْ) في موضع نصب بـبشر، والمعنى وبشر الذين آمنوا بأن لهم، أولأن لهم؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل. وقال الكسائي وجماعة من البصريين: أن في موضع خفض باضممار الباء.

(جَنَّاتٍ) في موضع نصب اسم أن، وأن وما عملت فيه في موضع المفعول الثاني. والجنات: البساتين؛ وإنما سميت جنات لأنها تُجَنُّ مَنْ فيها أى تستره بشجرها؛ ومنه: المِجَنِّ والمِجَنِّين والجنة.

(تَجْرَى) في موضع النعت لجنات، وهو مرفوع لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها.

(مِنْ تَحْتِهَا) أى من تحت أشجارها، ولم يحركها ذكر لأن الجنات دالة عليها.

(الْأَنْهَارُ) أى ماء الأنهار؛ فنسب الجرى إلى الأنهار توسعاً، وإنما يجري الماء وحده فحذف اختصاراً؛ كما قال تعالى: «وَأَسْقِلُ الْقَرْيَةَ» (١) أى أهلها. وقال الشاعر:

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ * وَأَسْنَبُ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ

أراد: أهل المجلس فحذف. والنهر: مأخوذ من أنهرت أى وسعت؛ ومنه قول قيس ابن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كُنِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَا * يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا

أى وسعتها، يصف طعنة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنهر الدم وذِكْرُ اسم الله عليه فكلوه». معناه: ما وسع الذبح حتى يجري الدم كالنهر. وجمع النهر: نُهْرٌ وأنهار. ونهرٌ نَهْرٌ: كثير الماء؛ قال أبو ذؤيب:

أَقَامَتْ بِهِ فَايْتَنَتْ خِيَمَةً * عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتٍ نَهْرٌ (٢)

(١) هو مهلهل أخو كليب.

(٢) ملكت، أى شددت وقوت.

(٣) قال الأصمعي: «نصب البطحا، مياه تجري إلى عيون الركابا (الآبار)». يقول: أقامت بين نصب أى ركابا

وماء عذب، وكل فرات فهو عذب» (عن اللسان وشرح الديوان).

وروى : أن أنهار الجنة ليست في أخاديد ، إنما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدره حيث شاء أهلها . والوقف على « الأنهار » حسن وليس بتمام ؛ لأن قوله : « كُلُّكُمْ رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ » من وصف الجنة .

(١) (رَزَقًا) مصدر ، وقد تقدم القول في الرزق . ومعنى (مِنْ قَبْلُ) يعنى في الدنيا ؛ وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وعدنا به في الدنيا . والثانى — هذا الذى رزقنا في الدنيا ؛ لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا ؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل : « من قبل » يعنى في الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ؛ فإذا أُنُوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوها منها ، ثم أُنُوا منها في آخر النهار قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، يعنى أطعمنا في أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ؛ فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول .

(وَأُنُوا) فُعلُوا من أُنيت . وقرأ الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعور « وَأُنُوا » بفتح الهمزة والتاء . فالضمير في القراءة الأولى لأهل الجنة ؛ وفي الثانية للخدام .

(بِهِ مُتَشَابِهًا) حال من الضمير في به ، أى يشبه بعضه بعضا في المنظر ويختلف في الطعم . قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عكرمة : يشبه ثمر الدنيا وبيانه في جُل الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجب ، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء ؛ فكانهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خيارا لا رَدَل فيه ؛ كقوله تعالى : « كَنَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه ؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ) ابتداء وخبر . وأزواج : جمع زوج ؛ والمرأة : زوج الرجل ؛ والرجل زوج المرأة . قال الأصمعى : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفراء أنه يقال : زوجة ؛ وأنشد الفرزدق :

وإن الذى يسمى لُفْسِد زوجتى * كساع إلى أسد الشرى يَسْتَبِيلُهَا^(٢)

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها ، أى يأخذ بولها في يده .

وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخاري، واختاره الكسائي .

(مُطَهَّرَةٌ) نعت للأزواج . ومطهرة في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ، ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقدار الآدميات . ذكر عبد الرزاق قال أخبرني الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : مطهرة، قال : لا يبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمينن ولا يتصقن . وقد أتينا على هذا كله في وصف أهل الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

(وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) هم مبتدأ . خالدون خبره، والظرف ملغى . ويجوز في غير القرآن نصب خالدين على الحال . والخلود : البقاء؛ ومنه جنة الخلد . وقد تستعمل مجازاً فيما يطول؛ ومنه قولهم في الدعاء : خلد الله ملكه، أي طوله . قال زهير :

ألا لا أرى على الحوادث باقياً * ولا خالداً إلا الجبال الرواسياً

وأما الذي في الآية فهو أبدى حقيقة .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَنَّا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾)

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا) قال ابن عباس في رواية أبي صالح : لما ضرب الله سبحانه هذين المثالين للنافقين : يعني « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » قالوا : الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال؛ فأنزل الله هذه الآية . وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال : لما ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » وذكر كيد الآلهة

بفعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد ، أى شئ يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للمشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، فأنزل الله الآية .

و(يَسْتَحْيِي) أصله يَسْتَحْيِي ، عينه ولامه حرفا علة ؛ أَعْلَتِ اللام منه بأن استنقلت الضمة على الياء فسكنت . واسم الفاعل على هذا : مستحى ، والجمع مستحيون ومستحيين . وقرأ ابن محيصة يستحى بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة ؛ وروى عن ابن كثير وهى لغة تميم وبكر ابن وائل ؛ نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم استنقلت الضمة على الثانية فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مستح ، والجمع مستحون ومستحين . قاله الجوهري . واختلف المتأولون فى معنى يستحى فى هذه الآية ؛ ف قيل : لا يخشى ؛ ورجحه الطبري ؛ وفى التزويل : « وَتَحْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَاهُ » بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الاستحياء الانقباض عن الشئ والامتناع منه خوفا من مواجهة القبيح ؛ وهذا محال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحى من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ يضرب معناه يبين ، وأن مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف من . « مَثَلًا » منصوب بـ يضرب « بَعُوضَةً » فى نصبها أربعة أوجه :

الأول - تكون « ما » زائدة ، وبعبوضة بدلا من مَثَلًا .

الثانى - تكون ما نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : « مَثَلًا » . وبعبوضة نعت لما ، فوصفت ما بالجنس المنكر لإبهامها لأنها بمعنى قليل ؛ قاله الفراء والزجاج وثعلب .

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجاز ، المعنى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة ؛
لحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهذا قول
الكسائى والفراء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مَا قَرْنَا إِلَى قَدَمٍ * وَلَا جِبَالَ حُبٍّ وَاصِلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قرن ، فلما أسقط بين نصب .

الرابع — أن يكون يضرب بمعنى يجعل ، فتكون بعوضة المفعول الثانى . وقرأ الضحاك
وابراهيم بن أبى عبلة ورؤبة بن العجاج « بعوضةً » بالرفع ، وهى لغة تميم . قال أبو الفتح :
ووجه ذلك أن « ما » اسم بمنزلة الذى ، وبعوضة رفع على إضمار المبتدأ ، التقدير : لا يستحي
أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ لحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهم :
« تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك
شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منه فى الذى ، لأن الذى إنما له
وجه واحد والاسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثلا ، مثلت له مثلا . وهذه
الأبنية على ضرب واحد ، وعلى مثال واحد ونوع واحد ؛ والضرب النوع . والبعوضة : فَعُولَةٌ
من بَعْضٍ إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَعُ وَبَعْضُ بِمَعْنَى ، وقد بَعْضْتُهُ تَبْعِيضًا ، أى جَزَّائِهِ تَبْعِضُ .
والبعوض : البق ، الواحدة بعوضة ، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهري وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل ما الأولى صلة زائدة
فما الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى فما فوقها — والله أعلم —
ما دونها . أى أنها فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهذا كقولك فى الكلام : أترأه قصيرا ؟
فيقول القائل : أو فوق ذلك ، أى هو أقصر مما ترى . وقال قتادة وابن جريج : المعنى
فى الكبر . والضمير فى « أنه » عائد على المثل ؛ أى أن المثل حق . والحق خلاف الباطل .
والحق : واحد الحقوق . والحقّة بفتح الحاء أخص منه ؛ يقال : هذه حقّى ، أى حقّ .

قوله تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) لغة بنى تميم وبنى عامر في أمّا : أيّما ، يدلون من إحدى الميمن ياء كراهية التضعيف ، وعلى هذا يُنشد بيت عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أيّما إذا الشمس عارضت * فيضحي وأيّما بالعشي فيخصر^(١)

قوله تعالى : (فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا) اختلف النحويون في «ماذا» ، فقيل : هي بمثلة اسم واحد بمعنى أى شيء أراد الله ، فيكون في موضع نصب بأراد . قال ابن كيسان : وهو الجيد . وقيل : ما ، اسم تام في موضع رفع بالابتداء ، وذا ، بمعنى الذى وهو خبر الابتداء ، ويكون التقدير : ما الذى أراه الله بهذا مثلاً . ومعنى كلامهم هذا : الانكار بلفظ الاستفهام . و «مثلاً» منصوب على القطع ، التقدير : أراد مثلاً ، قاله ثعلب . وقال ابن كيسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) قيل : هو من قول الكافرين ، أى ما مراد الله بهذا المثل الذى يُفترق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى . وقيل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ، لأنهم يفترون بالهدى أنه من عنده ، فالمعنى : قل يضل الله به كثيراً ويهدي به كثيراً ، أى يوفق ويخذل ، وعليه فيكون فيه رد على من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» التسمية هنا ، أى يسميه ضالاً ، كما يقال : فسقت فلاناً ، يعنى سميته فاسقاً ، لأن الله تعالى لا يضل أحداً . هذا طريقهم فى الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغة ، لأنه يقال : ضلله إذا سماه ضالاً ، ولا يقال : أضله إذا سماه ضالاً ، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق أنه يخذل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) أنه من قوله تعالى . والفاسقين نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقدير : وما يضل به أحداً إلا الفاسقين الذى سبق فى علمه أنه لا يهديهم .

(١) انخصر (بالتحريك) : البرد .

ولا يجوز ان تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال نوف
 البكالي قال قال عزيز فيما يناجي ربه عز وجل : إلهي تخلق خلقا فتضل من تشاء وتهدي
 من تشاء . قال فقيل : يا عزيز أعرض عن هذا ! لتعرض عن هذا أو لأتحونك من النبوة ،
 إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . والضلال أصله الهلاك ؛ يقال منه : ضل الماء
 في اللبن إذا استهلك ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » وقد تقدم في الفاتحة .
 والفسق أصله في كلام العرب الخروج عن الشيء ؛ يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت عن
 قشرها ؛ والفارة من حجرها . والفويسقة : الفارة ؛ وفي الحديث : «نمِسْ فَوَاسِقُ يَقْتُلُنَّ
 فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ الْحَيَّةَ وَالْفَرَّابَ الْأَبْقَعَ وَالْفَأْرَةَ وَالْكَلْبَ الْعَقُورَ وَالْحَدْيَا» . روته عائشة عن
 النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرجه مسلم . وفي رواية «العقرب» مكان الحية . فأطلق صلى
 الله عليه وسلم عليها اسم الفسق لأذيتها ؛ على ما يأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .
 وفسق الرجل يفسق ويفسق أيضا عن الأخفش فسقا فسقا وفسوقا ، أى بخر . فأما قوله تعالى :
 « فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » فمعناه خرج . وزعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية
 ولا في شعرهم فاسق . قال : وهذا عجب ، هو كلام عربي حكاه عنه ابن فارس
 والجوهري .

قلت : قد ذكر أبو بكر بن الأنباري في كتاب «الزاهر» له لما تكلم على معنى الفسق
 قول الشاعر :

يَذْهَبَنَّ فِي تَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرًا * فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

والفسق : الدائم الفسق . ويقال في النداء : يافسق وياخبث ، يريد : يا أيها الفاسق ،
 ويا أيها الخبيث . والفسق في عرف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ،
 فقد يقع على من خرج بكفرو على من خرج بعصيان .

(١) أى بمعنى الخارج من طاعة الله ، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية . (٢) غورا ، منصوب بفعل محذوف ،

أى ويسلكن . (راجع كتاب سيويده ج ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (الَّذِينَ) الذين في موضع نصب على النعت للفاسقين ، وإن
شئت جعلته في موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف ، أى هم الذين ؛ وقد تقدم ^(١) .

الثانية — قوله تعالى : (يَنْقُضُونَ) النقض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل
أو عهد . والنقاضة : ما تنقض من حبل الشمر . والمناقضة في القول : أن تتكلم بما تناقض
معناه . والنقيضة في الشمر : ما يُنقض به . والنقض : المنقوض . واختاف الناس في تعيين
هذا العهد ؛ فقيل : هو الذي أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل :
هو وصية الله تعالى إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه
عن معصيته في كتبه على السنة رسوله ؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيل : بل نصب
الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد ؛ ونقضهم ترك النظر
في ذلك . وقيل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوة محمد عليه السلام
ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا في أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جل وعز
ما أخذه على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم . ودليل ذلك :
«وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» إلى قوله تعالى : «وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي» أى عهده .
قلت : وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها في الكفار . فهذه خمسة أقوال ؛ والقول
الثاني يجمعها .

الثالثة — قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) الميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مفعال من
الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدة في العقد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل — لأن

أصل ميثاق ميثاق، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها - والميثاق والميثاق أيضا، وأنشد ابن الأعرابي :

حَمَى لَا يُحِلُّ الدَّهْرَ إِلَّا بِإِذْنِنَا * وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَهْدَ الْمِيثَاقِ^(١)

والموثق : الميثاق . والموائقة : المعاهدة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ » .
الرابعة - قوله تعالى : (وَيَقْطَعُونَ) القطع معروف، والمصدر - في الرِّحْم - القطيعة؛ يقال : قَطَعَ رَحِمَهُ قِطِيعَةً فهو رجل قُطِعَ وقُطِعَةً، مثال هُمَزَةٍ . وقَطَعَتِ الْجِبِلَ قَطْعًا، وقَطَعَتِ النَّهْرَ قُطُومًا ، وقَطَعَتِ الطَّيْرُ قُطُومًا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد .
وأصاب النَّاسَ قُطْعَةً إذا قَلَّتْ مِيَاهُ . ورجل به قُطْعٌ أى انهيار^(٢) .

الخامسة - قوله تعالى : (مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) ما، في موضع نصب بيقطعون . و«أَنْ» ، إن شئت كانت بدلا من ما، وإن شئت من الماء في به وهو أحسن . ويجوز أن يكون لثلاث يوصل ، أى كراهة أن يوصل . واختلف ما الشيء الذى أمر بوصله ؟
ف قيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده .
فهى عامة فى كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل ؛ هذا قول الجمهور . والرحم جزء من هذا .

السادسة - قوله تعالى : (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) أى يعبدون غير الله تعالى ويحورون فى الأفعال ، إذ هى بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد الميثاق » والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : نتائج النفس من الإعياء ، وقيل انقطاعه .

(أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) ابتداء وخبر . وهم زائدة؛ ويجوز أن تكون هم ابتداء ثانٍ ، الخاسرون خبره ، والثاني وخبره خبر الأول كما تقدّم ^(١) . والخاسر : الذى نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز . والخسران : النقصان كان فى ميزان أو غيره؛ قال جرير :
 إن سَلِطًا فى الخَسَارِ إِنَّهُ * أولادُ قومٍ خُلِقُوا أَقْنَةً ^(٢)

يعنى بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهري : وخسرت الشيء بالفتح وأخسرته نقصته . والخسار والخسارة والخيسرى : الضلال والهلاك ؛ فقيل للمهالك : خاسر ، لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومنع منزله من الجنة .

السابعة — فى هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهد جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره لزم الله تعالى من نقض عهده ؛ وقد قال : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، وقد قال لنبى عليه السلام : « وَإِنَّمَا تَخَافُنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْثَبُذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » فهناك عن الغدر ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد ، على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

كيف ، سؤال عن الحال وهى اسم فى موضع نصب بتكفرون ، وهى مبنية على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ، لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لها الفتح لحقته ؛ أى هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لما لم يثبتوا أمر محمد عليه السلام ولم يصدقوه فيما جاء به فقد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .

أشركوا؛ لأنهم لم يقرؤا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضاً للعهد . وقيل : كيف ، لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ، أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطي : وبجهم بهذا غاية التوبيخ ، لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه فى شيء ، وإنما المنازعة من الهياكل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقد مضى . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ثم حذفت قد . وقال الفراء : أمواتا بخر كنتم .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام ، كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، وكم من موة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذى لا محيد للكفار عنه لإفراقهم بهما ، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ، ثم للإحياء فى الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء مجدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتد بها كما لم يعتد بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياء فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذئب ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا أى نطفاً فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة ، ثم يميتكم فى القبر ، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ، وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات ، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم ، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ؛ فعلى هذا يبعث أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدكم قبل خلق آدم عليه السلام كالأهباء ثم أماتهم ، فيكون على هذا خمس موتات ، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابهم النار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا حتماً أذن في الشفاعة فجاء بهم ضبائرُ ضبائرُ فبُثُوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتُون نباتَ الحبة تكون في حِمِلِ السَّيْلِ" . فقال رجل من القوم : كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرى بالبادية . أخرجه مسلم .

قلت — فقله : "فأماتهم الله" حقيقة في الموت لأنه أكد بالمصدر وذلك تكريماً لهم . وقيل : يجوز أن يكون "أماتهم" عبارة عن تغيبهم عن آلامها بالنوم ، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة ، والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً ، وإنما هو على الحقيقة ؛ ومثله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتاً بالتحول فأحياكم بأن دُكرتم وشرِّقتم بهذا الدين والنبي الذي جاءكم ، ثم يميتكم فيموت دُكرتم ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) أى إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة ؛ كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » فأعادتهم كابتدائهم ، فهو رجوع . و « تُرْجَعُونَ » قراءة الجماعة . ويحيى بن يعمر وابن أبي اسحاق ومجاهد وابن مجيص وسلام ابن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(١) الذى فى صحيح مسلم : «... قد كان بالبادية » . والضبائر : هم الجماعات فى تفرقة ، واحدتها ضبارة ، مثل عمارة وعمار ، وكل مجتمع ضبارة . والحبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش ؛ فأما الحبة (بالفتح) فهى الحنطة والشعير ونحوهما . وحمل السيل : هو ما يجىء به السيل من طين أو زبد أو صخ .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — ((خَلَقَ)) معناه اخترع وأوجد بعد العدم ؛ وقد يقال في الإنسان : خلق عند إنشائه شيئاً ؛ ومنه قول الشاعر :

من كان يخلق ما يقو * ل خيلتي فيه قليله

وقد تقدّم هذا المعنى . وقال ابن كيسان : خلق لكم أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما في الأرض منعم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهذا هو الصحيح على ما نبينه . ويموز أن يكون عني به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانية — استدل من قال إن أصل الأشياء التي ينتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها ؛ كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » الآية . حتى يقوم الدليل على الحظر . وعضدوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشبيهة خلقت مع إمكان ألا تخلق فلم تخلق عيباً ؛ فلا بد لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائها بذاته ، فهي راجعة إلينا . ومنفعتنا إما في نيل لذتها ، أو في اجتنابها لتجنب بذلك ، أو في اعتبارنا بها . ولا يحصل شيء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ، لا نألّا نسلم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلم حصر المنفعة فيما ذكره ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالدوق ، بل قد يستدل على الطعوم بأمور أخرى ، كما هو معروف عند الطبائعين ثم هو معارض بما يخاف أن تكون سموماً مهلكة ، ومعارضون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقف آخرون وقالوا : ما من فعل لا تدرك منه حسناً ولا قُبْحاً إلا ويمكن أن يكون حسناً في نفسه ؛ ولا مُعَيَّن قبل ورود الشرع ، فتعين الوقف إلى ورود الشرع . وهذه الأقاويل الثلاثة للعترة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابه وأكثر المالكية والصيرفي في هذه

المسئلة القول بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها في تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء ، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره ، وإنما حظه تعرف الأمور على ما هي عليه . قال ابن عطية : وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قط من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سمع ، أو لها تعلق به ، أو لها حال تستصحب . قال : فينبغي أن يعتمد على هذا ، وينفى عن النظر في حظر وإباحة ووقف .

الثالثة — الصحيح في معنى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار . يدل عليه ما قبله وما بعده من نصب العبر : الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها ، أى الذى قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض ، لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى «لكم» الانتفاع ، أى لتتضعوا بجميع ذلك ؛ قلنا : المراد بالانتفاع الاعتبار لما ذكرنا . فإن قيل : وأى اعتبار في العقارب والحيات ؛ قلنا : يتذكر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعد الله للكفار في النار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصي ؛ وذلك أعظم الاعتبار . قال ابن العربي : وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرا ولا إباحة ولا وقفا ؛ وإنما جاء ذكر هذه الآية في معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعاني في قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ اتقوا به على طاعته ، لا لتصرفوه في وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده ، وتسكن الى ما ضمن لك من جزيل عطائه في المعاد ، ولا تستكثر كثير برّه على قليل عملك ؛ فقد ابتدأك بعظيم النعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما عندى شيء ولكن ابع عليّ فإذا جاء شيء قضينا" فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

عندك فما كلفك الله مالا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قول عمر؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرف السرور في وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بذلك أمرت" ، قال علماءنا رحمة الله عليهم : نخوف الإقلال من سوء الظن بالله ، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها نولد آدم ؛ وقال في تنزيله : « خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » ، « وَتَخَرَّ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » . فهذه الأشياء مسخرة لآدم قطعاً لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبداً كما خلقه عبداً ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » . وقال : « فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي يَا بَنَ آدَمَ أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى سَعًا لَا يَغْنِصُهَا شَيْءٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا مَلَكَانِ يَتَلَوَّانِ فيقول أحدهما اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا ويقول الآخر اللَّهُمَّ اعْطِ مُسْكًا تَلْفًا" . وكذا في المساء عند الغروب يناديان أيضاً ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فن استنار صدره ، وعلم غنى ربه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا ، واجترأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وانقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة في الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة في شيء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيق عليه الأمر في نفقة اليوم لخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَنْفِقْ أَوْ أَنْصَحْ أَوْ أَنْفِقْ وَلَا تُحْصِ فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَلَا تُؤَيِّ فَيُؤَيِّ اللَّهُ عَلَيْكَ" . وروى النسائي عن عائشة قالت : دخل علي

(١) أى داعة الصب والمطل بالعطاء . (٢) قال النووي : « والضح والضج المعطاء » ، ويطلق الضج

أيضا على الصب فلهذا المراد هنا ويكون أبلغ من الضج . (٣) الإيما : « جعل الشيء في الزمان » . أى لا تحصى وتضفى بالنفقة فيشع عليك .

سائل مرةً وعندى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرت له بشيء ثم دعوت به فنظرت إليه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما تريدن ألا يدخل بينك شيء ولا يخرج إلا بعلمك» قلت: نعم؛ قال: «مهلاً يا عائشة لا تُحصى فيُحصى الله عز وجل عليك».

الخامسة - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾ ثم لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه. والاستواء في اللغة: الارتفاع والعلو على الشيء؛ قال الله تعالى: «فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ»، وقال: «لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ»، وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً بفيضاء قفيرة * وقد حلق النجم اليماني فاستوى

أى ارتفع وعلا. واستوت الشمس على رأسى، واستوت الطير على قمة رأسى، بمعنى علا. وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم: نقرأها ونؤمن بها ولا نفسرهما؛ وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلاً سأل عن قوله تعالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى» قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجلاً سوءاً! أخرجوه. وقال بعضهم: نقرأها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة. وهذا قول المشبهة. وقال بعضهم: نقرأها ونتأولها ونُحِيل حَمَلَهَا على ظاهرها. وقال الفراء في قوله عز وجل: «ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ» قال: الاستواء في كلام العرب على وجهين، أحدهما: أن يَسْتَوِيَ الرجل وينتهي شبابه وقوته، أو يستوى عن اعوجاج. فهذان وجهان. ووجه ثالث أن تقول: كَانَ فلان مقبلاً على فلان ثم استوى على وإلى يشاتنى. على معنى أقبل إلى وعلى. فهذا معنى قوله: «ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» والله أعلم. قال وقد قال ابن عباس: ثم استوى إلى السماء صعد. وهذا كقولك: كان قاعداً فاستوى قائماً، وكان قائماً فاستوى قاعداً، وكل ذلك في كلام العرب جائز. وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين: قوله:

(١) عبارة الأصول: «... كان مقبلاً على يشاتنى وإلى سواء، على معنى ... الخ» وبها لا يستقيم المعنى. والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبري.

«أستوى» بمعنى أقبل صحيح؛ لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولقطة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ابن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبي، والكلبي ضعيف، وقال سفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله : «ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» قصد إليها، أى بخلقه واختراعه؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد، واختاره الطبري . ويدكر عن أبي العالية الزباجي في هذه الآية أنه يقال : استوى بمعنى أنه ارتفع . قال البيهقي : ومراده من ذلك — والله أعلم — ارتفاع أمره ، وهو بخار الماء الذى وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ابن عطية : وهذا ياباه وصف الكلام . وقيل : المعنى استولى ؛ كما قال الشاعر ^(١) :

قد أَسْتَوَى بِشُرِّ عَلَى الْعِرَاقِ * مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

قال ابن عطية : وهذا إنما يحى في قوله تعالى : «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى» .

قلت : قد تقدم في قول الفراء على وإلى بمعنى ؛ وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان في سورة «الأعراف» إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادسة — يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء ؛ وكذلك في حم السجدة . وقال في النازعات : «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا» فوصف خلقها ؛ ثم قال : «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» . فكان السماء على هذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولاً ؛ حكاه عنه الطبري . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيسس الماء الذى كان عرشه عليه، فجعله أرضاً وثار منه دخان فارتفع ؛ فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مدحوة .

(٢) دحا الشيء : بسطه .

(١) هو الأخطل ، كما في شرح القاموس .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى ، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواها ، ثم دحا الأرض بعد ذلك .

(١) ومما يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في قوله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء ، فسما عليه ، فسماه سماء ؛ ثم أبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين ، في الأحد والاثنين . فجعل الأرض على حوت — والحوت هو التون الذي ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن بقوله : « نَ وَالْقَلَمِ » — والحوت في الماء و [الماء] (٢) على صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على الصخرة ، والصخرة في الريح — وهي الصخرة التي ذكر لقمان : ليست في السماء ولا في الأرض — فتعزك الحوت فاضطرب ؛ فترزلت الأرض ؛ فأرسل عليها الجبال فقزت ؛ فالجبال تفخر على الأرض ، وذلك قوله تعالى : « وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وخلق الجبال فيها ، وأقوات أهلها وشجرها ، وما ينبغى لها في يومين ، في الثلاثاء والأربعاء ، وذلك حين يقول : « قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِ ذَلِكَ شِئًا يَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » يقول : من سأل فهكذا الأمر ، « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين ، في الخميس والجمعة ؛ وإنما سُمي يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سته في مقدمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذي لا يتشبه مع روح الدين الإسلامي ؛ يقل من له الفصبة . . . (٢) تكله عن تفسير الطبري وتاريخه . . . (٣) الصفاة : المريض من الجارة الأملس . . .

فيه خلق السموات والأرض ، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ؛ ثم زين السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينة وحفظاً تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « عَمَّا تَنَارَتَا فَفَتَقْنَاهُمَا » وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام ، على ما يأتي بيانه في هذه السورة إن شاء الله تعالى .

وروى وكيع عن الأعمش عن أبي طبيان عن ابن عباس قال : إن أول ما خلق الله عز وجل من شيء « القلم » فقال له اكتب . فقال : يارب وما أكتب . قال : أكتب القدر . بخرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النون فدحا الأرض عليها ، فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ واضطرب النون فادت الأرض فاشتت بالجبال ؛ فان الجبال تفخر على الأرض إلى يوم القيامة . ففي هذه الرواية خلق الأرض قبل ارتفاع بخار الماء الذي هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى ؛ لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » والله أعلم بما فعل ؛ فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغفل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها ، فالتقى في قلبه ، فقال : هل تدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأثم والشجر والدواب والناس والجبال ! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهم لوثيا بفعل ذلك ؛ فبعث الله دابة فدخلت في منخره ؛ ففجأ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذي نفسي بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعة — أصل خلق الأشياء كلها من الماء لما رواه ابن ماجه في سننه ، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، أنبتني عن كل شيء . قال : « كل شيء خلق من الماء » فقلت : أخبرني عن

شيء إذا عملت به دخلت الجنة . قال : ” أطعم الطعام وأفش السلام وصِل الأرحام وقم الليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام “ . قال أبو حاتم قول أبي هريرة : « أنبئني عن كل شيء » . أراد به عن كل شيء خلق من الماء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : ” كل شيء خلق من الماء “ وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن أول شيء خلقه الله القلم وأمره فكتب كل شيء يكون “ وروى ذلك أيضا عن عبادة بن الصّامت مرفوعا . قال البيهقي : وإنما أراد - والله أعلم - أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش « القلم » . وذلك بين في حديث عمران بن حصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمَّ خُلِقَ الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : مِمَّ خُلِقَ هؤلاء ؟ قال : لا أدري . قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فاتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمَّ خُلِقَ الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : مِمَّ خُلِقَ هؤلاء ؟ فتلا عبد الله بن عباس : « وَخَوَّضَهُمْ مَّاءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ، أى من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق الماء أولا ، أو الماء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لما خلق بعد ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه ، سبحانه جل وعز .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع ، ولم يأت للأرض في التثنية عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » وقد اختلف فيه ؛ ف قيل : ومن الأرض مثلهن أى في العدد ، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعين العدد . وقيل : ومن الأرض مثلهن أى في غلظتهن

وما بينهن . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الداودي . والصحيح الأول ، وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” من أخذ شبرا من الأرض ظلما طُوقَه إلى سبع أرضين “ . وعن عائشة رضي الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبي هريرة : ” لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طُوقَه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة] “ .^(١) وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” قال موسى عليه السلام يارب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله قال موسى يارب كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعاصرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله “ . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سبحانه ؛ فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : ” هل تدرون ما هذا “ فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم “ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” فإنها الرقيع ^(٢) سقف محفوظ وموج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم وبينها “ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” بينكم وبينها [مسيرة] ^(٣) خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك “ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” [فإن فوق ذلك] ^(٣) سماءين بُعد ما بينهما [مسيرة] ^(٣) خمسمائة سنة “ ثم قال كذلك حتى عُدَّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : ” هل تدرون ما فوق ذلك “ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذي تحتكم “ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك “ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” فإن تحتها الأرض الأخرى

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذي .

بينهما مسيرة خمسمائة سنة“ حتى عتد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : ”والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السفلى لبط على الله - ثم قرأ - هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ“ . قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد لبط على علم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه^(١)] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضحى - واسمه مسلم - عن ابن عباس أنه قال : « الله أَدَبَى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبتة كنبيك ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقي : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبى الضحا عليه دليلاً^(٢) ، والله أعلم .

التاسعة - قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ) ابتداء وخبر . ما ، فى موضع نصب . (جميعاً) عند سيبويه نصب على الحال . (ثُمَّ أَسْتَوَى) أهل نجد يملون ليدلوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفتحون . (سَبْعَ) منصوب على البدل من الهاء والنون ، أى فسوى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولاً على تقدير يسوى بينهم سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : انتصب على الحال . (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ابتداء وخبر . والأصل فى هو تحريك الهاء ، والإسكان استخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل عنان ، وتذكيرها شاذ ؛ وتكون جمعاً لسماء فى قول الأخفش ، وسماء فى قول الزجاج ، وجمع الجمع سماوات وسماعات . بقاء « سواهن » إما على أن السماء جمع وإما على أنها مفرد اسم جنس . ومعنى سواهن سوى سطوحهن بالإملاص . وقيل : جعلهن سواء .

(١) زيادة عن صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

المباشرة - قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق ، وهو خالق كل شيء ؛ فوجب أن يكون عالما بكل شيء ؛ وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعقولة على العالمية دون العلمية . وقالت الجهمية : عالم بعلم قائم لا فى محل ، تعالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات ؛ والرد على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : « أَنْزَلَهُ يُعَلِّمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » ، وقال : « فَأَعَلَّمُوا أَنْمَّا أَنْزَلَ يُعَلِّمُ اللَّهُ » ، وقال : « فَلَتَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ يُعَلِّمُ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يُعَلِّمُهُ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » الآية . واستدل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ » إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالون عن نافع بإسكان الهاء من هو وهى ، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثم ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثم . وزاد أبو عون عن الحلواني عن قالون بإسكان الهاء من « أَنْ يُمِلَّ هُوَ » ، والباقون بالتحريك .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة

مسئلة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ وإذا حرفا توقيت ؛ فإذا للماضى ، وإذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المبرد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا ؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا ، وإذا قلت . وإذا جاء « إذا » مع الماضى كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

أى يحيى . وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة : إذ زائدة والتقدير : وقال ربك ، واستشهد بقوله الأسود بن يعقوب^(١) :

فإذ وذلك لا مهاة لذكره * والدهر يعقب صالحا بفساد

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ ، لأن إذ اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزداد . وقال الزجاج : هذا اجترام من أبى عبيدة . ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم ، فالتقدير وإبتداء خلقكم إذ قال ، فكان هذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ، كما قال :

فإن المنية من يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر تقديره وأذكر إذ قال . وقيل : هو مردود الى قوله تعالى : « أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومحاطباته ، وهذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعري ، وهو الذى ارتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المالك والسيد والمصلح والجابر ، وقد تقدم بيانه^(٢) .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدا ملك . قال ابن كيسان وغيره : وزن ملك فعل من الملك . وقال أبو عبيدة : هو مفعول من لَأَكْ إذا أرسل . والألوكه والملائكة والمائلكة : الرسالة ، قال ليلى :

وغلّام أرسلته أمه * بألوك فبدلنا ما سأل

وقال آخر^(٣) :

أبلغ التمنّ عن مألوكا * إنه قد طال حبسنى وانتظارى

(١) يلاحظ أن رواية البيت : « فاذا » ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها

ص ١٣٦ من هذا الجزء . (٣) هو عدى بن زيد ، كما فى اللسان مادة (ألك) .

ويقال : أَلَكْنِي أَيْ أَرْسَلَنِي ؛ فَأَصْلُهُ عَلَى هَذَا مَأْلَكٌ ، الْهَمْزَةُ فَأَاءُ الْفِعْلِ فَانْهَمَ قَلْبُهَا إِلَى عَيْنِهِ فَقَالُوا : مَلَأَكَ ؛ ثُمَّ سَهَلُوهُ فَقَالُوا مَلَّكَ . وَقِيلَ : أَصْلُهُ مَلَأَكَ مِنْ مَلَكٍ يَمْلِكُ ، نَحْوُ شِمَالٍ مِنْ شَمَلٍ ؛ فَالْهَمْزَةُ زَائِدَةٌ عَنْ ابْنِ كَيْسَانَ أَيْضًا ؛ وَقَدْ تَأْتَى فِي الشَّعْرِ عَلَى الْأَصْلِ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَسْتَ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأِكَ * تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وَقَالَ النَّضَرُ بْنُ شُمَيْلٍ : لَا أَشْتَقُّ لِلْمَلَكِ عِنْدَ الْعَرَبِ . وَالْهَاءُ فِي الْمَلَائِكَةِ تَأْكِيدٌ لِتَأْنِيثِ الْجَمْعِ ؛ وَمِثْلُهُ الصَّلَادِمَةُ . وَالصَّلَادِمُ : الْخَيْلُ الشَّدَادُ ، وَاحِدُهَا صَلْدِمٌ . وَقِيلَ : هِيَ لِلْبَالِغَةِ ، كَعَلَامَةِ وَنَسَابَةٍ . وَقَالَ أَرْبَابُ الْمَعَانِي : خَاطَبَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لَا لِلشُّورَةِ وَلَكِنْ لِاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِمْ مِنْ رُؤْيَا الْحَرَكَاتِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ إِلَى قِيَمَتِهِمْ ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « أَتَعْبُدُونِي لِأَدَمَ » .

الثالثة — قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) جَاعِلٌ هُنَا بِمَعْنَى خَالِقٍ ، ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ عَنْ أَبِي رَوْقٍ ، وَيُقْضَى بِذَلِكَ تَعْدِيهَا إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ . وَالْأَرْضُ قَبْلَ إِذَا مَا مَكَّةَ . رَوَى ابْنُ سَابِطٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « دُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ » وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ أُمُّ الْقُرَى ؛ قَالَ : وَقَبْرُ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ بَيْنَ زَمْرَمٍ وَالتَّرْكَنِ وَالْمَقَامِ . وَ« خَلِيفَةٌ » يَكُونُ بِمَعْنَى فَاعِلٍ ، أَيْ يَخْلُقُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَا رُوِيَ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَيْ مُخْلَفٌ ؛ كَمَا يَقَالُ : ذَبِيحَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ . وَالْخَلْفُ بِالتَّحْرِيكِ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَبِتَسْكِينِهَا مِنَ الطَّالِحِينَ ؛ هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ ، وَسَيَأْتِي لَهُ مَزِيدُ بَيَانٍ فِي « الْأَعْرَافِ » إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَخَلِيفَةٌ بِالْقَاءِ قِرَاءَةُ الْجَمَاعَةِ ، إِلَّا مَا رَوَى عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ قَرَأَ خَلِيقَةً بِالْقَافِ ، وَالْمَعْنَى بِالْخَلِيفَةِ هُنَا ، فِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمِيعِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ، آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي إِمْضَاءِ أَحْكَامِهِ وَأَوَامِرِهِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ إِلَى الْأَرْضِ ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِيَاءُ كَانُوا مَرْسَلًا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » الْحَدِيثُ . وَيَقَالُ : لِمَنْ كَانَ رَسُولًا وَلَمْ يَكُنْ

في الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده ، وكانوا أربعين ولدا في عشرين بطنا في كل بطن ذكر وأنثى ، وتوالدوا حتى كثروا ، كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً » . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير . وماش تسعمائة وثلاثين سنة ، هكذا ذكر أهل التوراة ، وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة ، والله أعلم .

الرابعة — هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له وبطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روى عن الأصم^(١) حيث كان عن الشريعة أصم ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك ، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم ، وتناصفوا فيما بينهم ، وبذلوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الغنائم والفىء والصدقات على أهلها ، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه ، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك . ودلينا قول الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » ، وقوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » ، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء ، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش ، ورووا لهم الخبر في ذلك ، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنها ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم ، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة في أمر ليس بواجب . ثم إن الصديق رضى الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة ، ولم يقل له أحد هذا أمر غير

(١) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

واجب علينا ولا عليك ؛ فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين ،
والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، وإن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ، لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يقبّح ولا يحسن ؛ وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهي :

الخامسة — إذا سلم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، نفبرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له ، أم بكال خصال الأئمة فيه ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : اختلف الناس في هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذي يعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بنوه على أصلهم أن القياس والرأي والاجتهاد باطل لا يعرف به شيء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم اختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدعى النص على أبي بكر ، وفرقة تدعى النص على العباس ، وفرقة تدعى النص على علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله في غير معين ؛ ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ وإذا وجب العلم به لم يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول أو الخبر ، وليس في العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين ، وكذلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورة أو استدلالا ، أو يكون من أخبار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورة أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعين وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها ، ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ، فبطلت هذه الدعوى ، وبطل أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به . وأيضاً فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأى وجه كان وجب إثبات إمامة أبى بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوماً ينقلون النص صريحاً في إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد — على ما يأتى بيانه — كذلك الواحد ، إذ ليس أحد الفرق أولى بالنص من الآخر . وإذا بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد . فإن تَعَسَّفَ مُتَعَسِّفٌ وادعى التواتر والعلم الضروري بالنص فينبغى أن يقابلوا على الفور بنقيض دعواهم في النص على أبى بكر وأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضاً في جملتها مقام النص ؛ ثم لا شك في تصميم من عدا الإمامية على نفى النص ؛ وهم الخلق الكثير والجهم الغفير . والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحط عن معشار أعداد مخالفى الإمامية ؛ ولو جاز رد الضرورى في ذلك لحاز أن ينكر طائفة بفساد والصين الأقصى وغيرهما .

السادسة — في رد الأحاديث التى احتج بها الإمامية في النص على على رضى الله عنه ، وأن الأمة كفرت بهذا النص وارتدت ، وخالفت أمر الرسول عانداً ؛ منها قوله عليه السلام : “ من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ” . قالوا : والمولى في اللغة بمعنى أولى ؛ فلما قال : “ فعلى مولاه ” بقاء التعقيب علم أن المراد بقوله « مولى » أنه أحق وأولى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة ؛ وقوله عليه السلام لعلى : “ أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ” . قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركاً له في النبوة ولم يكن ذلك لعلى ، وكان أخاه ولم يكن ذلك لعلى ، وكان خليفة ؛ فلم يعلم أن المراد به الخلافة ، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتى ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأول أنه ليس بتواتر؛ وقد اختلف في صحته، وقد طعن فيه أبو داود السجستاني وأبو حاتم الرازي، واستدلا على بطلانه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مُرَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ وَغِفَارُ وَأَسْلَمُ مَوَالِيٌّ دُونَ النَّاسِ كُلِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مَوْلَى دُونَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». قالوا: فلو كان قد قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» لكان أحد الخبرين كذبا.

جواب ثان — وهو أن الخبر وإن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيه ما يدل على إمامته، وإنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الولي، فيكون معنى الخبر: من كنت وليه فعليّ وليه؛ قال الله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ اللَّهُ هُوَ مَوْلَاهُ» أي وليه. وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر عليّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعليّ.

جواب ثالث — وهو أن هذا الخبر ورد على سبب، وذلك أن أسامة وعليّ اختصا، فقال عليّ لأسامة: أنت مولاي. فقال: لست بمولاك، بل أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه».

جواب رابع — وهو أن عليّ عليه السلام لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها: النساء سواها كثير. شق ذلك عليها، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردا لقولهم، وتكذيبا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والظعن فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم لعليّ عليه السلام. وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتي من بيان وفاتيهما في سورة «المائدة» — وما كان خليفة بعده وإنما كان خليفة يوشع بن نون؛ فلو أراد بقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» الخلافة لقال: أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هذا دل على أنه لم يرد هذا، وإنما أراد أني استخلفتك على أهل في حياتي وغيبوتي عن أهل، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة

ربه . وقد قيل إن هذا الحديث خرج على سبب ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة تبوك استخلف علياً عليه السلام في المدينة على أهله وقومه ، فأرجف أهل التفاق وقالوا : إنما خلفه بخصاً وقلي له ، فخرج علي فلقح بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ، فقال : ” كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون “ . وقال : ” أما ترى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى “ . وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك علياً في هذه الفضيلة غيره ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف في كل غزاة غزاهها رجلاً من أصحابه ، منهم : ابن أم مكتوم ، ومحمد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبي وقاص وهو خبر واحد . وروى في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أنقذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر ، فقال : ” إنهما لا غنى بي عنهما إن منزلتهما من الرأس بمنزلة السمع والبصر “ . وقال : ” هما وزيراي في أهل الأرض “ . وروى عنه عليه السلام أنه قال : ” أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى “ . وهذا الخبر ورد ابتداء ، وخبر علي ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة ، والله أعلم .

السابعة — واختلف فيما يكون به الإمام إماماً وذلك ثلاث طرق ، أحدها : النص ، وقد تقدم الخلاف فيه ، وقال به أيضاً الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصري وبكر ابن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على أبي بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصديق ، أو على جماعة كما فعل عمر ، وهو الطريق الثاني ؛ ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضي الله عنهم . الطريق الثالث : إجماع أهل الحل والعقد ؛ وذلك أن الجماعة في مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا استخلف فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إماماً لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه فإن كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام ؛ إذا لم

يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد؛ لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يُفعل عليهن قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة".

الثامنة — فإنَّ عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله، خلافا لبعض الناس حيث قال: لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد، ودليلنا أن عمر رضي الله عنه عقد البيعة لأبي بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك؛ ولأنه عقدٌ فوجب ألا يفترق إلى عدد يعقدونه كسائر العقود. قال الإمام أبو المعالي: من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزم، ولا يجوز خلعها من غير حدث وتغيير أمر؛ قال: وهذا مجمع عليه.

التاسعة — فإن تغلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا، وقد سئل سهل بن عبد الله التستري: ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال: تجنبه وتؤذى إليه ما يطالبك من حقه، ولا تنكر فعاله ولا تفتر منه، وإذا اتهمك على سر من أمر الدين لم تفشه. وقال ابن خُوَيْرِمْ مَسْدَاد: ولو ثبت على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبإيعاز له الناس تمت له البيعة، والله أعلم.

العاشرة — واختلف في الشهادة على عقد الإمامة؛ فقال بعض أصحابنا: إنه لا يفترق إلى الشهود لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع، وليس ها هنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة. ومنهم من قال: يفترق إلى شهود؛ فمن قال بهذا احتج بأن قال: لو لم تعقد فيه الشهادة أدى إلى أن يدعى كل مدع أنه عقد له سرا، ويؤذى إلى المخرج والفتنة، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان، خلافا للجبائي حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقده ومعقوده؛ لأن عمر حيث جعلها شورى في ستة^(١) دل على ذلك. ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(١) السنة هم الذين نصح عمر — رضي الله عنه — للذين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أنت بعهد عهدا. وهم: علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله. راجع قصة الشورى في تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا.

وبينه أن شهادة الاثنين معتبرة ، وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحادية عشرة - في شرائط الإمام وهي أحد عشر :

الأول - أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الأئمة من قريش " . وقد اختلف في هذا .

الثاني - أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث ، وهذا متفق عليه .

الثالث - أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدير الجيوش وسد الثغور وحماية البيضة^(١) وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للظلم .

الرابع - أن يكون ممن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضي الله عنهم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بد من أن يكون ذلك كله مجتمع فيه ، ولأنه هو الذي يوئى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاة ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيميا به . والله أعلم .

الخامس - أن يكون حرا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السادس - أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما وإن اختلفوا في جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر - أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف في ذلك .

الحادى عشر - أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم في العلم ؛ لقوله عليه السلام : " أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

بن تستشفعون“ . وفي التنزيل في وصف طالوت : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَعْلَمِهِ وَالْجِسْمِ » فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء . وقوله : « اصطفاه » معناه اختاره ، وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالغيب ، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش ؛ فإن الإجماع قد انعقد على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة والابتعاد عن الأئمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل واستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خيف بإقامة الأفضل المخرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا في العدول عن الفاضل إلى المفضول ؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأئمة وقت الشورى بأن السنة فيهم فاضل ومفضول ، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدى المصلحة إلى ذلك واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نصب ثم فسق بعد انبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم ؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر في أمورهم إلى غير ذلك مما تقدم ذكره ؛ وما فيه من الفسق يقعه عن القيام بهذه الأمور والنهوض فيها . فلو جوزنا أن يكون فاسقا أدى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى في الابتداء إنما لم يحز أن يعقد للفاسق لأجل أنه يؤدي إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شيء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام في حديث عبادة : « وَلَا تُنَازِعُ الْأَمْرَ أَهْلَهُ [قَالَ] إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بَرَهَانٌ » .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآسنانة . وبواحا ، أى جهارا . من باح بالشيء يبرح به

وفي حديث عوف بن مالك : " لا ما أقاموا فيكم الصلاة " الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتُكرون فمن كرهه فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع - قالوا : يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟ قال : - لا ما صلوا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة - ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد في نفسه نقصا يؤثر في الإمامة . فاما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ اختلف الناس فيه ، فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تتخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك . والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه انعزل قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه : أقبلوني أقبلوني . وقول الصحابة : لا ثقيلك ولا نستثيلك ، قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا فمن ذا يؤخرك ! رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك ، ولأن الإمام ناظر للغيب^(١) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم . والوكيل إذا عزل نفسه فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره في شيء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة - إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحل والعقد أو بواحد على ما تقدم وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبى عن البيعة لعذر عذر ، ومن تأبى لغير عذر جبر وقهر لثلاث تفرق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقيل الآخر ، واختلف في قتله هل هو محسوس أو معنى فيكون عزله قتله وموته . والأول أظهر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما " . رواه أبو سعيد الخدرى أخرجه مسلم .

(١) في بعض الأصول : « للغيب » .

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعمه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر".
رواه مسلم أيضاً ؛ ومن حديث عريفة : "فاضربوه بالسيف كائناً من كان" . وهذا أدل دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدي إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجي على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ؛ فإن كان الإمام فاسقاً والخارجي مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرته الخارجي حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل ، أو لتنفق كلمة الجماعة على خلع الأول ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعاً لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالي : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين في طرفي العالم ؛ ثم قالوا : لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نُزِّلَ ذلك منزلة تزويج وليّين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعرا أحدهما بعقد الآخر . قال : والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صُقع واحد متضايق الحُطط والمخالف غير جائز وقد حصل الإجماع عليه .
فأما إذا بُعد المَدَى وتخلل بين الإمامين شسوع النوى فلاحتمال في ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوز ذلك في إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكرامية إلى جواز نصب إمامين من غير تفصيل ؛ ويلزمهم إجازة ذلك في بلد واحد ، وصاروا إلى أن علياً ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه ، ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحي .

لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد ولم يؤد ذلك إلى إبطال النبوة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه ، لقوله : ” فاقتلوا الآخر منهما “ ولأن الأمة عليه . وأما معاوية فلم يدع الإمامة لنفسه وإنما ادعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة . ومما يدل على هذا إجماع الأمة في عصرهما على أن الإمام أحدهما ، ولا قال أحدهما إني إمام ومخالف إمام . فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس في السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمع الإجماع ، وقد وجد على المنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول ، وذلك عام في جميع الملائكة ؛ لأن قوله : « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » نخرج على جهة المدح لهم ، فكيف قالوا : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » فقبل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد ؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، لكن عموما الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطيبوا لقلوبهم : « إِنِّي أَعْلَمُ » وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار وروعس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة ، فجاء قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا » على جهة الاستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ؛ فقالوا لذلك هذه المقالة ، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك ، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا : الاستخلاف والعصيان . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء ، فسألوا حين قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أهو الذي أعلمهم أم غيره .

وهذا قول حسن ، رواه عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله : « أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » قال : كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فلذلك قالوا : « أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » وفي الكلام حذف على مذهبه . والمعنى إني جامل في الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا ، فقالوا : أتجمل فيها الذي أعلمتاه أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا ، لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقنضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء ، وما بين القولين حسن فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى لللائكة بقوله : « كيف تركتم عبادي » على ما ثبت في صحيح مسلم وغيره إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجمل فيها ، وإظهار لما سبق في معلومه إذ قال لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : (مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) من ، في موضع نصب على المفعول بتجمل والمفعول الثاني يقوم مقامه فيها . يفسد على اللفظ ، ويجوز في غير القرآن يفسدون على المعنى ، وفي التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . « وَيَسْفِكُ » عطف عليه ، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « وَيَسْفِكُ الدَّمَ » بالنصب ، يجعله جواب الاستفهام بالواو ، كما قال^(١) :

ألم أك جاركم وتكون بيني * وبينكم المودة والإخاء

والسَّفَك : الصَّب . سفكت الدم أسفكه سَفَكًا : صببته ، وكذلك الدمع ، حكاه ابن فارس والجوهري . والسَفَاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام . قال المهدي : ولا يستعمل السفك إلا في الدم ، وقد يستعمل في ثر الكلام ، يقال : سَفَكَ الكلام إذا ثره . وواحد الدماء دم ، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمِي . وقيل : دَمِي ، ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه ، والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذبحنا * جرى الدميان بالخبر اليقين

قوله تعالى : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) أى نزهك عما لا يليق بصفاتك . والتسبيح
في كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :
أقول لما جاءنى خقره * سبحان من علقمة الفاجر

أى براءة من علقمة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء " . وهو
مشتق من السبح وهو الجرى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا »
فالمسبح جارٍ في تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء . وقد تقدم الكلام في نحن^(١) ، ولا يجوز
ادغام النون في النون لثلاثي ما كان .

مسئلة : واختلف أهل التأويل في تسبيح الملائكة ، فقال ابن مسعود وابن عباس :
تسبيحهم صلاتهم ؛ ومنه قوله تعالى : « فَكَلِمَاتُ اللَّهِ كَانَتْ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى المصلين . وقيل :
تسبيحهم رفع الصوت بالذكر ، قاله المفضل ؛ واستشهد بقول جرير :
قَبَّحَ إِلَهُ وَجْهَ تَغْلِبَ كَلِمَا * سَبَّحَ الْجَمِيعُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالَآ

وقال قتادة : تسبيحهم سبحان الله ؛ على عرفه في اللغة ، وهو الصحيح لما رواه أبو ذر
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أى الكلام أفضل ؟ قال : " ما أصطفى الله
للملائكة [أولعباده] سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسلم . وعن عبد الرحمن بن قُرط أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرى به سمع تسبيحا في السموات العلا : سبحان العلى
الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهقي .

(١) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء . (٢) في ديوان جرير : « شبح » . وفسر الشبح بأنه رفع
الأيدى بالدعاء . وعلى هذا فيكون الاستشهاد بهذا البيت في غير محله . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير
المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش . (٣) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع
الأسنانه) .

قوله تعالى : ﴿ تَجِدُكَ ﴾ أى وبجهدك تخلص السبيح ، الحمد ونصله به . والحمد : الثناء ، وقد تقدّم . ويحتمل أن يكون قولهم : بجهدك ، اعتراضا بين الكلامين ، كأنهم قالوا : ونحن نسبح وتقديس ، ثم اعترضوا على جهة التسليم ، أى وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك . والله أعلم .
قوله تعالى : ﴿ وَقُدَّسَ لَكَ ﴾ أى تعظّمك وتجددك وتطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحّدون ، قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى تطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : تقدّس لك بمعناه نصلى . والتقديس : الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح ، فإن الصلاة تشمل على التعظيم والتقديس والتسبيح ، وكان رسول الله صلى عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده : «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» . روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرف فإن معناه التطهير ، ومنه قوله تعالى : «ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ» أى المطهرة . وقال : «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ» يعنى الطاهر ، ومثله : «يَا أَيُّهَا الْمُقَدِّسُ طُوبَى» . وبيت المقدس سمي به لأنه المكان الذى يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر ، ومنه قيل للسطل : قدس ، لأنه يتوضأ فيه ويتطهر ، ومنه القادوس . وفى الحديث : «لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قوتها» . يريد لا طهرها الله . أخرجه ابن ماجه فى سننه . فالقدس : الطهر من غير خلاف ؛ وقال الشاعر :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا * كما شبرق ولدان ثوب المقدس

أى المطهر ، فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب ، والمصل يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال ، والله أعلم .

(١) راجع المسئلة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء .

(٢) هو امرؤ القيس . والهاء فى «أدركنه» ضمير النور ، والنون ضمير الكلاب . وانسا : عرق فى الفخذ . والشبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقدس (بكسر الهمزة وتشديد طاء) : الراهب . وبالفتح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب النور يأخذن بساقه ونغذه ، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله من وجل إذا نزل من الصومعة فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أعلم فيه تأويلان ؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر ، بمعنى كبير ، وكما قال :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل * على أينما تعدو المنيّة أول

فعلى أنه فعل تكون ما في موضع نصب بأعلم ، ويجوز إدغام الميم في الميم . وإن جعلته اسماً بمعنى عالم تكون ما في موضع خفض بالإضافة . قال ابن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنما الخلاف في « أفعل » إذا سمي به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يصرفانه ، والأخفش يصرفه ، قال المهدوي : يجوز أن تقدّر التنوين في « أعلم » إذا قدرته بمعنى عالم ، وتنصب « ما » به فيكون مثل حَوَاج بيت الله . قال الجوهري : ونسوة حَوَاج بيت الله ، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَّجن ، وإن لم يكن حَجَّجن قلت : حَوَاج بيت الله ، فتنصب البيت لأنك تريد التنوين في حَوَاج .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اختلف علماء التأويل في المراد بقوله تعالى : « ما لا تعلمون » . فقال ابن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرفه ، فاعتقد أن ذلك لمزية له ؛ فاستخف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك ؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لما قالت الملائكة « اتجعل فيها » وقد علم الله أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إني أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن ؛ فهو عام .

(١) القائل هو من بن أوس . كان له صديق وكان ممن مَزَّوجاً بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فأتى صديقه إلا يكله أبداً فأفشا من يستعطف قلبه عليه ويستره له . (عن اشعار الحماسة) .

قوله تعالى : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) علم معناه عَرَفَ . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورة . ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام على ما يأتي . وقرئ : « وَعَلَّمَ » غير مسمى الفاعل . والأول أظهر على ما يأتي . قال علماء الصوفية : علمها بتعلم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ونسي ما عهد إليه لأنه وكله فيه إلى نفسه فقال : « وَاقَدْ عَيْهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَلَنسِيَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال ابن عطاء : لولم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر . وقيل : أبا محمد ، كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم ، قاله السهيلي . وقيل : كنيته في الجنة أبو محمد ، وفي الأرض أبو البشر . وأصله بهمزين لأنه أفعال إلا أنهم لينوا الثانية ، فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادم في الجمع لأنه ليس لها أصل في الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو ، عن الأخفش .

واختلف في اشتقاقه ، فقليل : هو مشتق من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمى بما خلق منه ، قاله ابن عباس . وقيل : إنه مشتق من الأدمة وهي السمرة . واختلفوا في الأدمة ، فزعم الضحاك أنها السمرة ، وزعم النضر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ، مأخوذ من قولهم : ناقة أدماء ، إذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه آدم وأوادم ، كحمر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ، ويلزم فائلوهذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جبير : إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سمي إنساناً لأنه نسي . ذكره ابن سعد في الطبقات . وروى

السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ مُرَّةَ الِهْمْدَانِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : فَبَعَثَ اللَّهُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ لِيَأْتِيَهُ بِطِينٍ مِنْهَا ، فَقَالَتِ الْأَرْضُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ أَنْ تَنْقُصَ مِنِّي أَوْ تُشَيِّنَنِي ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ وَقَالَ : يَارَبِّ إِنِّهَا حَازَتْ بِكَ فَأَعْذَتَهَا . فَبَعَثَ مَكَائِيلَ فَعَاذَتْ مِنْهُ فَأَعَاذَهَا ، فَرَجَعَ فَقَالَ كَمَا قَالَ جَبْرِيلُ ، فَبَعَثَ مَلَكُ الْمَوْتِ فَعَاذَتْ مِنْهُ فَقَالَ : وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَرْجِعَ وَلَمْ أَنْفِذْ أَمْرَهُ . فَأَخَذَ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ وَخَلَطَ ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَأَخَذَ مِنْ تَرَبَّةٍ حُمْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسُودَاءَ ، فَلِذَلِكَ نَجَحَ بَنُو آدَمَ مُخْتَلِفِينَ — وَلِذَلِكَ سَمِيَ آدَمُ أَخَذَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ — فَصَعِدَ بِهِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : ” أَمَّا رَحِمَتُ الْأَرْضِ حِينَ تَضَرَّعْتَ إِلَيْكَ “ فَقَالَ : رَأَيْتُ أَمْرَكَ أَوْجِبَ مِنْ قَوْلِهَا . فَقَالَ : ” أَنْتَ تَصْلُحُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِ وَلَدِهِ “ فَبَلَّ التُّرَابَ حَتَّى عَادَ طِينًا لَازِبًا ، اللَّازِبُ : هُوَ الَّذِي يَلْتَصِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ثُمَّ تَرَكَ حَتَّى أَتَتْهُ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ : « مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ » قَالَ : مَسْنُونٌ . ثُمَّ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : « إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فَخَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ لِكَيْ لَا يَكْبَرَ إِبْلِيسُ عَنْهُ . يَقُولُ : أَنْتُ كَبَرْتَ عَمَّا عَمِلْتُ بِيَدِي وَلَمْ أَتَكْبَرْ أَنَا عَنْهُ ! فَخَلَقَهُ بَشَرًا فَكَانَ جَسَدًا مِنْ طِينٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ مَقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَمَرَّتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ فَفَرَعُوا مِنْهُ لَمَّا رَأَوْهُ وَكَانَ أَشَدَّهُمْ مِنْهُ فَرَعًا إِبْلِيسُ فَكَانَ يَمُرُّ بِهِ فَيَضْرِبُهُ فَيَصَوْتُ الْجَسَدِ كَمَا يَصَوْتُ الْفَخَّارِ تَكُونُ لَهُ صَاصِلَةٌ ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » . وَيَقُولُ : لَأَمِيرٍ مَا خَلَقْتَ ! . وَدَخَلَ مِنْ فِيهِ وَخَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ ، فَقَالَ إِبْلِيسُ لِلْمَلَائِكَةِ : لَا تَرْهَبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ أَجُوفٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ سُلْطَةٌ عَلَيْهِ لِأَهْلِكَتَهُ . وَيَقَالُ : إِنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ عَلَيْهِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ يَقُولُ : أَرَأَيْتُمْ هَذَا الَّذِي لَمْ تَرَوْا مِنْ الْخَلَائِقِ يُشَبِّهُهُ إِنْ فَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَأَمَرْتُمْ بِطَاعَتِهِ مَا أَتَمُّ قَاعِلُونَ ! قَالُوا : نَطِيعُ أَمْرِ رَبِّنَا ، فَاسْرَّ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ لِي فَضْلٌ عَلَى فُلَا أَطِيعُهُ ، وَلَئِنْ فَضَّلْتَ عَلَيْهِ لِأَهْلِكَتَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحَيْنَ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ الرُّوحَ

(١) فِي نَسْخَةٍ : « أَنْ تَقْبِضَ مِنِّي أَوْ تُشَيِّنَنِي » . وَفِي تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ (ص ٨٧ قِسم أَوَّلُ طَبْعِ أُورُشَا) :

« أَنْ تَقْبِضَ مِنِّي شَيْئًا وَتُشَيِّنَنِي » .

قال للملائكة : إذا تمخضت فيه من روعي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه انتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ » وذكر القصة . وروى الترمذی عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمع آدم ، قال الشاعر :

الناس أخياف وشتى في الشيم ^(١) . وكلهم يجمعهم وجه الأدم

فأدم مشتق من الأديم والأدم لا من الأدمة ، والله أعلم ، ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في خلق آدم في « الأنعام » وغيرها إن شاء الله تعالى .

وآدم لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف في المعرفة بإجماع النحويين لأنه على أفضل وهو معرفة ، ولا يمتنع شيء من الصرف عند البعريين إلا لعتين ، فإن نكرته ولم يكن نعتا لم يصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صرفه ، قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ولا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانية - قوله تعالى : (الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا) الأسماء هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى ، كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ، كقولك : أسد ثلاثة أحرف ، ففى الأول يقال : الاسم هو المسمى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمى ، وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال .

استعملها؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » على أشهر التأويلات ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لَمْ تَسْعَ وَتَسْعِمْ اسْمًا » . ويجرى مجرى الذات ، يقال : ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنى ؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ » « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا » .

الثالثة — واختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علمها لآدم عليه السلام ؛ فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيقها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علي قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآتية واسم السوط ؛ قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتي ، وهو الذي يقتضيه لفظ « كلها » اذ هو اسم موضوع للإحاطة والعموم ؛ وفي البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وَيَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَاسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ » الحديث . قال ابن خُوَيْرِ مَنَدَادُ : في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا ، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا . وكذلك قال ابن عباس : علمه أسماء كل شيء حتى الحفنة والحلب . وروى شيبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمى كل شيء باسمه وأُنحى منفعة كل شيء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى في هذا . والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها ، هذا كذا وهو يصلح لكذا . وقال الطبري : علمه أسماء الملائكة وذريته ، واختار هذا ورجمه بقوله : « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ » . وقال ابن زيد : علمه أسماء ذريته كلهم . الربيع بن خثيم : أسماء الملائكة خاصة . القتيبي : أسماء ما خلق في الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأول أصح ، لما ذكرناه ولما بينته آنفا إن شاء الله تعالى .

الرابعة — واختلف المتأولون أيضا هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال ابن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ». وتقول العرب: عَرَضْتُ الشَّيْءَ فَأَعْرَضْتُ، أى أظهرته فظهر؛ ومنه: عرضت الشيء للبيع. وفي الحديث: «إنه عرضهم أمثال الذر». وقال ابن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفي حرف ابن مسعود: عرضهم؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأن الهاء والنون أخص بالموث. وفي حرف أبي: عرضها. مجاهد: أصحاب الأسماء. فن قال في الأسماء إنها التسميات فاستقام على قراءة أبي: «عرضها». وتقول في قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدل على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: عرضهم. وقال في «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسبب وذلك أسماؤها. قال ابن عطية: والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسماء وعرضهم عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وقال الماوردي: وكان الأصح توجه العرض إلى المسمين. ثم في زمن عرضهم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني — أنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامسة — واختلف في أول من تكلم باللسان العربي؛ فروى عن كعب الأحبار: أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها وتكلم باللسنة كلها آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حسن قال: أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان ابنه سام، رواه ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن كعب. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول من فتح لسانه بالعربية المبينة لإسماعيل وهو ابن عشرين». وقد روى أيضا: أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان، وقد روى غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد له ؛ قال الله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصبة » وما ذكره يحتمل أن يكون المراد به أول من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام ، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرناه ، والله أعلم . وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل على ما تقدم ، والله أعلم .

قوله : (هَؤُلَاءِ) لفظ مبنى على الكسر ، وانه تميم وبعض قيس وأسد فيه القصر ؛ قال الأعشى :

هؤلا ثم هؤلا كلاً أعطيه * ست نعالاً محدوةً بمثال

ومن العرب من يقول : هولاء ؛ فيحذف الألف والهمزة ^(١) .

السادسة — قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) شرط ، والجواب محذوف تقديره : إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون في الأرض فأنبئوني ؛ قاله المبرد . ومعنى صادقين عالمين ، ولذلك لم يسبق للملائكة الاجتهاد وقالوا : سبحانك ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذي أماته الله مائة عام حين قال له : « كَمْ لَبِثْتَ » فلم يشترط عليه الإصابة ، فقال ولم يُصب ولم يُعَنَّف ؛ وهذا بين لا خفاء فيه . وحكى الطبري وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى « إِنْ كُنْتُمْ » : إذ كنتم ، وقالوا : هذا خطأ . و « أَنْبِئُونِي » معناه أخبروني . والنبأ : الخبر ؛ ومنه النبيء بالهمزة ، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة — قال بعض العلماء : يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما

(١) في البحر لأبي حيان : « يحذف ألف ها وهمزة أولاً ، وإقرار الواو التي بعد تلك الهمزة » .

هو على جهة التقرير والتوفيف . وسيأتي القول في تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — في آخر السورة ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : **(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا)** فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(سُبْحَانَكَ)** أى تنزيها لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك . وهذا جوابهم عن قوله : **« أَزِيثُونِي »** فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به كما يفعله الجاهل منا . وما ، فى « ما علمتنا » بمعنى الذى ، أى إلا الذى علمتنا ، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانية — الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ؛ لكن قد أخبر الصادق أن يموت العلماء يقبض العلم ؛ فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون . وأما ما ورد من الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروى الهيثمى (١) فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى البقاع شر ؟ قال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ؛ بقاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق . وقال الصادق للهجة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان على يقول : وإردھا على الكبد ، ثلاث مرات . قالوا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال : لا علم لى بها ؛ فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر ، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدارمى فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى حنبل

(١) فى نسخة « النساء » .

(١) يحيى بن المتوكل صاحب هبة قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد ، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج ، أو علم ولا مخرج ! فقال له القاسم : وعم ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمامي هدى : ابن أبي بكر وعمر . قال يقول له القاسم : أفصح من ذلك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو أخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هُرْمُزٍ يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى . قلت : ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وصدَم الإنصاف في العلم . قال ابن عبد البر : من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه ، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطّغام ! وطلّب فيه العلم للرياسة لا للتراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمرء والجدال الذي يُقيس القلب ويورث الضغن ؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما روى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى العَصْبَةِ — يعنى يزيد بن الحصين الحارثي — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال ؛ فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها قَطَسٌ (٢) فقالت : ما ذلك لك !

(١) هبة (بالصغير) : مولاة أبي بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه ، وعمر جده الأعلى لأبيه ، وابن عمر جده الحقيقي لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووي على صحيح مسلم) .

(٣) القطس (بالتحريك) : انخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : « وَآتَيْنَا أَحَدَهُمْ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيع عن أبي معشر عن كعب القرظي قال : سأل رجل علياً رضي الله عنه عن مسألة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال عليّ : أصبت وأخطأت ، وفوق كل ذي علم عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال : لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فأخذت على بكر ابن حماد حديث مسدد ، ثم رحلت الى بغداد ولقيت الناس ، فلما انصرفت عدت اليه لتمام حديث مسدد ، فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مضر من مجتأبي النمار" فقال : إنما هو مجتأبي النمار ؛ فقلت إنما هو مجتأبي النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لي : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هذا . ثم قال لي : قم بنا الى ذلك الشيخ — لشيخ كان في المسجد — فإن له بمثل هذا علماً ؛ فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مجتأبي النمار ، كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة^(١) ، جيوبهم أمامهم . والنمار جمع نَمرة . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفسه : رَغِمَ أَنْفِي لِلْحَقِّ ، رَغِمَ أَنْفِي لِلْحَقِّ . وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبيد الملك فأحسن :

إذا ما تحدثت في مجلس * تنأى حديثي الى ما علمتُ

ولم أعد علمي الى غيره * وكان اذا ما تنأى سكُتُ

الثالثة — قوله تعالى : ((سُبْحَانَكَ)) سبحانه منصوب على المصدر عند التحليل وسيبويه ، يؤدى عن معنى نسبك تسبيحاً . وقال الكسائي : هو منصوب على أنه نداء مضاف . و ((الْعَلِيمُ)) فعيل للمبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى . و ((الْحَكِيمُ)) معناه الحاكم ، وبينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المحكم ، ويحىء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرف عن مُفْعِل الى فَعِيل ، كما صُرف عن مُسَمِّع الى سَمِيع ومؤمِّل الى أَمِّم ؛ قاله ابن

(١) مشققة : مخططة .

الأنبارى . وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد؛ ومنه سميت حكمة اللجام لأنها تمنع الفرس من الجرى والنهاب في غير قصد؛ قال جرير :

أبى حنيفة أحكوا سفهاءكم * إني أخاف عليكم أن أغضباً

أى امنعهم من الفساد . وقال زهير :

القائد الخليل منكوباً دوابرها ^(١) * قد أحكمت حركات القذ والأبقا

القذ : الجلد . والأبق القنب ^(٢) . والعرب تقول : أحكم اليتيم عن كذا وكذا يريدون منعه .
والسورة المحكمة : المنوعة من التغيير وكل التبديل ، وأن يلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها ؛ والحكمة من هذا ، لأنها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد . فهو مُحْكَمٌ وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنِيئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ^ب فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) أمره الله أن يُعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه ؛ فكان أفضل منهم بأن قدمه عليهم وأحجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه . فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له ، مختصا بالعلم .

الثانية — في هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ؛ وفي الحديث : « وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم » أى تخضع وتواضع ؛ وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة ^(٣)

(١) النكب : أن يتكب الجهر خلفا أو حافرا . والدواير : أواخر الحوافر . يقول : يقود الخيل في القزو ريمع بها حتى تكب دوايرها ، أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها . (٢) القنب (بكسر القاف وضمة) : ضرب من الكتان . (٣) في نسخة من الأصل : « لأجل » .

من بين سائر أعمال الله ؛ لأن الله تعالى أزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب .
 فكما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله ، ورضى منهم^(١)
 بالطلب له والشغل به . هذا في الطلاب منهم فكيف بالأخبار فيهم والرايين منهم ! جعلنا
 الله منهم وفيهم ، إنه ذو فضل عظيم .

الثالثة — اختلف العلماء في هذا الباب ، أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين ؛
 فذهب قوم الى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل
 من الأولياء من الملائكة . وذهب آخرون الى أن الملائكة أفضل . احتج من فضل الملائكة
 بأنهم « عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
 وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . وقوله : « لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
 الْمُقَرَّبُونَ » وقوله : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
 مَلَكٌ » . وفي البخاري يقول الله عز وجل : « من ذكرني في ملائكته في ملائكته خير منهم »
 وهذا نص . احتج من فضل بنو آدم بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » بالهمز من برأ الله الخلق . وقوله عليه السلام : « وإن الملائكة لتضع
 أجنتها رضا لطلاب العلم » الحديث . أخرجه أبو داود ، وبما جاء في أحاديث من أن الله
 تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة ، ولا يباهي إلا بالأفضل ، والله أعلم . وقال بعض العلماء :
 ولا طريق الى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم ؛
 لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة ؛ وليس هاهنا شيء من ذلك ،
 خلافا للقدريّة والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأما من قال
 من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فيقال
 لهم : المسجود له لا يكون أفضل من الساجد ، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والأنبياء
 والخلق يسجدون نحوها ، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة . ولا خلاف أن السجود

(١) في نسخة : « ورضى الله عنهم ... الخ » .

لا يكون إلا الله تعالى لأن السجود عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود الى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد، وهذا واضح وسيأتى له مزيد بيان في الآية بعد هذا.

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى ؛ فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا في « الأنعام » إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » حكاه مكى والماوردى . وقال الزهراوى : ما أبدوه هو يبدأهم بالسجود لآدم . ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير : المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والمعصية . قال ابن عطية : وجاء تكتُمون للجماعة ؛ والكاتم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها ؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سفيه منهم : أتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » وإنما ناداه منهم عُيَيْنَةُ ، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدي بن ميمون : كما عند الحسن فسأله الحسن بن دينار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : ان الله عز وجل لما خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا ، وكأنهم دخلهم من ذلك شيء ، قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم ، [فقالوا : و] ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقا ألا كما أكرم عليه منه . وما ، فى قوله : « ما تبدون » يجوز أن ينتصب بأعلم على أنه فعل ، ويجوز أن يكون بمعنى ظالم وتنصب به ما ، فيكون مثل حواج بيت الله ، وقد تقدّم .^(٢)

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا) أى واذا ذكر . وأما قول أبي عبيدة : إن إذ زائدة
فليس بجائز، لأن إذ ظرف وقد تقدم^(١) . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر
عن نفسه بفعل الجماعة تفخها وإشادة بذكره . والملائكة جمع ملك . وقد تقدم^(٢) . وتقدم
القول أيضا في آدم واشتقاقه فلا معنى لإعادته ؛ وروى عن أبي جعفرين القمقاع أنه ضم تاء^(٣)
التأنيث من الملائكة اتباعا لضم الجيم في اسجدوا . ونظيره الحمد لله .

الثانية — قوله تعالى : (اسْجُدُوا) السجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع ؛
قال الشاعر :

يَجْمَعُ تَضَلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ * تَرَى الْأُكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْخَوَافِرِ

الأُكْمُ : الجبال الصغار . جعلها سجدا للخوافر لقهر الخوافر لهاها وأنها لا تمتنع عليها . وعين
ساجدة أى فاترة عن النظر؛ وغايته وضع الوجه بالأرض . قال ابن فارس : سجد اذا تطامن^(٤)،
وكل ما سجد فقد ذل . والإسجد : إدامة النظر . قال أبو عمرو : وأسجد اذا طأطأ رأسه ؛ قال :
فُضُولَ أَرَمَتِهَا أَسْجَدَتْ * سَجَدَ النَّصَارَى لِأَحْبَارِهَا

قال أبو عبيدة : وأنشدني أعرابي من بني أسد :

* وَقَلْنَ لَهُ أَسْجِدْ لِلْبَيْتِ فَأَسْجَدَا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودرهم الإسجد : درهم كانت عليها صور كانوا يسجدون لها ؛ قال :

* وَافَى بِهَا كَدْرَاهِمَ الْإِسْجَادِ *

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢ (٣) راجع المسئلة الأولى

ص ٢٧٩ (٤) هو حيد بن ثور يصف نساء . يقول : لما ارتحلن ولوين فضول أزمة جاملن على مصاصهن

أسجدت — طأطأت رءوسها — لمن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

الثالثة - استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة : « اسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم . والجواب أن معنى اسجدوا لآدم اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ » أى عند دلولك الشمس ؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بينا أن المسجود له لا يكون أفضل من الساجد بدليل القبله .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لما استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليرىهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريماً . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم : « اتجعل فيها من يفسد فيها » لما قال لهم : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا ، فقال لهم : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفة ، فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم فى ذلك الوقت على ما أتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد استدل ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » . وأقمنه من العذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ » . قيل له : إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه ؛ فلم يقل : لعمرى . وأقسم بالسماء والأرض ؛ ولم يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والحنان السبع . وأقسم بالثين والزيتون . وأما قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذا دلالة ، والله أعلم .

الرابعة - واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن السجود عبادة ؛ فقال الجمهور : كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض ، كالسجود المعتاد في الصلاة ، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع ؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله ، وطاعة لله تعالى ، وكان آدم كالقِبلة لنا . ومعنى لآدم : إلى آدم ؛ كما يقال صلى للقِبلة ، أى إلى القِبلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبَقَّى على أصل اللغة ؛ فهو من التذلل والانقياد ، أى أخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل . ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى امتثلوا ما أمروا به .

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا الله تعالى ، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام لقوله تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » فكان آخر ما أبيح من السجود للخلق ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : " لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا الله رب العالمين " . روى ابن ماجه في سننه والبسّ في صحيحه عن أبي واقد قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا " فقال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك ؛ قال : " فلا تفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها حتى لو سألتها نفسها وهى على قَتَب لم تمنعه " . لفظ البسّ (١) . ومعنى القَتَب أن العرب يعزّز عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة .

(١) القَتَب : رجل صغير على قدر السنام .

قلت : وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذته جهال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضلّ سعيهم وخاب عملهم .

الخامسة — قوله : ((إِلَّا إِبْلِيسَ)) نصب على الاستثناء المتصل ، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم ؛ وهو اختيار الشيخ أبي الحسن ، ورتجه الطبري وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعد . روى سيماك ابن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا . وحكى الماوردي عن قتادة : أنه كان أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنة . وقال سعيد بن جبیر : إن الجن سبّط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكا ؛ وروى نحوه عن ابن عباس وقال : اسمه الحارث . وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبّوه صغيرا وتعبدت مع الملائكة وخوطب ؛ وحكاها الطبري عن ابن مسعود . والاستثناء على هذا منقطع ، مثل قوله تعالى : « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ » ، وقوله : « إِلَّا مَا ذَكَّرْتُمُ » في أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطش ولا جوع * إلا الرقاد والرقاد ممنوع

واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ » والجن غير الملائكة . أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلا منه ، لا يستل عما يفعل ، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة . وقول من قال : إنه كان من جن الأرض فسئى ،

فقد روى في مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجن في الأرض مع جند من الملائكة؛ حكاه المهدوى وغيره . وحكى الثعلبي عن ابن عباس : أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور، وكان اسمه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خزان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهدا وأكثرهم علما، وكان يسوس ما بين السماء والأرض؛ فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة، فذلك الذى دعاه الى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيا؛ فاذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه، وإن كانت خطيئته في معصية فأرجه؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كبرا . والملائكة قد تسمى جنا لاستنارها؛ وفي التنزيل : «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَاً»^(١)؛ وقال الشاعر في ذكر سليمان عليه السلام :

وتحتر من جن الملائك تسعة * قيسا ما لديه يعملون بلا أجر

وأيضاً لما كان من خزان الجنة نسب إليها فاشتق اسمه من أسمها، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل مشتق من الإبلال وهو اليأس من رحمة الله تعالى؛ ولم ينصرف لأنه معرفة ولا نظيره في الاسماء فشبه بالأعجمية؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمي لا اشتقاق له فلم ينصرف للعجمة والتعريف؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ((أَبَى)) معناه امتنع من فعل ما أمر به؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد] اعتزل الشيطان يبكي يقول يا وَيْلَهُ — وفي رواية : يا وَيْلِي — أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت في النار» . خرجه مسلم . يقال : أبى يَأْبَى إباءً، وهو حرف فادر جاء على فَعَل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحلق؛ وقد قيل : إن الألف مضاربة لحروف الحلق . قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول : القول

(١) هو أعنى قيس، كما في تفسير الطبري وأبي حيان . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

عندى أن الألف مضاربة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحواً غير هذا الحرف .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَكْبِرُ﴾ الاستكبار : الاستعظام ؛ فكأنه كره السجود في حقه واستعظمه في حق آدم ؛ فكان تركه السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكبر عبر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنة من [كان] ^(١) في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر " . في رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : «وغمص» بالصاد المهملة ، والمعنى واحد ؛ يقال : غمصه يغمصه غمصاً وغمصه ، أى استصغره ولم يره شيئاً . وغمص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغمصت عليه قولاً قاله ، أى عبته عليه . وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» . «وَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» . «لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ» فكفره الله بذلك ؛ فكل من سفه شيئاً من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حكه حكه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أول معصية كانت الحسد والكبر ، حسد إبليس آدم ، وشج آدم في أكله من شجرة . وقال قتادة : حسد إبليس آدم ، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارى وهذا طينى . وكان بدء الذنوب الكبر ، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة ، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار ؛ ومنه قوله تعالى : «فَكَانَ مِنَ الْمُفْرِقِينَ» ، وقال شاعر ^(٢) :

بَنِيَاءَ قَفْسٍ وَالْمِطْيُ كَأَنَّهَا * قَطَا الْحَزْنَ قَدْ كَانَتْ فِرَاحًا يُبَوِّضُهَا

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) هو ابن أحر ، كما في اللسان مادة «كون» .

أى صارت . وقال ابن فورك : كان هنا بمعنى صار خطأ تروّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح ، لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : ” وإنا الأعمال بالخواتيم “ . وقيل : إن إبليس عبّد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأعطى الرياسة والحزانية فى الجنة على الاستدراج ، كما أعطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أعطى بلعام^(١) الأسم الأعظم على طرف أسانه ، فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ، فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنْ آلَآئِينَ » أى استكبرت ولا كبر لك ، ولم أتكبر أنا حين خلقتك بيدي والكبر لى ! فلذلك قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وكان أصل خلقة من نار العزة ، ولذلك حلف بالعزة فقال : « فَيَعِزُّكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ » فالعزة أورثته الكبر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة .

التاسعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومن أظهر الله على يديه من ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته ، خلافا لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولي ، إذ لو لم يكن وليا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولي الله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكن أن نقطع على أنه ولي الله تعالى ، لأن الولي لله تعالى من علم الله تعالى أنه لا يوافق إلا بالإيمان . ولما انفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافق بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافق بالإيمان ، علم أن ذلك ليس يدل على

(١) فى تاريخ ابن الأثير والطبرى إنه بلعم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السلام ، وهو من

أهل كمان . راجع تاريخ ابن الأثير ج ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أزل ص ٨٠٨ طبع أوربا .

ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري وغيره . وذهب الطبري إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تفرغ أشباهه من بني آدم وهم اليهود الذي كفروا بحمد عليه السلام مع علمهم بنبوته ، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العاشرة — واختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا ، وإن إبليس أول من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا في الأرض . واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهل السنة ، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادا قال : كفر ومعه علمه . قال ابن عطية : والكفر [عنادا] مع بقاء العلم مستبعد ، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾
فيه ثلاث عشرة مسألة :

الاولى — قوله تعالى : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ) لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، وبعد إخراجه قال لآدم اسكن ، أي لازم الإقامة واتخذها مسكنا ، وهو محل السكون . وسكن إليه يسكن سكونا . والسكن : النار ؛ قال الشاعر :
* قد قومت بسكن وأذهان *

والسكن : كل ما سكن إليه . والسكن معروف ، سمي به لأنه يسكن حركة المذبح ؛ ومنه المسكين لقلة تصرفه وحركته . وسكن السفينة عربي ، لأنه يسكنها عن الاضطراب .

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التي به تعدل .

الثانية — في قوله تعالى : (أَسْكُنْ) تنبيه على الخروج ، لأن السُّكْنَى لا تكون ملكاً ؛ ولهذا قال بعض العارفين : السُّكْنَى تكون إلى مدة ثم تنقطع ، فدخلها في الجنة كان دخول سَكْنَى لا دخول ثَوَاءً ^(١) .

قلت : وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلاً مسكناً له أنه لا يملكه بالسكنى ، وأن له أن يخرجها إذا انقضت مدة الإسكان . وكان الشعبي يقول : إذا قال الرجل دارى لك سَكْنَى حتى تموت فهي له حياته وموته ، وإذا قال : دارى هذه أسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات . ونحو من السُّكْنَى العُمَرَى ، إلا أن الخلاف في العمرى أقوى منه في السكْنَى . وسباق الكلام في العمرى في «هود» إن شاء الله تعالى . قال الحربي : سمعت ابن الأعرابي يقول : لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على ملك أربابها ومنافعها لمن جعلت له العمرى والرَّقْبَى والإفقار والإخبال والمنحة والعريّة والسكْنَى والإطراق ؛ وهذا حجة مالك وأصحابه في أنه لا يملك شيء من العطايا إلا المنافع دون الرقاب ؛ وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد ، ويزيد بن قُسيط .

العُمَرَى هو إسكانك الرجل في دار لك مدة عمرك أو عمره ؛ ومثله الرَّقْبَى ، وهو أن يقول : إن مُتَّ قبلي رجعتُ إلى ، وإن مُتَّ قبلك فهي لك ؛ وهي من المراقبة . والمراقبة : أن يرقب كل واحد منهما موت صاحبه ، ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها ، فأجازها أبو يوسف والشافعي ، وكانها وصية عندهم . ومنعها مالك والكوفيون لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له ، ويمتنع كل واحد منهما موت صاحبه . وفي الباب حديثان أيضاً بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه في سننه ؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العمرى جائزة لمن أَعْمَرَهَا والرَّقْبَى جائزة لمن أَرَقَبَهَا» ففي هذا الحديث التسوية بين العمرى والرَّقْبَى في الحكم . الثاني رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا رُقْبَى فَنَ أَرَقِبَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ حَيَاتُهُ وَمَمَاتُهُ» . قال : والرَّقْبَى أن

(١) الثواء : طول المقام . وفي الأصول : « لا دخول ثواب » .

يقول هو الآخر: متى ومثلك موتا . فقوله : لا رقي ، نهى يدل على المنع ، وقوله : "من أرقب شيئا فهو له" يدل على الجواز ، وأخرجهما أيضا النسائي . وذكر عن ابن عباس قال : العمري والرقي سواء . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "العمري جائزة لمن أغمرها والرقي جائزة لمن أرقبها" . فقد صحح الحديث ابن المنذر ، وهو حجة لمن قال بأن العمري والرقي سواء . ورؤى عن عليّ وبه قال الثوري وأحمد ، وأنها لا ترجع الى الأول أبدا ، وبه قال إسحاق . وقال طاوس : من أرقب شيئا فهو سبيل الميراث .
والإفقار مأخوذ من فقار الظهر ، أفقرتك ناقى : أعرتك فقارها لتركبها . وأفقرتك الصيد إذا أمكك من فقاره حتى ترميه . ومثله الإخبال ، يقال : أخبلت فلانا إذا أعمرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه ، قال زهير :

هنالك إن يُستَحَبَّلوا المال يُخِيلوا * وإن يُسْتَلَوْا يُعْطُوا وإن يَنْسِرُوا يَغْلُوا

والمنحة : العطية ، والمنحة : منحة اللين . والمنيحة : الناقة أو الشاة يعطيها الرجل آخر يحتلبها ثم يردها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضى والزعم غارم" . رواه أبو أمامة ، أخرجه الترمذي والدارقطني وغيرهما ، وهو صحيح .
والإطراق : إغارة الفحل ، استطرق فلان فلانا فحله : إذا طلبه ليضرب في إبله ، فأطرقه إياه . ويقال : أطرقني فحلك أى أعرتني فحلك ليضرب في إبل . وطرق الفحل الناقة يطرق طروقا ، أى قعا عليها . وطروقة الفحل : أنشاء ، يقال : ناقة طروقة الفحل للتي بلغت أن يضربها الفحل .

الثالثة — قوله تعالى : (أَنْتَ وَزَوْجُكَ) أنت ، تأكيد للضمير الذى فى الفعل ، ومثله «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ» . ولا يجوز اسكن وزوجك ، ولا اذهب وربك الا فى ضرورة الشعر ، كما قال :

قلتُ اذ أقبلتُ وزُهرٌ تهادى * كنعاج المَلَا تَصْفَنَ رَمَلًا^(١)

(١) قاله عمر بن أبى دبة . وزهر جمع زهراء وهى البيضاء المشرقة . وتهادى : المشى الرويد الساكن . والنعاج : بئر الوحش . تصفن : ركن .

فزهـر معطوف على المضمر في أقـبـات ولم يؤكـد ذلك المضمر . ويحوز في غير القرآن على
بـعد : قم وزيد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجَكَ ﴾ لغة القرآن «زوج» بغير هاء، وقد تقدّم القول
فيه^(١) . وقد جاء في صحيح مسلم زوجة، حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال حدثنا حماد بن
سلمة عن ثابت البناني عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فتر به
رجل فدعاه بخاء فقال : «يا فلان هذه زوجتي فلانة» فقال : يا رسول الله، من كنت أظن
به فلم أكن أظن بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الشيطان يجري من الإنسان
مجرى الدم» . وزوج آدم عليه السلام هي حواء عليها السلام، وهو أول من سماها بذلك حين
خلقت من ضلعه من غير أن يحسّ آدم عليه السلام بذلك، ولو ألمّ بذلك لم يعطف رجل على
امراته، فلما انتبه قيل له : من هذه ؟ قال : امرأة، قيل : وما اسمها ؟ قال : حواء،
قيل : ولم سميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت، قيل : ولم سميت حواء ؟ قال : لأنها
خلقت من حق . روى أن الملائكة سأله عن ذلك لتجزب علمه، وأنهم قالوا له : أنتحبها
يا آدم ؟ قال : نعم، قالوا لحواء : أنتحيينه يا حواء ؟ قالت : لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه
من حبه . قالوا : فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء . وقال ابن مسعود وابن
عباس : لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصري
من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال : من أنت ؟ ! قالت : امرأة
خلقت من ضلعك لتسكن إليّ، وهو معنى قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من
أعوج وهو الضلع . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«إن المرأة خلقت من ضلع — في رواية : وإنا أعوج شيء في الضلع أعلاه — لن تستقيم

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .

لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت [بها] ^(١) وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها". وقال الشاعر :

هي الضَّلَعُ العوجاء لست تقيمها * ألا إنَّ تقويم الضلوع انكسارها

أجمع ضَعفا واقتدارا على الفتى * أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

ومن هذا الباب استدلل العلماء على ميراث الخنثى المُشْكَل إذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والندى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأة أعطى نصيب رجل ؛ رُوي ذلك عن علي رضي الله عنه لخلق حواء من أحد أضلاعه ، وسيأتي في المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى .

^(٢)
الخامسة - قوله تعالى : ﴿الْجَنَّةُ﴾ الجنة : البستان ، وقد تقدّم القول فيها . ولا التفت لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخلد وإنما كان في جنة بأرض عدن . واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليه إبليس ، فإن الله يقول : «لَا تَقْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِمُ» وقال : «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا» وقال : «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا» . وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » . وأيضا فإن جنة الخلد هي دار القدس ، قدست عن الخطايا والمعاصي تطهيرا لها ، وقد لقا فيها إبليس وكذب ، وأخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يحوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد والمُلْك الذي لا يبلى ؟

فالجواب : أن الله تعالى عرّف الجنة بالآلف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة ، لم يفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغريز آدم ؛ وقد لقي موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى : أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الآلف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت

غيرها لردّ على موسى ؛ فلما سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التي أخرجهم الله عزّ وجلّ منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها يوم القيامة ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية . وقد دخلها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقا . وأما قولهم : إن الجنة دار القدس وقد طهرها الله تعالى من الخطايا بفعلهم ؛ وذلك أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدسها وقد شوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي ؛ فكذلك دار القدس . قال أبو الحسن بن بطّال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام ، فلا معنى لقول من خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد ؛ فيعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسكة من عقل ، فكيف بآدم الذي هو أرحم الخلق عقلا ، على ما قال أبو أمامة على ما يأتي .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور رَغَدًا بفتح

الغين . وقرأ النخعي وابن وثاب بسكونها . والرغد : العيش الدارُ الحنّى الذي لا عناء فيه ؛ قال :

بينما المرء تراه ناعما * يأمن الأحداث في عيش رَغْد^(١)

ويقال : رَغَدَ عيشهم ورَغَدَ بضم الغين وكسرهما . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فرغد

من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف . وحيثُ وحيثَ وحيثُ وحيثُ

وحيثُ وحيثُ وحيثُ وحيثُ ، كلها لغات ، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما في تفسير أبي حيان والطبري .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ، لأن الإباحة فيه وقعت . قال ابن العربي : سمعت الشاشي في مجلس النضر [بن شميل ^(٢)] يقول : إذا قيل لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء فإن معناه لا تدن منه . وفي الصحاح : قُرب الشيء يقرب قربا أى دنا ، وقربته بالكسر أقربه قربانا أى دنوت منه ، وقربت أقرب قرابة - مثل كتبت أكتب كتابة - إذا سرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة ، والاسم القرب . قال الأصمعي : قلت لأعرابي : ما القرب ؟ فقال : سير الليل لورد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الخذاق : إن الله تعالى لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه وهو القرب . قال ابن عطية : وهذا مثال بين في سد الذرائع . وقال بعض أرباب المعاني قوله : « ولا تقربا » إشعار بالوقوع في الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا ينهى . والدليل على هذا قوله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » فدل على خروجه منها .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ الشَّجَرَةُ ﴾ الاسم المبهم ينعت بما فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهذه الشجرة . وقرأ ابن محيصن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل ، لأن الهاء في هذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس في الكلام هاء تانيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

(٤) في الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبي حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفي هذه الحكاية عن ابن العربي من التخليط ما يتعجب من حاكيا ، وهو قوله : سمعت الشاشي في مجلس للنضر بن شميل ، وبين النضر والشاشي من السنين مئتان إلا إن كان تم مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » . والشاشي هنا هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبي بكر الشاشي ولد بميفارقين سنة ٤٢٩ هـ وتوفي سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .

أما النضر بن شميل فقد توفي سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بنية الوعاة ووفيات الأعيان) .

ورولد أبو بكر بن العربي سنة ٤٦٨ هـ وتوفي سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

(١) أى من غير تلك الشجرة .

والشَّجَرَةُ والشَّجَرَةُ والشَّيْرة ثلاث لغات، وقرئ الشَّجَرَةُ بكسر الشين . والشَّجَرَةُ والشَّجَرَةُ : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجيرة وشَجراء أى كثيرة الأشجار ، ووادي شَجير؛ ولا يقال : وادي أشجر . ووادي الشَّجَرَاء شَجَرَةٌ ، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة ، شَجَرَةٌ وشَجَرَاء ، وقَصَبَةٌ وقَصَبَاء ، وطَرْفَةٌ وطَرْفَاء ، وحَلَقَةٌ وحَلَقَاء . وكان الأصمعي يقول في واحد الحَلَقَاء حَلِيفَةٌ ، بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشَّجَرَاء واحد وجمع ، وكذلك القصباء والطرفاء والحلقاء . والمَشَجَر موضع الأشجار . وأرض مَشَجَرَة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجراً ، قاله الجوهري .

التاسعة — واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نهى عنها فأكل منها ؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبيرة وجعدة بن هيرة : هي الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمَتْ علينا الخمر . وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وقتادة : هي السنبلة ، والحبة منها كَكَلَى البقر ، أحلى من العسل وألين من الزُّبْد ؛ قاله وهب بن منبه . ولما تاب الله على آدم جعلها فداءً لبنيه . وقال ابن جريح عن بعض الصحابة : هي شجرة التين ، وكذا روى سعيد عن قتادة^(١) ، ولذلك تعبر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ؛ ذكره السهيلي . قال ابن عطية : وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر ، وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة نخالف هو إليها وعصى في الأكل منها . وقال القشيري أبو نصر : وكان الإمام والدي رحمه الله يقول : يعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة .

العاشرة — واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترب بالقسرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » ؛ فقال قوم : أكلوا من غير التي أشير إليها ، فلم يتأولوا النهي واقفاً على جميع جنسها ، فإن إبليس غرّه بالظاهر . قال ابن العربي : وهي أول معصية عصي الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لا حنث فيه . وقال مالك

(١) في نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة .

وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحث بأكل جنسه ، وإن اقتضى بساط اليمين أو سبها أو نيتها الجنس حمل عليه وحثت بأكل غيره ؛ وعليه حملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عيّنت له وأريد به جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى . وقد اختلف علماءنا في فرع من هذا وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزاً منها على قولين ؛ قال في الكتاب يحث ، لأنها هكذا تؤكل . وقال ابن المَوَاز : لا شيء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة إنما أكل خبزاً فراعى الاسم والصفة ، ولو قال في يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحثت بأكل الخبز المعمول منها . وفيما اشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأولوا النهي على الندب . قال ابن العربي : وهذا وإن كان مسألة من أصول الفقه فقد سقط ذلك ها هنا لقوله : « فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النهي بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » . وقال ابن المسيّب : إنما أكل آدم بعد أن سقطت حواء الخمر فسكر وكان في غير عقله ؛ وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال ابن العربي : وهذا فاسد نقلاً وعقلاً ، أما النقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل نحر الجنة فقال : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلا أن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدي إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

قلت : قد استنبط بعض العلماء نبوة آدم عليه السلام قبل إسماعيل الجنة من قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جل وعز . وقيل : أكلها ناسياً ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد . قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتماً وجرماً فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَيْهِ وَلَمْ يُحْدِ لَهُ عَزْماً » . ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ واليقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم مالا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهي تضيقاً صار به عاصياً ، أى مخالفاً . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَمْ يُحْدِ لَهُ عَزْماً » .

قلت : قول أبي أمامة هذا عموم في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان أوفر الناس حظا وعقلا . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأول أيضا حسن ؛ فظنا أن المراد العين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهباً وحريرا فقال : ” هذان حرامان على ذكور أمتي “ . وقال في خبر آخر : ” هذان مهلكان أمتي “ . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقال : إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها ، على ما يأتي بيانه ، وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المخذة ، وهي أول فتنة دخلت على الرجال من النساء ؛ فقال : ما مُنعنا هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، لأنه علم منهما أنهما كانا يحببان الخلد ، فأتاهما من حيث أحبا — « حبك الشيء يعمى ويصم » — فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد ؛ فالح على حواء وألحت حواء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سلمت أنت ؛ فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : فإني قد أكلت فلم يضرني ؛ فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب ، لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ » بجمعهما في النهي ، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهي عنه منهما جميعا ، وخفيت على آدم هذه المسئلة . ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجه أو أمتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طائقتان أو حرتان ، إن الطلاق والعق لا يقع بدخول أحدهما . وقد اختلف علماءنا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ابن القاسم : لا تطلقان ولا تعتقان إلا باجتماعهما في الدخول ؛ حملا على هذا الأصل وأخذنا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحنون . وقال ابن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتعتقان جميعا بوجود الدخول من أحدهما ، لأن بعض الحنث حنث ؛ كما لو حلف ألا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لقمة منهما . وقال أشهب : تعتق وتطلق التي دخلت وحدها ، لأن دخول

كل واحدة منهما شرط في طلاقها أو عتقها . قال ابن العربي : وهذا بعيد لأن بعض الشرط لا يكون شرطاً إجماعاً .

قلت : الصحيح الأول ، وإن النبي إذا كان معاقاً على فعائين لا تتحقق المخالفة إلا بهما ؛ لأنك إذا قلت : لا تدخل الدار ؛ فدخل أحدهما . وجدت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» نهى لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه ، فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلوا ؛ فلما أكلت لم يصحبا شيء لأن المنهى عنه ما وجد كاملاً . وخفى هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم ، وهو معنى قوله تعالى : «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى» . وقيل : نسي قوله : «إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صفائر من الذنوب يؤخذون بها ويعاتبون عليها أم لا — بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً عند القاضي أبي بكر^(١) وعند الأستاذ أبي إسحاق^(٢) أن ذلك مقتضى دليل المعجزة ؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم — ؛ فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين : تقع الصفائر منهم ؛ خلافاً للرافضة حيث قالوا : إنهم معصومون من جميع ذلك ؛ واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك في الحديث ، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي : إنهم معصومون من الصفائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصفائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر أو المعصية ، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتنال أمرٍ لعله معصية ، لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضاً من الأصوليين . قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلائي .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراخي ، وفي الأصول : «عند الأستاذ أبي بكر»

وهو تعريف . (راجع الكلام في عصمة الأنبياء في شرح المواقف) .

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : واختلفوا في الصفائر ، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجويزها ، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل حملتها وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك فهمى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات [بالنسبة] إلى مناصبهم وعلو أقدارهم ، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيّد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم ، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم ، صلوات الله عليهم وسلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه . والأرض المظلومة : التي لم تُحفَر قط ثم حفرت . قال النابغة :

وقفت فيها أصيلاً لأسألتها * عيت جواباً وما بالزج من أحد
إلا الأوارى لآيماً ما أبينها * والثوى كالحوض بالمظلومة الجلد^(١)

ويسمى ذلك التراب الظلم . قال الشاعر :

فأصبح في غرباء بعد إشاحة^(٢) * على العيش مردود عليها ظالمها

(١) الأوارى (واحد آرى) : حبل تشد به الدابة في محبسها . والآى : المشقة والجهد . والثوى : حفرة حول البيت تملأ به الماء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : لا يبنى حفرة القبر بركة تراها عليه بعد دفن الميت فيها .

وإذا نُحِرَ البعير من غير داء به فقد ظلم؛ ومنه «ظَلَامُونَ لُجُزٌ» . ويقال : سَقَانَا ظَلِيمَةً طَيِّبَةً إذا سَقَاهُم اللَّبَنَ قَبْلَ إِدْرَاكِهِ . وقد ظلم وَطَبَهُ^(١) إذا سَقَى مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَرُوبَ وَيُخْرَجَ زَبَدُهُ . واللبن مظلوم وظليم . قال :

وَقَائِلَةٌ ظَلَمْتُ لَكُمْ سَقَائِي * وَهَلْ يَخْفَى عَلَى الْعَكْدِ الظَّلِيمِ^(٢)
ورجل ظليم : شديد الظلم . والظلم : الشرك؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .
قوله تعالى : (وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا) حذف النون من كلا لأنه أمر، وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذ . قال سيبويه : من العرب من يقول أَؤْكُلُ ، فيتم . يقال منه : أَكَلْتُ الطَّعَامَ أَكَلًا وَمَا كَلَّا . والأَكْلَةُ بِالْفَتْحِ : الْمَتْرَةُ الْوَاحِدَةُ حَتَّى تَشْبَعُ . والأَكْلَةُ بِالضَّمِّ : اللَّقْمَةُ ؛ تقول : أَكَلْتُ أَكْلَةً وَاحِدَةً ، أَى لَقْمَةً ، وَهِيَ الْقُرْصَةُ أَيْضًا . وهذا الشَّيْءُ أَكْلَةٌ لَكَ ، أَى طُعْمَةٌ لَكَ . والأُكْلُ أَيْضًا مَا أَكَلَ . ويقال : فُلَانٌ ذُو أُكْلٍ إِذَا كَانَ ذَا حِظٍّ مِنَ الدُّنْيَا وَرِزْقٍ وَاسِعٍ .

(رَغَدًا) نعت لمصدر محذوف ، أَى أَكَلًا رَغَدًا . قال ابن كيسان : ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال . وقال مجاهد : رَغَدًا أَى لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ . والرَّغْدُ فِي اللُّغَةِ : الْكَثِيرُ الَّذِي لَا يَعْنِيكَ ؛ ويقال : أَرغَدَ الْقَوْمُ إِذَا وَقَعُوا فِي خَصْبٍ وَسَعَةٍ . وقد تقدّمَ هَذَا الْمَعْنَى .
و (حَيْثُ) مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها الظروف في أنها لا تضاف ، فأشبهت قَبْلَ وَبَعْدُ إِذَا أُفْرِدَتْ فَضُمَتْ . قال الكسائي : لغة قيس وكثانة الضم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائي : وبنو أسد يخفضونها في موضع الخفض ، وينصبونها في موضع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » وتضم وتفتح .

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) الهاء من هذه بدل من ياء الأصل ، لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم في العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها إلا هاء « هذه » . ومن

(١) الوطب (يفتح فسكون) : الزق الذي يكون فيه السمن واللبن . (٢) ظلمت سقائي : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتح الكاف جمع العكدة والعكدة) : أصل اللسان .
(٣) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٣ من هذا الجزء .

العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتي هند . وحكى سيويه : هذه هند بإسكان الهاء . وحكى الكسائي عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شبل ابن عباد قال : كان ابن كثير وابن محيصن لا يثبتان الهاء في « هذه » في جميع القرآن . وقراءة الجماعة رغدا بفتح الغين . وروى عن ابن وثاب والتخمي أنهما سكا الغين . وحكى سلمة عن الفراء قال يقال : هذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تا فعلت . وأنشد :

خليلى لولا ساكن الدار لم أقم * بتا الدار إلا عابر ابن سبيل

قال ابن الأنباري : وتا بإسقاط ها بمنزلة ذى بإسقاط ها من هذى ، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفراء : من قال هذى قامت لا يسقط ها لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة . ﴿ فَتَكُونَا ﴾ عطف على تقربا فلذلك حذفت النون . وزعم الجرهمي^(١) أن الفاء هي الناصبة . وكلاهما جائز .

قوله تعالى : فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠﴾
قوله تعالى : ﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ قرأ الجماعة « فازالهما » بغير ألف ، من الزلة وهي الخطيئة ، أى استزلها وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فازلها » بألف من التنحية أى نحاها . يقال : أزله فزال . قال ابن كيسان : فازالها من الزوال ، أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى ، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى . يقال منه : أزله فزل . ودل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ ، وقوله :

(١) الجرهمي (فتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن اسماعيل أبو عمر مولى جرم ، لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .

«فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ» والوسوسة إنما هي إدخالها في الزلل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله في الزلل، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه . وقيل : إن معنى أزلها من زل عن المكان إذا تهيى، فيكون في المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال أمرؤ القيس :

يُزَلُّ الْفَلَاحُ الْخُفَّ عَنْ صَهَوَاتِهِ * وَيُلَوَّى بِأَثْوَابِ الْعَنَيفِ الْمُثْقَلِ^(١)
وقال أيضا :

كُتِبَ يُزَلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ * كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُنْزَلِ^(٢)

الثانية — قوله تعالى : «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ» إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة في الأرض . ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجها منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعده هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سُخْفَةً^(٣) عين وغيظ نفس وخيبة ظن . قال الله جل ثناؤه : «ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جارا له في داره؛ فكم بين الخليفة والجار! صلى الله عليه وسلم. ونسب ذلك إلى إبليس لأنه كان بسببه وإغوائه، ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء آدم؛ واختلف في الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء: أغواها مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى : «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبه : دخل الجنة في فم الحية وهي ذات أربع كالْبُخْتِية من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخلف (بالكسر) : الخفيف . والصهوة : موضع اللبد من ظهر الفرس . ويلوى بها : يذهب بها من شدة عدوه . والعنيف : الذي لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل . والمثقل : الثقيل .

(٢) الكيت : لون ليس بأشقر ولا أدم . والحال : موضع اللبد من ظهر الفرس . والصفواء : (جمع صفاء) : الصخرة الملساء . والمنزل : الذي ينزل عليها فيزلق عنها . (٣) سخفت منه : تقيض قوت .

نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها بجاء بها إلى حواء فقال : انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حواء : كُلْ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُ فَلَمْ يَضُرَّنِي ؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصولا في حكم الذنب ؛ فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هذا يارب ؛ قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحي منك يارب ؛ قال : اهبط إلى الأرض التي خلقت منها . ولعنت الحية وردّت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم ؛ ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتي بيانه . وقبل لحواء : كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحمّلين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبري والنقاش : وتكوني سفينة وقد كنت حليلة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التي أعطاه الله تعالى ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" . والله أعلم . وسبأني في الأعراف أنه لما أكل بقي عريانا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكتوه بالمعصية، فرحته شجرة التين، فأخذ من ورقه فاستتر به، فبلى بالعري دون الشجر . والله أعلم . وقيل : إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثة — يذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فخافته بأن مكنت عدو الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ؛ فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب، وقيل لها : أنت عدو بني آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شذخ رأسك . روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "نمّس بقتلهم المحرم" فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لها : أدخليني الجنة وأنت في ذمتي ؛ فكان ابن عباس يقول : اخفروا ذمة إبليس . وروى ساكنة بنت الجعد عن سري بنت نهبان الغنوية قالت : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اقتلوا الحيات صغيرة وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا". قال علماءنا: وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانتها على ضرر آدم وولده؛ فلذلك كان من قتل حية فكأنما قتل كافرا. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يجتمع كافروقاتله في النار أبدا". أخرجه مسلم وغيره.

الرابعة - روى ابن جريح عن عمرو بن دينار عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فزت حية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقتلوها" فسبقتنا إلى بحر فدخلته؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ها توابسعة ونار فأضرموها عليه نارا". قال علماءنا: وهذا الحديث يخص نهي عليه السلام عن المثلة وعن أن يعذب أحد بعذاب الله تعالى؛ قالوا: فلم يبق لهذا العدو حرمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر.

فإن قيل: قد روى عن إبراهيم النخعي أنه كره أن تحرق العقرب بالنار، وقال: هو مثله. قيل له: يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل على الأثر الذي جاء "ألا تعذبوا بعذاب الله" فكان على هذا سبيل العمل عنده.

فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار وقد أنزلت عليه: «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فنحن نأخذها من فيه رطبة، إذ خرجت علينا حية، فقال: "اقتلوها"؛ فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وقاها الله شركم كما وقاكم شرها". فلم يضرم نارا ولا احتال في قتلها. قيل له: يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها، أو لم يكن الجحر بهيمة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان. والله أعلم. وقوله: "وقاها الله شركم" أي قتلكم إياها "كما وقاكم شرها" أي لسعها.

الخامسة - الأمر بقتل الحيات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات،
فما كان منها متحقق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله ؛ لقوله : "اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطفتين^(١)
والأبتر فإنهما يخطفان البصر ويسقطان الحبل". فخصهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبه
على ذلك بسبب عظم ضررهما . وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قتل أيضا لظاهر
الأمر العام ، ولأن نوع الحيات غالبه الضرر ، فيستصحب ذلك فيه ، ولأنه كله مرفوع
بصورته وبما في النفوس من النفرة عنه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يحب
الشجاعة ولو على قتل حية" . فشجع على قتلها . وقال فيما أخرجه أبو داود من حديث
عبدالله بن مسعود مرفوعا : "اقتلوا الحيات [كلهن]^(٢) فمن خاف ثأرهن فليس مني" . والله أعلم .
السادسة - ما كان من الحيات في البيوت فلا يقتل حتى يؤذن ثلاثة أيام ؛ لقوله
عليه السلام : "إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فأذنوه ثلاثة أيام" . وقد
حمل بعض العلماء هذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجن بها ؛ قالوا : ولا نعم هل
أسلم من جن غير المدينة أحد أولا . قاله ابن نافع .

وقال مالك : نهى عن قتل جنات البيوت في جميع البلاد . وهو الصحيح ؛ لأن
الله عز وجل قال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » الآية . وفي صحيح
مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أتاني داعي الجن فذهبت
معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة ، الحديث . وسيأتي
بكامله في سورة « الجن » إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يخرج^(٣)
عليه وينذر ؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

(١) ذو الطفتين : حية لها خطان أسودان يشبهان بالخمسين . (٢) الزيادة من سنن أبي داود .
(٣) جنات (جمع جان) : ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة لا يؤذي ، وهو كثير في بيوت الناس .
(٤) في هامش نسخة من الأصل : « التحريم هو أن يقول لها : أنت
في حرج - أي في ضيق - إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتبع والطرود والقتل » . وكذلك هو في نهاية
ابن الأثير واللسان .

السابعة - روى الأئمة عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته ، قال : فوجدته يصلي ، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكا في صراجين ناحية البيت ، فالتفت فإذا حية ، فوثبت لأقفلها ، فأشار إليّ أن أجلس فجلست ، فلما انصرف أشار إليّ بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم ، قال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذ عليك سلاحك فإنني أخشى عليك قرينة " .
 فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع ، فإذا أمرأته بين البابين قائمة فأهوى إليها بالرمح ليطعمها به وأصابته غيرة ، فقالت له : أكفف عليك رمحك ، وأدخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني !
 فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج فركه في الدار فاضطربت عليه ، فما يدري أيهما كان أسرع موتا ، الحية أم الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ، وقلنا : أدع الله يحويه (١) ، فقال :
 " استغفروا لأخيكم - ثم قال : - إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فاذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان " . وفي طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم شيئا منها فخرجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر - وقال لهم : - اذهبوا فادفنوا صاحبكم " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الجن الذي قتله هذا الفتى كان مسلما وأن الجن قتله به قصاصا ، لأنه لو سلم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون في العمد المحض ، وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمد قتل نفس مسلمة ، إذ لم يكن عنده علم من ذلك ، وإنما قصد إلى قتل ما سوغ قتل نوعه شرعا ، فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) في صحيح مسلم : « لصاحبكم » .

(٣) العوامر : الحيات التي تكون في البيوت ، واحدا عامر وعامرة . وقيل : سميت عوامر لطول أعمارها .

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا القتي بصاحبهم عدواً وانتقاماً . وقد قتلت سعد ابن عبادة رضي الله عنه ؛ وذلك أنه وجد ميتاً في مغتسله وقد اخضر جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولا يرون أحداً :

قد قتلنا سيّد الخبز * رج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمي * من فلم نخط فؤاده

وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جناً قد أسلموا" ليبين طريقاً يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . روى من وجوه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جانا فأريته في المنام أن قائلاً يقول لها : لقد قتلت مسلماً ؛ فقالت : لو كان مسلماً لم يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا عليك ثيابك . فأصبحت فأمرت باثني عشر ألف درهم فجعلت في سبيل الله . وفي رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترية ؛ فتصدقت وأعتقت رقاباً . وقال الربيع بن بدر : الجنان من الحيات التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلها هي التي تمشي ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنة — في صفة الإنذار ؛ قال مالك : أحب إلى أن يُنذروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار ؛ وإن ظهر في اليوم مراراً . ولا يقتصر على إنذاره ثلاث مرار في يوم واحد حتى يكون في ثلاثة أيام . وقيل : يكفي ثلاث مرار ؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثاً" ، وقوله : "حرجوا عليه ثلاثاً" ولأن ثلاثاً للعدد المؤنث ؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام" . وهو نص صحيح مقيد لتلك المطلقات ؛ ويحمل ثلاثاً على إرادة ليل إلى الأيام الثلاث ، فغلب الليلة على عادة العرب في باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفي في الإنذار أن يقول : أخرج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليل أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم نوح

عليه السلام، وأنشدكم بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام؛ فإذا رأيتم منهم شيئا بعدُ فاقتلوه .

قلت : وهذا يدل بظاهره أنه يكفى في الإذن مرة واحدة ، والحديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى ابن حبيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول : ” أنشدكن بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان عليه السلام ألا تؤذونا وألا تظهرن علينا “ .

التاسعة — روى جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني — واسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” الجن على ثلاثة أثلاث فنلت لهم أجنحة يطربون في الهواء وثلاث حيات وكلاب وثلاث يمحون ويظعنون “ . وروى أبو الدرداء — واسمه عويمر — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” خلق الجن ثلاثة أثلاث فنلت كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلاث ريح هفافة وثلاث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فنلت لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا وثلاث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلاث في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله “ .

العاشرة — ما كان من الحيوانات أصله الأذاة فإنه يقتل ابتداء لأجل إذاته من غير خلاف؛ كالحية والعقرب والفأر والوزغ وشبهه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم “ وذكر الحديث .

فالحية أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فكّيهما؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت في ذمتي؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : ” اقلوها وإن كنتم في الصلاة “ يعني الحية والعقرب .

والوزغة^(١) نهخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلعنّت . وهذا من نوع ما يروى في الحية . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” من قتل وزغة فكأنما

(١) الوزغة (بالعريك) : هي التي يقال لها سام أبرص .

وطوله ستون ذراعاً^(١) الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتي . وأهبطت حواء بجدة وإبليس^(٢) بالأبلة^(٣)، والحية بيسان^(٤)، وقيل : بسجستان . وسجستان أكثر بلاد الله حيات ، ولولا العريضة ما يأكلها ويفنى كثيرا منها لأخليت سجستان من أجل الحيات ؛ ذكره أبو الحسن المسعودي .

الثانية — قوله تعالى : **(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)** بعضكم مبتدأ ، عدو خبره ، والجملة في موضع نصب على الحال ؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من « وبعضكم » لأن في الكلام عائدا ؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدو : خلاف الصديق ؛ وهو من صَدَا إذا ظلم . وذئب عدوان : يعدو على الناس . والعدوان : الظلم الصراح . وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة ؛ من قولك : لا يعدوك هذا الأمر ، أى لا يتجاوزك . وعداء إذا جاوزه ؛ فسمي مدواً لمجاوزة الحد في مكروه صاحبه ؛ ومنه العدو بالقدم لمجاوزة الشيء ، والمعنيان متقاربان ؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : **(لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)** على الإنسان نفسه ، وفيه بعد وإن كان صحيحاً معنى . يدل عليه قوله عليه السلام : **« إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه اتق الله فينا فإنك إذا استقممت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا »** . فإن قيل : كيف قال « عدو » ولم يقل أعداء ؛ ففيه جوابان . أحدهما : أن بعضاً وكلاً يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى ، وذلك في القرآن ؛ قال الله تعالى : **« وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »** على اللفظ ، وقال تعالى : **« وَكُلُّ أُنُوفٍ دَانِحِينَ »** على المعنى . والجواب الآخر : أن عدواً يفرد في موضع الجمع ؛ قال الله عز وجل : **« وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا »** بمعنى أعداء ، وقال تعالى : **« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ »** . وقال ابن فارس : العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث ، وقد يجمع .

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى . (عن معجم ياقوت) .

(٢) بيسان : بلدة بمرور وبالنام وموضع بالجماعة . (٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : اسم

مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) . (٤) العربية (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرهما

وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى .

الثالثة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِلَ توبته ، وإنما أهبطه إما تأديبا وإما تغليظا للجنة . والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك ، وهي نشر نسله فيها ليكفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخرى ؛ إذ الجنة والنار ليست بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . والله أن يفعل ما يشاء . وقد قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقد تقدمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض . وإنما قلنا إنما أهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية : « قُلْنَا أَهْبِطُوا » وسبأني .

الرابعة — وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ إبتداء وخبر ، أى موضع استقرار ؛ قاله أبو العالية وابن زيد . وقال السدي : مستقر يعنى القبور .

قلت : وقول الله تعالى : « جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا » يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سميت متعة النكاح لأنها يتمتع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

وقفْتُ على قبرٍ غريبٍ بفقْرةٍ * متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقٍ

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ اختلف المتألون في الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو المقام في الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو القبور . وقال الربيع : إلى حين إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ حينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كَأَيِّ الرِّقَادِ عَظِيمِ الْقِسْرِ جَفَنُهُ * حينَ الشِّتَاءِ كَحَوْضِ الْمُنْهَلِ اللَّقِيفِ

لقف الحوض لقفا ، أى تهوّر من أسفله واتسع . وربما أدخلوا عليه التاء . قال أبو وجرة . العاطفون يَحِينُ ما مِنْ عَاطِفٍ * وَالْمُطْعِمُونَ زِمَاتِ أَيْنَ الْمُطْعِمِ

والحين أيضا : المدة ؛ ومنه قوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » .
والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينٌ تَرَى الْعَذَابَ » . قال ابن عرفة : الحين
القطعة من الدهر كالساعة لما فوقها . وقوله : « فَذَرُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ » أى حتى تفتى
أجلهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أ كُلَّهَا كُلَّ حِينٍ » أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛
وقيل : بل غُدوة وعَشِيًّا . قال الأزهري : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها
طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها في كل وقت ولا ينقطع نفعها البتة . قال : والحين
يوم القيامة . والحين : الغدوة والعشية ؛ قال الله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ » . ويقال : عاملته محاية ، من الحين . وأحييت بالمكان : إذا أقمت به حينا .
وحان حين كذا أى قرب . قالت بُثينة :

وإِنْ سَلَوِي عَنْ جَمِيلٍ لِّسَاعَةٍ * مِنْ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلَا حَانَ حِينُهَا

السابعة — لما اختلف أهل اللسان في الحين اختلف فيه أيضا علماءنا وغيرهم ؛
فقال الفراء : الحين حِينَان : حين لا يوقف على حده ، والحين الذى ذكر الله جلّ ثناؤه :
« تُؤْتِي أ كُلَّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » ستة أشهر . قال ابن العربي : الحين المجهول لا يتعلق به حكم ،
والحين المعلوم هو الذى يتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف ؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك
يرى في الأحكام والأيمان أعم الأسماء والأزمنة . والشافعي يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط
فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدرات عنده لا تثبت قياسا ، وليس فيه نص
عن صاحب الشريعة ، وإنما المعول على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغة . فمن نذر أن
يصلى حينا فيحمل على ركعة عند الشافعي لأنه أقل النافلة ، قياسا على ركعة الوتر . وقال
مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان فيقدر الزمان بتقدير الفعل . وذكر ابن خُوَيزِمَة مَنَادُ
في أحكامه أن من حلف ألا يكلم فلانا حينا أولا يفعل كذا حينا ، أن الحين سنة . قال :
واتفقوا في الأحكام أن من حلف ألا يفعل كذا حينا أولا يكلم فلانا حينا ، أن الزيادة
على سنة لم تدخل في يمينه .

قلت : هذا الاتفاق إنما هو في المذهب . قال مالك رحمه الله : من حلف ألا يفعل شيئاً إلى حين أو زمان أو دهر ، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك في الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأي وعكرمة وسعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبيدة في قوله تعالى : «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعي وأبو عبيدة : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعي في الحين وقت معلوم ، ولا للحين غاية ؛ قد يكون الحين عنده مدة الدنيا ؛ وقال : لا نخته أبداً ، والورع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة ، يقال : قد جئت من حين ، ولعله لم يجئ من نصف يوم . قال اليكنا الطبري الشافعي : وبالجمله الحين له مصارف ، ولم ير الشافعي تعيين مجمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع في اللغة لمعنى معين . وقال بعض العلماء في قوله تعالى : «إِلَى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومتقل إلى الجنة التي وعد بالرجوع إليها ، وهي لغير آدم دالة على المعاد فحسب ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ۖ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) تلقى قيل معناه : فهم وفطن . وقيل : قبل وأخذ ؛ وكان عليه السلام يتلقى الوحي ، أى يستقبله ويأخذه ويتلقفه . تقول : نرجنا نتلقى الحجيج ، أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقى تلقن . وهذا في المعنى صحيح ، ولكن لا يجوز أن يكون التلقى من التلقن في الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا ، مثل تظننى من تظنن ، وتقصى من نقصص ؛ ومثله تسريت من تسررت ، وأملت من أملت وشبه ذلك ؛ ولهذا لا يقال : تقبى من تقبل ، ولا تلقى من تلقن ؛ فاعلم . وحكى مكى أنه ألهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولها تعلمه لها وعمله بها .

الثانية - واختلف أهل التأويل في الكلمات ؛ فقال ابن عباس والحسن وسعيد ابن جبير والضحاك ومجاهد هي قوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوبا على ساق العرش «مجد رسول الله» فتشفع بذلك ، فهى الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والاستغفار والحزن . قال ابن عطية : هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار الممهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب ؛ فقال : يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » . وقال يونس : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » . وعن ابن عباس ووهب بن منبه : أن الكلمات «سبحانك اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فب على إنك أنت التواب الرحيم» . وقال محمد بن كعب هي قوله : «لا إله إلا أنت سبحانك وبمحمدك ، عملت سوءا وظلمت نفسى فب على إنك أنت التواب الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانك وبمحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانك وبمحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحنى إنك أرحم الراحمين» . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : «الحمد لله» . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدم^(١) .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ قَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أى قبل توبته أو وفقه للتوبة . وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد : رجع الى طاعة ربه . وعبد تواب : كثير الرجوع الى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع ؛ يقال : تاب وتاب وآب وأتاب : رجع .

الرابعة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع ، وقد قال : « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ » و « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » ؛ فالجواب أن آدم عليه السلام لما خوطب في أول القصة بقوله : « أَسْكُنْ » خصه بالذكر في التلقي ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله السر لها ؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر ؛ كما لم يذكر قتي موسى مع موسى في قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ » . وقيل : إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا اتَّخَذُوا إِلَيْهَا » أى التجارة لأنها كانت مقصود القوم ، وأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما ؛ والمعنى متقارب . وقال الشاعر ^(١) :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي * بَرِيئًا وَمِنْ فَوْقِ الطَّوِيِّ رَمَانِي ^(٢)

وفي التثنية : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ تَرْضَوْهُ » لحذف إيجازا واختصارا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التَّوَّابُ ؛ وتكرر في القرآن معترفاً ومنكراً واسماً وفعلاً . وقد يطلق على العبد أيضاً تَوَّابٌ ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . قال ابن العربي : ولعلمائنا في وصف الرب بأنه تَوَّابٌ ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز في حق الرب سبحانه وتعالى فيُدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول . وقال آخرون : هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى ؛ وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته ؛ وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك ، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

(١) هو عمرو بن أحرار الباهلي . (٢) الذي في شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى :

البر المطوية بالحجارة . قال الشنمري : « وصف في البيت رجلاً كانت بينه وبينه مشجرة في بر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكره ورمى أباه بمثله على برأتهما منه من أجل المشجرة التي كانت بينهما » .

السادسة — لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى : تائب ، اسم فاعل من تاب يتوب ؛ لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه ، أو نبيه عليه السلام ، أو جماعة المسلمين ، وإن كان في اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح في هذا الباب ، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » . وقال : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » . وإنما قيل لله عز وجل : تواب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعة — اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة ، لأن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بخلق الأعمال ؛ خلافا للمعتزلة ومن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علمائنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله جل وعز ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويمحط عنه ذنوبه « أَفَتَرَاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » .

الثامنة — قرأ ابن كثير : « فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ » . والباقون رفع آدم ونصب كلمات . والقراءتان ترجعان الى معنى ؛ لأن آدم إذا تلقى الكلمات فقد تلقته . وقيل : لما كانت الكلمات هي المتعذرة لادم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكان الأصل على هذه القراءة « فنلت آدم من ربه كلمات » ؛ لكن لما بعد ما بين المؤنث وفعله حسن حذف علامة التانيث . وهذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة ؛ ومنه قولهم : حضر القاضي اليوم امرأة . وقيل : إن الكلمات لما لم تكن تانيثا حقيقيا حمل على معنى الكلم ، فذكر . وقرأ الأعمش : « آدم من ربه » مدغما . وقرأ أبو نوفل بن أبي عقرب : « أنه » بفتح الهمزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر الباقيون على الاستئناف . وأدغم الهاء في الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم . وقيل : لا يجوز ،

لأن بينهما واوا في اللفظ لا في الخط . قال النحاس : أجاز سيويوه أن تحذف هذه الواو، وأنشد :

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ * إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرٌ^(١)

فعلى هذا يجوز الإدغام، وهو رفع بالابتداء . التواب خبره، والجملة خبر إن . ويجوز أن يكون هو توكيدا للهاء، ويجوز أن تكون فاصلة، على ما تقدم .

قال سعيد بن جبير : لما أهبط آدم الى الأرض لم يكن فيها شيء غير النسر في البر، والحيات في البحر؛ فكان النسر يأوى الى الحيات فيبيت عنده؛ فلما رأى النسر آدم قال : يا حيات ، لقد أهبط اليوم الى الأرض شيء يمشى على رجله ويبيض بيديه؛ فقال الحيات لئن كنت صادقا مالى منه في البحر ملجأ، ولا لك في البر منه مخلص ! .

قوله تعالى : قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (قُلْنَا أَهْبِطُوا) كرر الأمر على جهة التخليط وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قم قم . وقيل : كرر الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر؛ فعلق بالأول العداوة، وبالثاني إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأول من الجنة الى السماء ، والثاني من السماء الى الأرض . وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة في السماء السابعة، كما دل عليه حديث الإسراء، على ما يأتى .

(جَمِيعًا) نصب على الحال . وقال وهب بن منبه : لما هبط آدم عليه السلام الى الأرض قال إبليس للشیع : إن هذا عدو لكم فاهلكوه؛ فاجتمعوا وولوا أمرهم الى الكلب

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش حاجبا فيقول : إذا طلب وسيفته — وهى أثناء التى يضمها — صوت بها ، وكان صوته لما فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والطرب صوت حاد باهل يتغنى ويطربها ، أو صوت مزمار . والزجل صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحير في ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ، ففعل ؛ فلما رأت السباع أن الكلب ألف آدم تفرقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم ؛ فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذى الحكيم نحو هذا ، وأن آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض جاء إبليس الى السباع فأشلاه^(١) على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشدهم عليه الكلب ، فأमित فؤاده ؛ فروى في الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن اليه وألفه ؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده وبألفهم . وبموت فؤاده يفرغ من الآدميين ؛ فلورمى بمدبر ولى هاربا ثم يعود ألفا لهم . ففيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛ فهو بشعبة إبليس ينبج ويهز ويعدو على الآدمي ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولهنه على كل أحواله من موت فؤاده ؛ ولذلك شبه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكل ،^(٢) على ما يأتي بيانه في « الأعراف » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التي جعلها الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : (فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى) اختلف في معنى قوله : « هدى » ؛ فقيل : كتاب الله ، قاله السدى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهدى الرسل ، وهى الى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر ؛ كما جاء في حديث أبي ذر ، وخرجه الآجرونى . وفي قوله : « مِّنِّي » إشارة إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى ، خلافا للقدريّة وغيرهم ، كما تقدّم .^(٣) وقرأ الجحدري « هَدًى » وهو لغة هذيل ، يقولون : هَدًى وَعَصًى وَحَيًى . وأنشد النحويون لأبي ذؤيب يرثى بنيه :

سَبَقُوا هَوًى وَأَعْتَقُوا لَهْوَهمْ * فَتَخَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ^(٤)

(١) أشلاه : أغرام . (٢) هت الكلب : إذا أخرج لسانه من الثعب أو العطش .

(٣) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء . (٤) هوى . يريد هوى ، أى ماتوا قبل وكنت أحب

أن أموت قبلهم . وأعتقوا لهوهم ، جعلوه كأنهم هووا الذهاب إلى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهتدوا . فتخرموا ، أى أخذوا واحدا واحدا .

قال النحاس : وعلة هذه اللفظة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها ، فلما لم يحز أن تحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » في قوله : « إِمَّا » زائدة على إِنْ التي للشرط ، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله : « فَمَنْ تَبِعَ » . و « من » في موضع رفع بالابتداء . و « تبع » في موضع جزم بالشرط . (فَلَا خَوْفٌ) جوابه . قال سيبويه : الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول . وقال الكسائي : « فلا خوف عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل . وخافوني فلان خَفَّتْهُ ، أى كنت أشد خوفا منه . والتخوف : التَّقْصُّ ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » . وقرأ الزهري والحسن وعيسى بن عمرو ابن أبى إسحاق ويعقوب : « فلا خوف » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء ؛ لأن الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع ؛ لأن « لا » لا تعمل في معرفة ، فاختاروا في الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون « لا » في قولك : فلا خوف ، بمعنى ليس .

والْحُزْنُ وَالْحَزَنُ : ضِدُّ السُّرُورِ ، ولا يكون إلا على ماضٍ . وحزن الرجل (بالكسر) فهو حَزِنٌ وحزِينٌ ؛ وأحزنه غيره وحَزَنَهُ أيضا ، مثل أسلكه وسَلَكَهُ ؛ ومحزونٌ مُحْزَنٌ عليه . قال اليزيدي : حَزَنَهُ لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ؛ وقد قرئ بهما . واحتزنَ وتَحَزَّنَ بمعنى . والمعنى في الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أشركوا ؛ لقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾
 الصحبة : الاقتران بالشئ فى حالة تما ، فى زمان تما ؛ فان كانت الملازمة والخلطة فهى كمال
 الصحبة ؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لها . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة
 رضى الله عنهم إذ مراتبهم متباينة ، على ما نيينه فى «براءة» إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية
 تقدم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : يٰبَنِي إِسْرَآءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
 وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ نداء مضاف ، علامة النصب فيه الياء ، وحذفت منه
 النون للإضافة . الواحد آبن ، والأصل فيه بنى ، وقيل : بنو ؛ فمن قال : المحذوف منه واو
 احتج بقولهم : البنوة . وهذا لا حجة فيه ؛ لأنهم قد قالوا : الفتوة ، وأصله الياء . وقال
 الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه
 الواو لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بين البنوة ، والتصغير بنى . قال الفراء : يقال :
 يابنى ويابنى لفتان ، مثل يابى أبى ويابى أبى ؛ وقرئ بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع
 الشئ على الشئ ؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزى :
 وليس فى الأنبياء من له اسمان غيره ، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة .
 ذكره فى كتاب «فهوم الآثار» له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه أسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سماه روحا
 وكلمة ، وكانوا يسمونه أيل الأيلين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى دلائل
 النبوة عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو أسمين ، محمد وأحمد نبينا صلى الله عليه
 وسلم ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ،
 صلى الله عليهم وسلم .

قلت : قد ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء ، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ،
بيانها في مواضعها .

وإسرائيل اسم أعجمي ، ولذلك لم ينصرف ؛ وهو في موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع
لغات : إسرائيل ، وهي لغة القرآن . وإسرائيل بمدة مهموزة مختلطة ، حكاهما شَبُود عن
ورث . وإسرائيل بمدة بعد الياء من غير همز ، وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر ، وقرأ
الحسن والزهرى - بغير همز ولا مد . وإسرائيل بغير ياء بهمزة مكسورة . وإسرائيل بهمزة
مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائيل بالنون . ومعنى إسرائيل عبد الله . قال ابن عباس :
إسرا بالعبرانية هو عبد ، وإيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله ، وإيل هو الله . وقيل :
إسرا من الشد ؛ فكان إسرائيل الذي شده الله وأتقن خلقه ؛ ذكره المهدوي . وقال السهيلي :
سمى إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى ؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى
الله ونحو هذا ؛ فيكون بعض الاسم عبرانيا وبعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب
ضد النسيان ، والذكر باللسان ضد الإنصات . وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكرا . واجمله
منك على ذكر (بضم الذال) أى لا تنسه . قال الكسائي : ما كان بالضمير فهو مضموم
الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذكروا وذكر ،
ومعناها واحد . والذكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذكر أيضا الشرف ، ومنه قوله :
« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . قال ابن الأنباري : والمعنى في الآية أذكروا شكر نعمتي ، لحذف
الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب ، أى لا تنفلوا عن
نعمتي التي أنعمت عليكم ولا تناسوها ، وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس ، فهي مفردة بمعنى
الجمع ، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » أى نعمه . ومن نعمه عليهم أن
أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والحن والسوى ، وبغفر لهم

من الحجر المأء، الى ما استودعهم من التوراة التى فيها صفة مجد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته، والنعمة على الآباء نعم على الأبناء، لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تنبيه — قال أرباب المعانى : ربط سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى ذكره ، فقال : « أَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » ليكون نظر الأئمة من النعمة الى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم الى النعمة . قوله تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) أمر وجوابه . وقرأ الزهرى : أوف (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير . واختلف فى هذا العهد ما هو ، فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » ، وقوله : « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » . وقال الزجاج : أوفوا بعهدى الذى عهدت إليكم فى التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أوف بعهدكم بما ضمنتم لكم على ذلك ، إن أوفيتم به فلکم الجنة . وقيل : أوفوا بعهدى فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، أوف بقبولها منكم ومجازاتها عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدى فى العبادات ، أوف بعهدكم أى أوصلكم الى منازل الرعايات . وقيل : أوفوا بعهدى فى حفظ آداب الظواهر ، أوف بعهدكم بترين سرائركم . وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ، فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره . هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ، قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، « أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ » ، وهو كثير . ووفائهم بعهد الله أمانة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له ، بل ذلك تفضل منه عليهم .

قوله تعالى : (وَإِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أَدْلَمًا) أى خافون . والرَّهْبُ والرَّهْبَةُ : الخوف . ويتضمن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية . وقرأ ابن أبى

إسحاق : فارهبوني بالياء ، وكذا فاتقوني ، على الأصل . وإيأى منصوب بإضمار فعل ، وكذا الاختيار في الأمر والنهي والاستفهام ، التقدير : وإيأى ارهبوا فارهبون . ويجوز في الكلام وأنا فارهبون ، على الابتداء والخبر . وكون « فارهبون » الخبر على تقدير الحذف ، المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعالى : **وَأَمِنُوا بِمَا آتَيْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾**

قوله تعالى : **(وَأَمِنُوا بِمَا آتَيْنَا)** أى صدقوا ، يعنى بالقرآن . **(مُصَدِّقًا)** حال من الضمير في أنزلت ، التقدير بما أنزلته مصدقا ، والعامل فيه أنزلت ، ويجوز أن يكون حالا من ما ، والعامل فيه آمنوا ، التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون صدرية ، التقدير آمنوا بآياتي . **(لِّمَا مَعَكُمْ)** يعنى من التوراة .

قوله تعالى : **(وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ)** الضمير في به قيل هو عائذ على عهد صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو العالية . وقال ابن جريج : هو عائذ على القرآن ، إذ تضمنه قوله : **« بِمَا آتَيْنَا »** . وقيل : على التوراة إذ تضمنها قوله : **« لِّمَا مَعَكُمْ »** .

فإن قيل : كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين ، قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر . وزعم الأخفش والقراء أنه محمول على معنى الفعل ، لأن المعنى أول من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ، وكان ظاهر الكلام هو أظرف قتي وأجمله . وقال : أول كافر به ، وقد كان قد كفر قبلهم كفار قرش ، فانما معناه من أهل الكتاب ، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا ، لانهم حجة مظنون بهم علم . و « أول » عند سيبويه نصب على خبر كان . وهو ما لم ينطق منه بفعل . وهو على أفعل ، عينه وفاؤه واو . وإنما لم ينطق منه بفعل لثلاثي من جهتين العين والفاء ، وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من وآل إذا نجا ، فأصله أوائل ، خففت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت فقيلا أول ، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهري :

« والجمع الأوائل والأولى أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوَّلَ على فَوَّعَلَ ؛ فقلبت الواو الأولى همزة . وإنما لم يجمع على أوائل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » .
وقيل : هو أفعَلَ من آل يؤوَلُ ، فأصله أَوَّلُ ؛ قلب بجاء أعفل مقلوبا من أفعَلَ ، فسُهل وأبدل وأدغم .

مسئلة — لا حجة في هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم ؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أولا وآخرا ؛ وخص الأول بالذكر لأن التقديم فيه أغلظ ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا ؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أول من كفر وآلا يأخذوا على آيات الله ثمنا ، أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رِشَى . وكان الأخبار يفعلون ذلك فنهاهم عنه ؛ قاله قوم من أهل التأويل ، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم ما كل يأكلونها على العلم كالراتب ، فنهاهم عن ذلك . وقيل : إن الأخبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهاهم عن ذلك . وفى كتبهم : يابن آدم علم مجانا كما صُلمت مجانا ، أى باطلا بغير أجرة ؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهى وآياتى ثمنا قليلا ، يعنى الدنيا ومدتها والعيش الذى هو نزر لا خطرله ؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوضا ؛ فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنت حاولت ذنباً أو ظفرت به * فإصبت بترك الحج من ثمن

قلت : وهذه الآية وإن كانت خاصة بنبي إسرائيل فهى تناول من فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه

(١) فى نسخة من الأصل : « ... لأن الثقل منه أعظم » .

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل في مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من تعلّم علما مما يُبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة “ يعنى ربحها .

الثانية — وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — هذه الآية وما كان في معناها — ؛ فمنع ذلك الزهري وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص ؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : « وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » . وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين “ . وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول في المعلمين ؟ قال : ” درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء “ . وروى عبادة بن الصامت قال : علمت ناساً من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلى رجل منهم قوساً ، فقلت : ليست بمال وأرمى عنها في سبيل الله ، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : ” إن سرك أن تطوّق بها طوقاً من نار فأقبلها “ . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء ؛ لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس — حديث الرُّقبة — : ” إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله “ . أخرجه البخاري ؛ وهو نص يرفع الخلاف ، فينبغي أن يقول عليه .

وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه في مقابلة النص ؛ ثم إن بينهما فرقاً ، أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ؛ ويجوز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحاً أو شعراً أو غناء معلوماً بأجر معلوم ؛ فيجوز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل ؛ وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ، فيه خلاف ، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا .

فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك ، وقد يتعين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين ؛ لأن الصديق رضى عنه لما ولى الخلافة وعين لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فاخذ ثيابا وخرج إلى السوق ؛ فقبل له في ذلك ، فقال : ومن أين أتق على عيالي ! فردوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق ، ولا يصح منها شيء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن عكرمة عنه ؛ وسعيد متروك . وأما حديث أبي هريرة فرواه علي بن عاصم عن حماد بن سلمة عن أبي جرم عنه ؛ وأبو جرم مجهول لا يعرف ، ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرم ، وإنما رواه عن أبي المهزم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلي عن عبادة بن نسي عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند أهل العلم ولكنه له مناكير ، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أبي بن كعب من حديث موسى بن علي عن أبيه عن أبي ، وهو منقطع . وليس في الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأبي يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علمه الله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلمون كلما خلق الدين جددوه أعطوهم ولا تستأجروهم فتخرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار " .

(١) في نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثة — واختلف العلماء في حكم المصلى بأجرة ؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استؤجر في رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له في الفريضة . وقال الشافعي وأصحابه وأبو ثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعي : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ، على ما تقدم . قال ابن عبد البر : وهذا المسئلة معلقة من التي قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهذا أصل آخر من الكتاب في « براءة » إن شاء الله تعالى . وكره ابن القاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال ابن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب ؛ ويكره من الشعر ما فيه النحر والحناء والهجاء . قال أبو الحسن اللغوي : ويلزم على قوله أن يحيز الإجارة على كتبه ويحيز بيع كتبه . وأما الغناء والنوح فممنوع على كل حال .

الرابعة — روى الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا محمد ابن عمر بن الحكيث قال حدثنا علي بن وهب الهمداني قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه ؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت مني ؟ قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني ؛ قال : يا أمير المؤمنين أحيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عرفني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد ابن شهاب الزهري فقال : أصاب الشيخ وأخطأت ؛ قال سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم أنحرتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكهرتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم خدا على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعري ! مالنا عند الله ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله . قال : وأى مكان أجده ؟ قال :

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم فأى عباد الله أكرم ؟ قال : أولو المروة والنهى . قال له سليمان : فأى الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع ؟ قال : دعاء المحسن إليه للحسين . فقال : أى الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس ، وجُهد المقل^(١) ، ليس فيها من ولا أذى . قال : فأى القول أعدل ؟ قال : قول الحق عند من تخافه أو ترجوه . قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : فأى المؤمنين أحمق ؟ قال : رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنياه غيره . قال له سليمان : أصبت ، فما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : يا أمير المؤمنين أو تعفني ؟ قال له سليمان : لا ! ولكن نصيحة تلقيا إلى . قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم ! قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليهدين^{وَيُؤْتُوا} للناس ولا يكتُمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدعون الصلف وتمسكون بالمرقة وتقسمون بالسوية . قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حلّه وتضعه في أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ؟ قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك . قال : تتجني من النار وتدخلني الجنة . قال سليمان : ليس ذاك إلى ! قال له أبو حازم : فإلى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لي . قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره خير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك نخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى . قال له سليمان : قَطَّ ! قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت

(١) جهد المقل ، أى لدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرى عن قوس ليس لها وتر . قال له سليمان : أوصني ؛ قال : سأوصيك وأوجز : عظم ربك ، وزّده أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب [إليه] أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً أو ردّي عليك بذلاً ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاه] لنفسى ! إن موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألها ، فقالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير] ؛ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير . وذلك أنه كان جائعاً خائفاً لا يأمن ، فسأل ربه ولم يسأل الناس . فلم يفتن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع . فقال لإحدهما : اذهبي فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطت وجهها وقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ؛ فشق على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيت لنا» ولم يجد بداً من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال جائعاً مستوحشاً . فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها — وكانت ذات عجز — وجعل موسى يعرض مرة ويفض أخرى ؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كوني خلفي ، وأريني السمّت بقولك . فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهياً ؛ فقال له شعيب : اجلس يا شاب فتعش ؛ فقال له موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لم ! أما أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنني أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيتُ لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً . فقال له شعيب : لا يا شاب ، ولكنها عادتي وعادة آبائي : تقرّي الضيف ونظم الطعام . فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثتْ فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه ، وإن كان لحق في بيت المال فلي فيها نظراء ؛ فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة .

(٢) بذلاً ، أي راجياً بذلك وعطاءك .

(١) الزيادة عن مسند الدارمي .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . أنظروا إلى هذا الإمام الفاضل والخبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عوضاً ، ولا على وصيته بدلاً ، ولا على نصيحته صفداً ؛ بل بين الحق وصدع ، ولم يلحقه في ذلك خوف ولا فزع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يمتنع أحدكم هبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان » . وفي التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ » .

قوله تعالى : (وَإِيَّاىَ فَاتَّقَوْنَ) (٢) قد تقدم معنى التقوى . وقرئ فاتقون بالياء ، وقد تقدم . وقال سهل بن عبد الله : قوله : « وإيأى فاتقون » قال : موضع علمى السابق فيكم . « وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ » قال : موضع المكر والاستدراج ؛ لقول الله تعالى : « سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » . فما استثنى نبياً ولا صديقاً .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) اللبس : الخلط . لبست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بينه بمشكلة وحقه بباطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » . وفي الأمر لبسة ، أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول على رضي الله عنه للحارث بن حوط : يا حار إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء .

ترى الجليس يقول الحق تحسبه * رُشداً وهيئات فانظر ما به التبس
صدق مقاتله وأحذر عداوته * وألبس عليه أموراً مثل ما لبس

(١) الصفد (بالترك) : العطاء . (٢) راجع ص ١٦١ وما بعدها . (٣) العبارة هاهنا

غير واضحة . والذي في البحر لأبي حيان : « وقال سهل : وإيأى فارهبون موضع اليقين بمعرفته ، وإيأى فاتقون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .

وقال العجاج :

لَمَّا لَبَسَ الْحَقُّ بِالْجَنِّي * غَزِيَنَ وَاسْتَبْدَلَنَ زَيْدًا مِنِّي

روى سعيد عن قتادة في قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذي لا يُقبل غيره ولا يجزى إلا به — الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :
* وَكُتِبَ لِبَسَتِهَا بِكُتِبَةِ *

أنه من هذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا في معنى الآية أي لا تُنطوا ، ومنه لبس الثوب ؛ يقال : لبست الثوب ألبسه . ولباس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجعدي :

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى جِيدَهَا * تَنَتَّ عَلَيْهِ فَكَانَتْ لِبَاسًا

وقال الأخطل :

وَقَدْ لَبَسْتُ هَذَا الْأَمْرَ أَغْصَرَهُ * حَتَّى تَجَلَّ رَأْسِي الشَّيْبُ فَاشْتَعَلَ

واللبوس : كل ما يلبس من ثياب ودرع . قال الله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » . ولا لبست فلانا حتى عرفت باطنه . وفي فلان ملبس ، أي مستمتع . قال :
أَلَا إِنَّ بَعْدَ الْعُذْمِ لِرَّءِ قُنُوتٍ^(١) * وَبَعْدَ الْمَشِيبِ طَوْلٌ عُثْرٌ وَمَلْبَسًا
ولبس الكعبة والهودج : ما عليهما من لباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : (بِالْبَاطِلِ) الباطل في كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :
* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ *

وبطل الشيء يبطل بطلا وبطولا وبطلانا [ذهب ضياعا وخسرا]^(٢) ، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بطلا ، أي هدرا . والباطل : الشيطان . والبطل : الشجاع ، سمي بذلك لأنه يبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لَهُمْ لَوَاءٌ بِأَيْدِي مَاجِدٍ بَطِيلٍ * لَا يَقْطَعُ الْخَرْقَ إِلَّا طَرَفُهُ سَامِي

(١) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكسبة . (٢) الزيادة من اللسان .

والمرأة بَطْلَة . وقد بَطَلَ الرجل (بالضم) يَبْطُلُ بَطُولَةً وَبَطَالَةً ، أى صار شجاعاً . وبَطَلَ الأجير بالفتح بَطَالَةً ، أى تعطل ، فهو بَطَال . واختلف أهل التأويل في المراد بقوله : « أَلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » ؛ فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخطئوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل ، وهو التغير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : عهد مبعوث ولكن الى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حق ، ومحمد أنه بُعث إليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر عهد عليه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخطئوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان . قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على تلبسوا فيكون مجزوماً ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن ، التقدير لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ، أى وأن تكتموه . قال ابن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سيرين : نزل عصابة من ولد هارون يثرب لما أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدو عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدقون بنبوته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة في موضع الحال ، أى أن محمداً عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليب الذنب على من واقعته على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾
فيه أربع وثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر معناه الوجوب ، ولا خلاف فيه ؛ وقد تقدم القول في معنى إقامة الصلاة واشتقاقها وفي جملة من أحكامها ، والحمد لله .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمر أيضا يقتضي الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيته : أعطيته ؛ قال الله تعالى : «لَيْنَ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ» . وآتيته — بالفصر من غير مد — جئت به ؛ فإذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مُدْبِ ومنه الحديث : «ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أخبرنه» ؛ وسيأتي .

الثالثة — الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرع والمال يزكو : إذا كثر وزاد . وزجل زكى ، أى زائد الخير . وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى . ويقال : زرع زالك بين الزكاء ؛ وزكأت الناقة بولدها تركاً به إذا رمت به من بين رجلها . وزكا الفرد : إذا صار زوجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعاً . قال الشاعر :

كانوا خساً أو زكاً من دون أربعة * لم يخلقوا وجدود الناس تَعَلَّجُ

جمع جَد وهو الحظ والبخت . تعلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . نخساً : الفرد ، وزكاً : الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل ؛ ومنه زكى القاضى الشاهد . فكان من يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ، أى طهر من دنس الجرحمة والإغفال ؛ فكان الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للساكنين . ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم سُمى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس ؛ وقد قال تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» .

الرابعة — واختلف في المراد بالزكاة هنا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتها بالصلاة .

وقيل : صدقة الفطر ؛ قاله مالك في سماع ابن القاسم .

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة في الكتاب مجملة بينها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمة عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 "ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق^(١) ولا فيما دون خمس ذود صدقة ولا فيما دون خمس أواق صدقة". وقال البخاري : "خمس أواق من الورق". وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً^(٢) العشر وما سقى بالتضع نصف العشر"^(٣). وسيأتي بيان هذا الباب في «الأنعام» إن شاء الله تعالى.
 ويأتي في «براءة» زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذي لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً». وأما زكاة الفطر فليس لها في الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا ، وقوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى». والمفسرون يذكرون الكلام عليها في سورة «الأعلى» ؛ ورأيت الكلام عليها في هذه السورة عند كلامنا على آي الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر في رمضان ، الحديث . وسيأتي ، فأضافها الى رمضان .

الخامسة — قوله تعالى : ((وَأَرْكَعُوا)) الركوع في اللغة الانحناء في الشخص . وكل منحن راكم . قال لييد :

أَخْبَرَ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ * أَدَبٌ كَأَنِّي كَلِمَاتِ رَاكِعٍ

وقال ابن دُرَيْد : الركعة الهوة في الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحاء يعم الركوع والسجود ؛ ويستعار أيضا في الانحطاط في المنزلة . قال :

وَلَا تُعَادِ الضَّعِيفَ طَلَّكَ أَنْ * تَرْكَعُ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

- (١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين الى التسع . وقيل : ما بين الثلاث الى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها .
 (٣) العثري (يفتح المهملة والتاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ابن الأثير : «هو من النخيل الذي يشرب بعروقه من ماء المطر مجتمع في حفيرة . وقيل : هو العنبد (الزروع الذي لا يسقى الا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقبل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسقى سبعا ، والأول أشهر» . (٤) النضح (يفتح النون وسكون العجمة بعدها مهملة) : ما سقى من الآبار .

السادسة - واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذِّكْر؛ فقال قوم : جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت : وهذا ليس مختصا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة في الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بكاملها؛ فقال : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى عليه وسلم : "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة" . وأهل المجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذِّكْر لأن بنى إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع . وقيل : لأنه كان أثقل على القوم في الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم - أظنه عمران ابن حصين - للنبي صلى الله عليه وسلم : على ألا أحرز إلا قائما . فن تأويله على ألا أركع . فلما تمكن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتلأ ما أمر به من الركوع .

السابعة - الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راکما يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا، وذلك أدناه . روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ؛ وكان إذا ركع لم يُشِخص رأسه ولم يُصَوِّبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره، الحديث .

الثامنة - الركوع فرض قرآنا وسنة ، وكذلك السجود ؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : « أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا » . وزادت السنة الطمأنينة فيهما والفصل بينهما . وقد تقدم القول فى ذلك، وبيننا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبينا من حديث أبى حميد الساعدى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض ونحى يديه عن جنبه ووضع كفيه حذو منكبيه . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(١) الإشخاص : الرفع . والتصويب : الخفض . (٢) هصر ظهره؛ أى ثناه الى الأرض .

انبساط الكلب“ . وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إذا سجدت فضع كفك وارفع مرفقك“ . وعن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خوى يديه - يعني جنح حتى يرى وضح إبطيه من ورائه - وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى .

الناسعة - واختلف العلماء فيمن وضع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثوري وأحمد ، وهو قول النخعي . قال أحمد : لا يميزه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو حنيفة ^(١) وابن أبي شبة . قال إسحاق : إن سجد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يميز أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سيرين والحسن البصري ؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال ابن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبي حميد ، وقد تقدم . وروى البخاري عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة - وأشار بيده على أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا تكف الثياب والشعر“ . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعين القول به . والله أعلم . وروى عن مالك أنه يميزه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأول ، ولا يميز عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

(١) في نسخة : «أبرخشة» .

(٢) لا تكفت . أي لا تفضيها ونجمها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

العاشرة — ويكره السجود على كور العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقين ، مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه ، فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله في الصلاة ، فإن لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . روى مسلم عن معيقب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الرجل يسوي التراب حيث يسجد قال : "إن كنت فاعلا فواحدة" . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدة الحر ؛ فإذا لم يستطع أحدنا أن يمتك جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحادية عشرة — لما قال تعالى : « أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا » قال بعض ملهائنا وغيرهم : يكفي منها ما يسمى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك ؛ فاخذوا بأقل الاسم في ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة . قال ابن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدين حتى يتنبدل راكما وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح في الأثر ، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر ؛ وهي رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة ؛ وهو وهم عظيم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلمها . فإن كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد انتهى العلم اليك وقامت الحججة به عليكم ! روى النسائي والدارقطني وعلي بن عبد العزيز عن رفاع بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل فدخل المسجد يصلي ، فلما قضى الصلاة جاء فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إرجع فصل فإنك لم تصل " وجعل الرجل يصلي وجعلنا نرتقي صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلما جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " وعليك إرجع فصل فإنك لم تصل " قال همام : فلا ندرى ، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل :

ما ألوت ، فلا أدري ما عبت على من صلاتي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله تعالى ويُنثي عليه ثم يقرأ أم القرآن وما أذن له فيه وتيسر ثم يكبر فيركع فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترنخي ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صلبه يأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه — قال همام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترنخي ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعده وقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ، ثم قال : — لا تم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبي هريرة أخرجه مسلم ، وقد تقدم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة في الكتاب بتعليم النبي عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فن لم يقف عند هذا البيان وأخل بما فرض عليه الرحمن ، ولم يتثل ما يلغه عن نيته عليه السلام كان من جملة من دخل في قوله تعالى : « تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » . على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صليت ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها هذا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : (مَعَ الرَّاٰكِبِينَ) مع تفتضي المعية والجمعية ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين ؛ فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدام التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة المنفرد في بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . وروى عن أبي هريرة رضي الله

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بنجمة وعشرين جزءاً " . وقال داود : الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة ؛ واحتج بقوله عليه السلام : " لا صلاة لحار المسجد إلا في المسجد " خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثور وغيرهم . وقال الشافعي : لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر ؛ حكاه ابن المنذر . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله ، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ؛ فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصل في بيته ؛ فرخص له ؛ فلما ولى دعاه فقال : ^(١) [هل تسمع النداء بالصلاة] قال نعم ؛ قال : " فأجب " . وقال أبو داود في الحديث : " لا أجعل لك رخصة " . خرجه من حديث ابن أتم مكتوم ؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العذر ؟ قال : خوف أو مرض — لم تقبل منه الصلاة التي صلى " . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه مغراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس : " من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له " . على أن قاسم بن أصبغ ذكره في كتابه فقال : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر " . وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود : ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام : " بيننا وبين المنافقين شهود التهمة والصبح لا يستطيعونهما " . قال ابن المنذر : ولقد رويناه عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : " من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له " منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعري . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

الله صلى الله عليه وسلم : "لقد هممت أن أمر فتيتي فيجمعوا حُرماً من حطب ثم آتى قوما يصلون في بيوتهم ليست لهم علة فأحرقها عليهم" . هذا ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة فرضاً ، وهي ظاهرة في الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة ؛ بدليل حديث ابن عمر وأبي هريرة . وحملوا قول الصحابة وما جاء في الحديث من أنه لا صلاة له على الكمال والفضل ؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم : "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت" لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه هم ولم يفعل ؛ وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للناقضين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة والجمعة . يبين هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبد الله قال : « من سره أن يلقي الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ؛ ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضلّتم ؛ وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف^(١) . فبين رضى الله عنه في حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه ضلال ؛ ولهذا قال القاضي أبو الفضل عياض : اختلف في التماثل على ترك ظاهر السنن ؛ هل يقاتل عليها أولاً ؛ والصحيح قتالهم ؛ لأن في التماثل عليها إمامتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السنة وظهرت جازت صلاة المفرد وصحت . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهز^(٢) إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يحط خطوة إلا رفع له بها درجة

(١) معناه : بمسكة رجلان من جانيه بعضديه يعتمد عليهما . (٢) النهز : الدفع . أى لا يقيم من موضعه .

وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون اللهم أرحمه اللهم أغفر له اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يتحدث فيه . قيل لأبي هريرة : ما يتحدث ؟ قال : يفسو أو يضطرب .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء في هذا الفضل المضاف للجماعة ؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التي تكون في المسجد ؛ لما يلزم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء في الحديث ؛ قولان . والأول أظهر ، لأن الجماعة هو الوصف الذي علق عليه الحكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطأ إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام ؟ فقال مالك : لا ، وقال ابن حبيب : نعم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما أكثر فهو أحب إلى الله " . رواه أبي بن كعب وأخرجه أبو داود ، وفي إسناده لين .

الخامسة عشرة — واختلفوا أيضا فيمن صلى في جماعة هل يعيد صلاته تلك في جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة في جماعة مع الإمام من صلى وحده في بيته وأهله أو في غير بيته ؛ وأما من صلى في جماعة وإن قلت فإنه لا يعيد في جماعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وداود بن علي : جائز لمن صلى في جماعة ووجد جماعة أخرى في تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء ، لأنها نافلة وسنة . وروى ذلك عن حذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري وأنس بن مالك وصلة ابن زفر والشعبي والنخعي ؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا تُصَلِّي صلاةً في يوم مرتين " . ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يسار عن ابن عمر . وافق أحمد وإسحاق على أن معنى

هذا الحديث أن يصلي الإنسان الفريضة ، ثم يقوم فيصليها ثانية ينوي بها الفرض مرة أخرى ؛ فأما إذا صلاها مع الإمام على أنها سنة وتطوع فليس بإعادة الصلاة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة في جماعة : ”إنها لكم نافلة“ . من حديث أبي ذر وغيره .

السادسة عشرة - روى مسلم عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”يَوْمَ الْقِسْمِ أَعْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسَّنَةِ فَإِنْ كَانُوا فِي السَّنَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةَ فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا وَلَا يُؤْتَمَنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ“ وفي روايه ”سِنًا“ مكان ”سِلْمًا“ . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : قلت لاسماعيل ما تكرمته ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذي وقال : حديث أبي مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق الناس بالإمامة أَعْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِالسَّنَةِ . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلي به ؛ وكرهه بعضهم وقالوا : السنة أن يصلي صاحب البيت . قال ابن المنذر : رويتنا عن الأشعث ابن قيس أنه قدم غلاما وقال : إنما أقدم القرآن . ومن قال : يَوْمَ الْقِسْمِ أَعْرُوهُمْ ابْنُ سِيرِينَ وَالثَّوْرِيُّ وَإِسْحَاقُ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ . قال ابن المنذر : بهذا نقول لأنه موافق للسنة . وقال مالك : يتقدم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة ، وإن للسن حق . وقال الأوزاعي : يؤتمهم أفقهم ؛ وكذلك قال الشافعي وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينويه من الحوادث في الصلاة . وتأولوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ؛ لأنهم كانوا يتفقهون في القرآن ، وقد كان من عرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقراء ؛ واستدلوا بتقديم النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنما قدمه النبي صلى الله عليه وسلم ليبدل على أنه خليفته بعده . ذكره أبو عمر في التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا سافرتم فليؤتمكم أقرؤكم وإن كان أصغرکم وإذا أتمکم فهو أميرکم» . قال : لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبي هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً . ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال : كنا بماء ممز الناس وكان يميز بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقر في صدري ؛ وكانت العرب تلوم بإسلامها فيقولون : أتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبي الله حقاً ، قال : «صلوا صلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً» . فنظروا فلم يكن أحد أكثر من قرآناً لما كنت ألتقي من الركبان ، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكانت علي بردة إذا سجدت تقلصت عني ، فقالت امرأة من الحنابلة : ألا تنظرون عنا آست قارئكم ! فاشترى قطعوا لي قميصاً ، فما فرحت بشيء فرحت بذلك القميص . ومن أجاز إمامة الصبي خير البالغ الحسن البصري وإسحاق بن راهوية ، واختاره ابن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله في جملة قوله صلى الله عليه وسلم : «يؤم القوم أقرؤهم» ولم يستثن ، ولحديث عمرو ابن سلمة . وقال الشافعي في أحد قوليهِ : يؤم في سائر الصلوات ولا يؤم في يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزاء إمامته في المكتوبة أجزاء إمامته في الأعياد ، غير أني أكره فيها إمامة غير الوالي . وقال الأوزاعي : لا يؤم الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتمل ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهري : إن اضطروا إليه أتمهم . ومنع ذلك جملة مالك والثوري وأصحاب الرأي .

السابعة عشرة - الاتمام بكل إمام بالغ مسلم حر على استقامة جائز من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أم القرآن لحناً يخل بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) في الأصول : «ألا تنظروا ...» بحذف النون ، ولا مقتضى له . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل

(ج ٥ ص ٧١) طبع مصر : «فقالت امرأة : خطوا آست قارئكم» .

من « إياك نعبد » ويضم التاء في « أنعمت » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد؛ وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخص في ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأم مثله . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خنثى مشكل ولا كافر ولا مجنون ولا أحمى ، ولا يكون واحد من هؤلاء إماما بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتي ذكره ، إلا الأحمى مثله . قال علماءنا : لا تصح إمامة الأحمى الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أم أميا مثله صححت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلى الأحمى يقوم يقرءون ويقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة ، وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة لأن كلاً مؤدى فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى يقوم قيام صلاتهم مجزئة في قول من خالفنا ، لأن كلاً مؤدى فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلى] كيف يصلى فأنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبي رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ كبر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبر وركع وسجد وهى خلفه تصلى . وروى هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع والخصى والعبد إذا كان كل واحد منهم طالما بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه متقص عن درجة الكمال ، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ، لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة بفازت الإمامة الرتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصى قياسا ونظرا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس ابن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان ابن عباس وعثمان بن مالك يؤمان وكلاهما أعمى ، وعليه عامة العلماء .

التاسعة عشرة — واختلفوا في إمامة ولد الزنا؛ فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتباً . وكره ذلك عمر بن عبد العزيز . وكان عطاء بن أبي رباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضياً ، وهو قول الحسن البصري والزهري والنخعي وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد وإسحاق . ويجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأي ، وغيره أحب إليهم . وقال الشافعي : أكره أن ينصب إماماً راتباً من لا يعرف أبوه ، ومن صلى خلفه أجزاء . وقال عيسى بن دينار : لا أقول بقول مالك في إمامة ولد الزنا وليس عليه من ذنب أبويه شيء . ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان في نفسه أهلاً للإمامة . قال ابن المنذر : يؤم لدخوله في جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يؤم القوم أقرؤهم “ . وقال أبو عمر : ليس في شيء من الآثار الواردة في شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب ؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح في الدين .

الموفية عشرين — وأما العبد فروى البخاري عن ابن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأولون العصبية — موضع بقاء — قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤتمهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآناً . وعنه قال : كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد بقاء ، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعاصم ابن ربيعة ؛ وكانت عائشة يؤتمها بعدها ذكوان من المصحف . قال ابن المنذر : وأتم أبو سعيد مولى أبي أسيد — وهو عبد — نقرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم حذيفة وأبو مسعود .

ورخص في إمامة العبد النخعي والشعبي والحسن البصري والحكم والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي ؛ وكره ذلك أبو حنبل . وقال مالك : لا يؤتمهم إلا أن يكون العبد قارئاً ومن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون في عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤتمهم فيها ؛ ويجزئ عند الأوزاعي إن صلوا وراءه . قال ابن المنذر : العبد داخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم : ” يؤم القوم أقرؤهم “ .

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخاري عن أبي بكر قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : ” لن يفلح قوم ولّوا أمرهم

امرأة“ . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلاد عن أم ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها في بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذن لها وأمرها أن تقيم أهل دارها . قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال ابن المنذر : والشافعي يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المزني .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ^(١) ابن أبي عمير جواز إمامتها للنساء . وأما الخنثى المشكل فقال الشافعي : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانية والعشرون — الكافر المخالف للشرع كاليهودي والنصراني يؤم المسلمون وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعي وأحمد يقولان : لا يحزهم ويعيدون . وقاله مالك وأصحابه لأنه ليس من أهل القرية . وقال الأوزاعي : يعاقب . وقال أبو ثور والمزني : لا إعادة على من صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلما عند الشافعي وأبي ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخاري عن الحسن : صلّ وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواء . وقال مالك : ويصلى خلف أئمة الجور ، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . قال ابن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم من هذه صفته .

الرابعة والعشرون — وأما الفاسق يجوارحه كالزاني وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال ابن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فانه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالي الذي تؤدى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

(١) في نسخة «ابن أبي عمير» .

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تؤمن امرأة رجلا ولا يؤمن أعرابي مهاجرا ولا يؤمن فاجر برا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه علي بن زيد بن جُدعان عن سعيد بن المسيب ، والأكثر يضعف علي بن زيد . وروى الدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تزكو صلاتكم فقدموا خياركم " . في إسناده أبو الوليد خالد بن اسماعيل المخزومي وهو ضعيف ، قاله الدارقطني . وقال فيه أبو أحمد بن عدي : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جريح عن عطاء عن أبي هريرة . وذكر الدارقطني عن سلام بن سليمان عن عمر بن محمد بن واسع عن سعيد ابن جبير عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوا أئمتكم خياركم فانهم وفد فيما بينكم وبين الله " . قال الدارقطني : عمر هذا هو عندي عمر بن يزيد قاضي المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائني ليس بالقوي ، قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه فاذا كبر فكبروا واذا ركع فاركعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد واذا سجد فاسجدوا واذا صلى جالسا فصلوا جالوسا أجمعون " . وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدا على قولين ، أحدهما : أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو في أكثرها ، وهو قول أهل الظاهر وروى عن ابن عمر ؛ ذكر سنيد قال حدثنا ابن عُلَيَّة عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الورد الأنصاري قال : صليت الى جنب ابن عمر ففعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلم الإمام أخذ ابن عمر بيدي فلوانى وجذبني ، فقلت : مالك ! قال : من أنت ؟ قلت : فلان بن فلان ، قال : أنت من أهل بيت صدق ! فإيمنك أن تصلي ؟ قلت : أو ما رأيتني الى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن سحرة فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

لم يعتد بذلك ولم يجهزه . وقال أكثر الفقهاء : من فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته ؛ لأن الأصل في صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سنة حسنة ، فمن خالفها بعد أن أدى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وإن أسقط بعض سننها ؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلي قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه ؛ وبئس ما فعل في تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل في صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن في ركعة وإمامه في أخرى فقد اقتدى وإن كان يرفع قبله ويخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع وبسجوده يسجد ويرفع وهو في ذلك تبع له ، إلا أنه مسمى في فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام ؛ لأن الإتيان بالحسنى والشرعى مفقود ، وليس الأمر هكذا عند أكثرهم . والصحيح في الأثر والنظر القول الأول ؛ فإن الإمام إنما جعل ليؤتم به ويقتدى به بإفعاله ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » أى يأتون بك ، على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا ، فمن خالف إمامه لم يتبعه ؛ ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين فقال : ” إذا كبر فكبروا ” الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب وهو المبين عن الله مراده . ثم أورد من رفع أو ركع قبل وعيدا شديدا فقال : ” أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار ” . أخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ” . يعنى مردود . فمن تعمد خلاف إمامه علما بأنه مأمور باتباعه منهى عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف ما أمر به ؛ فواجب أن لا تجزى عنه صلاته تلك ، والله أعلم .

السادسة والعشرون — فان رفع رأسه ساهيا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سها ففعل ذلك في ركوع أو في سجود أن يرجع راکما أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ من فعله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إنما جعل الإمام ليؤتم به

فلا تختلفوا عليه“ . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامداً ؛ لقوله : وذلك خطأ من فعله ؛ لأن السأى الإثم عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام ، أما السلام فقد تقدم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام ، إلا ما روى عن الشافعى فى أحد قوله : أنه إن كبر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى الصلاة فلما كبر أنصرف وأما اليهم ، أى كما أتم ؛ ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم ؛ فلما أنصرف قال : ”إني كنت جنباً فنسيت أن أغتسل“ . ومن حديث أنس «فكبر وكبرنا معه» وميأتى بيان هذا عند قوله تعالى : «ولا جنباً» فى النساء إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — روى مسلم عن أبى مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمح مناكبنا فى الصلاة ويقول : ”استؤوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليلقى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم“ . قال أبو مسعود : فأتى اليوم أشد اختلافاً . زاد من حديث عبد الله : ”وإياكم وهيشات الأسواق“ . قوله : ”استؤوا“ أمر بتسوية الصفوف وخاصة الصف الأول وهو الذى يلي الإمام ، على ما يأتى بيانه فى سورة «الحجر» إن شاء الله تعالى . وهناك يأتى الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — واختاف العلماء فى كيفية الجلوس فى الصلاة لاختلاف الآثار فى ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : يُفضى المصلى باليتيه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثنى رجله اليسرى ؛ لما رواه فى موطنه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس فى التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وركه الأيسر ولم يجلس على قدمه ، ثم قال : أراى هذا عبد الله بن عمر ، وحدثنى أن أباه كان يفعل ذلك .

(١) الهيشة (مثل الموشة) : الاختلاط والمنازعة وارتفاع الأصوات .

قلت : وهذا المعنى قد جاء في صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يُشخص رأسه ولم يُصوبه ، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائماً ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالساً ، وكان يقول في كل ركعتين التحية ، وكان يفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينهى عن عقبة^(١) الشيطان ، وينهى أن يفرش الرجل ذراعيه افتراش السبع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حجر ، وكذلك قال الشافعي وأحمد وإسحاق في الجلسة الوسطى . وقالوا في الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبي حميد الساعدي رواه البخاري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقرة مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجله القبلة ، وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس في الركعة الآخرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبري : إن فعل هذا فحسن ، كل ذلك قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبي مريم عن علي بن عبد الرحمن المَعَاوِي أنه قال : رآني عبد الله بن عمر وأنا أعبت بالخصباء في الصلاة ، فلما انصرف نهاني فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال ابن الأثير : « هو أن يضع أليته على عقبيه بين السجدين ، وهو الذي يجعله بعض الناس الإهفاء . » وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مضمولين في الوضوء . »

كلها وأشار بأصبعه التي تلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على نغذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبد البر : وما وصفه ابن عمر من وضع كفه اليمنى على نغذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها ، ووضع كفه اليسرى على نغذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مجمع عليه ، لا خلاف عليه بين العلماء فيها ، وحسبك بهذا . إلا أنهم اختلفوا في تحريك أصبعه السبابة ؛ فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهم من لم يره . وكل ذلك مروى في الآثار الصحاح المسندة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمد لله . وروى سفيان ابن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدثناه عن مسلم ثم لقيناه فسمعته منه وزادني فيه : قال : " هي مذبة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بأصبعه ويقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود في حديث ابن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بأصبعه إذا دعا ولا يحركها . وإلى هذا ذهب بعض العراقيين ، فنع من تحريكها . وبعض علمائنا رأوا أن مدحها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها ، إلا أنهم اختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين ؛ تأول من والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة ، وبأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتي الشهادة ، وتأول في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد ، والله أعلم .

الحادية والثلاثون — واختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة ؛ فقال مالك : هي كالرجل ، ولا تخالفه فيما بعد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوري : تسدل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النخعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها . وهو قول الشعبي : تقعد كيف تيسر لها . وقال الشافعي : تجلس بأستر ما يكون لها .

الثانية والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنا لأبن عباس في الإقعاء على القدمين ؛ فقال : هي السنة ؛ فقلنا له إنا نراه جفاء بالرجل ؛ فقال ابن عباس : [بل] هي سنة^(١) نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف العلماء في صفة الإقعاء ما هو ؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبا نخذه مثل إقعاء الكلب والسبع . قال ابن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهل الحديث فانهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدين . قال القاضي عياض : والأشبه عندي في تأويل الإقعاء الذي قال فيه ابن عباس إنه من السنة ، الذي فسره الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدين ؛ وكذا جاء مفسرا عن ابن عباس : من السنة أن تمس عقبك أليتك . رواه إبراهيم بن مهسرة عن طاوس عنه ، ذكره أبو عمر . قال القاضي : وقد روى عن جماعة من السلف والصحابه أنهم كانوا يفعلونه ، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسموه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يقعون بين السجدين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم وعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض ، إلا ما روى عن الحسن بن حي أنه أوجب التسليمتين معا . قال أبو جعفر الطحاوي : لم يحك عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا الى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال ابن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح في إيجابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قوله صلى الله عليه وسلم : ” تحليلها التسليم ” . ثم بين كيف التسليم فكان يسلم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : ” تحليلها التسليم ” قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها اسم تسليم .

قلت : هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره ، ولما كان الدخول في الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة ، إلا أنه تواردت السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حجر الحضرمي وحديث عمار وحديث البراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدراوردي كلهم عن عمرو بن يحيى المازني عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع بن حبان قال قلت لابن عمر : حدثني عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت ؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه ، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه ، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهذا إسناد مدني صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة ، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر ، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل في كل بلد ؛ لأنه لا يخفى لوقوعه في كل يوم مرارا . وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف في المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبي وقاص وعائشة وأنس ، إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدارقطني عن ابن مسعود أنه قال : من السنة أن يخفى التشهد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو : التحيات لله الزيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واختار الشافعي وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : ” التحيات المباركات الصلوات الطيبات

الله، السلام عليك أيها النبي - ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله " . واختار الثوري والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذي رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قصد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي - ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فإذا قالها أصابت كل عبد [لله] صالح في السماء والأرض - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء " . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه . وروى عن أبي موسى الأشعري مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود . وهذا كله اختلاف في مباح ليس شيء منه على الوجوب، والحمد لله وحده . فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز : « وأركعوا مع الراكعين » . وسيأتي القول في القيام في الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » . ويأتي هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة، ويأتي في « آل عمران » حكم صلاة المريض غير الإمام ، ويأتي في « النساء » في صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتي في سورة « مريم » حكم الإمام يصلي أرفع من المأموم ، لم يغير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » . وقد تقدم في أول السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسُوا أَنْ تَكْتُبَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

فيه تسع مسائل :

الشام في تجارته . قال يحيى بن معين : هو صالح الحديث ، فقد رواه مسلم في صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” يَأْتِي بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيلِقِي فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ [بِالرَّحَى] ^(١) فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ مَا لَكَ أَلَمْ [تَكُنْ] ^(١) تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتُهُ “ .

القُصْبُ بضم القاف : المِئى ، وجمعه أقصاب . والأقْتَابُ : الامعاء ، وأحدهما قُتْب . ومعنى فتندلق : فتخرج بسرعة . وروينا فتندلق .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح والفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالماً بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد من لم يعلمه ؛ وإنما ذلك لأنه كالْمُسْتَهْيِنِ بِحُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، ومستخف بأحكامه ، وهو ممن لا يلتفت بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعِهِ اللَّهُ بِعِلْمِهِ “ . أخرجه ابن ماجه في سننه .

الثالثة — اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوما كانوا يأمرُونَ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ؛ ويَتَّبِعُهُمْ بِهِ تَوْبِيخًا يَتَلَى عَلَى طُولِ الدَّهْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إِنْ قَوْمًا يَأْمُرُونَ * بِالَّذِي لَا يَفْعَلُونَ

لِحَاجَتَيْنِ وَإِنْ هُمْ * لَمْ يَكُونُوا يَصْرَعُونَ

وقال أبو العتاهية :

وَصَفَّتِ التَّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تَقَى * وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تنهى عن خلق وتأتى مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم
وأبدأ بنفسك فأنها عن غيرها * فان اتهمت عنه فانت حَكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى * بالقول منك وينفع التعليم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الخيري الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته ، فناداه رجل كان يعرف بابي العباس ، ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقي يأمر الناس بالتسقي * طيب يداوى والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضعج .

الرابعة — قال إبراهيم النخعي إني لأكره القصص لثلاث آيات ؛ قوله تعالى :

« أتأمرون الناس بالبر » الآية ، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » ، وقوله : « وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ » . وقال سلم بن عمرو :

ما أقبح الترهيد من واعظ * يزهّد الناس ولا يزهّد

لو كان في ترهيده صادقا * أضحي وأمسي بيته المسجد

إن رفض الدنيا فما باله * يستمنح الناس ويسترفد

والرزق مقسوم على من ترى * يناله الأبيض والأسود

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله : عظ أصحابك ؛ فقال إني أخاف أن أقول ما لا أفعل ؛

قال : يرحمك الله ! وأيتنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد

بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير

يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر

(١) كذا في الأصول . والصحيح أن الآيات للجهاد ، وهو ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغانى (ج ٤

ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية . (٢) كذا في الأغانى . وفي الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعروف ولا نهى عن منكرك . قال مالك : وصدق ، من ذا الذى ليس فيه^(١) شيء ! .

الخامسة — قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . والبر : الصدق .
والبر : ولد الثعلب . والبر : سوق الغنم ، ومنه قولهم « لَا يَعْرِفُ هِرًّا مِنْ بَرٍّ » أى لا يعرف
دعاء الغنم من سوقها . فهو مشترك ، وقال الشاعر :

لَا هُمْ رَبٌّ إِنْ بَكَرَا دُونَكَ * يَبْرُكُ النَّاسُ وَيَفْجُرُونَكَ^(٢)

أراد بقوله : يبرك الناس ، أى يطيعونك . ويقال : إن البر الفؤاد فى قوله :
أَكُونُ مَكَانَ الْبَرِّ مِنْهُ وَدُونَهُ^(٣) * وأجعل مالى دونه وأوامره
والبر بضم الباء معروف ، وبفتحها الإجلال والتعظيم ، ومنه ولد بر وبار ، أى يعظم والديه
ويكرمهما .

السادسة — قوله تعالى : « وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » أى تتركون . والنسيان بكسر النون
يكون بمعنى الترك ، وهو المراد هنا ، وفى قوله تعالى : « تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » ، وقوله : « فَلَمَّا
تَسُوا مَاذُكُّرُوا بِهِ » ، وقوله : « وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » . ويكون خلاف الذكر
والحفظ ، ومنه الحديث : « نسي آدم فنسي ذريته » . وسيأتى . يقال : رجل نسيان (بفتح
النون) : كثير النسيان للشيء . وقد نسيت الشيء نسيانا ، ولا تقل نسيانا بالتحريك ، لأن
النسيان إنما هو تنسية نسا العرق . وأنفس : جمع نفس ، جمع قلة . والنفس : الروح ،
يقال : خرجت نفسه ، قال أبو خراش :

نَجَا سَالِمٌ وَالنَّفْسُ مِنْهُ بِشِدْقِهِ * وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا جَفَنُ سَيْفٍ وَمِثْرَا

أى يجفن سيف ومِثْر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى
الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » يريد الأرواح ، فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك

(١) فى نسخة : « عليه » .

(٢) كذا فى البحر المحيط لأبي حيان . وفى الأصول : « بكوا » بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » .

(٣) كذا فى الأصول واللسان مادة « بر » . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمى ودونه *

يُن في قول بلال للنبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام في حديث زيد بن أسلم : ” إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا في حين غير هذا “ . رواها مالك ؛ وهو أولى ما يقال به . والنفس أيضا الدم ؛ يقال : سالت نفسه ؛ قال الشاعر ^(١) :

تسيل على حدّ السيوف نفوسنا * وليست على غير الطُّبّات تسيل

وقال إبراهيم النخعي : ما ليس له نفس سائلة فانه لا ينجس الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد ؛ قال الشاعر ^(٢) :

نُبِّئت أن بنى سَحيم أدخلوا * أبياتهم تأمورَ نفسِ المنذرِ

والتأمور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تُتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ توبخ عظيم لمن فهم . وتتلون : تقرأون . الكتاب : التوراة . وكذا من فعل فعلهم كان مثلهم . وأصل التلاوة الاتباع ، ولذلك استعمل في القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض في حروفه حتى يأتى على نسقه ؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا ، وتلوت القرآن تِلَاوَةً . وتلوت الرجل تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيَّة والتَّلَاوَة (بضم التاء) : البقية ؛ يقال : تَلَيْت لى من حق تِلَاوَةٍ وَتَلِيَّةٍ ، أى بقيت . وأتليت : أبيت . وتتليت حتى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلَّى الرجل إذا كان بأحررق .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع ؛ ومنه عقل البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للذية ؛ لأنه يمنع ولى المقتول عن قتل الجاني . ومنه اعتقال البطن واللسان . ومنه يقال للمحسن : معقل . والعقل : قفيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغشى به الهوادج ؛ قال علقمة :

عَقْلًا وَرَقْمًا تكاد الطير تحطفه * كأنه من دم الأجواف مدموم

(١) هو السموم . (٢) هو أوس بن حجر ؛ يحرض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتل أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حلوا دمه الى أبياتهم . (عن اللسان) .

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحما من البعير وغيره .
ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه
طولا ؛ وما كان نقشه مستديرا فهو الرِّقْم . وقال الزجاج : العاقل من عمل بما أوجب الله
عليه ، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — أتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم ؛
لأنه لو كان معدوما لما أختص بالانحصار به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت وجوده
فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى ، على ما يأتي بيانه
في هذه السورة وغيرها ، إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف
في البدن ينبت شعاعه منه بمنزلة السراج في البيت ، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم
من قال : إنه جوهر بسيط ، أي غير مركب . ثم اختلفوا في محله ؛ فقالت طائفة منهم :
محله الدماغ ، لأن الدماغ محل الحس . وقالت طائفة أخرى : محله القلب ، لأن القلب
معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول في العقل بأنه جوهر فاسد ، من حيث أن
الجواهر متماثلة ؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو
المدرَك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني . وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله
فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحس ، والعقل عرض يستحيل ذلك
منه كما يستحيل أن يكون ملئذا ومشتها . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ
أبو اسحاق الأسفرايني وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم بدليل أنه لا يقال : عقلت
وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضي أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب
الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو اختيار أبي المعالي في الإرشاد ؛
واختار في البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم . واعترض على مذهب القاضي واستدل
على فساد مذهبه . وحكى في البرهان عن المحاسبي أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبد الله بن مجاهد أنهما قالوا : العقل آلة التمييز . وحكى عن أبي العباس القلانسي أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعي ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة واستعمالها في الأعراض مجاز ؛ وكذلك قول من قال : انه قوة فانه لا يعقل من القوة الا القدرة ؛ والقلانسي أطلق ما أطلقه توسعا في العبارات ، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتي في هذه السورة بيان فائدته في آية التوحيد ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)** الصبر : الحبس في اللغة . وقُتِلَ فلان صَبْرًا ، أى أُمِسَّكَ وَحُبِسَ حَتَّى أَتْلَفَ . وصَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى الشَّيْءِ : حَبَسْتُهَا . والمَصْبُورَةُ الَّتِي نَهَى عَنْهَا فِي الْحَدِيثِ هِيَ الْمَحْبُوسَةُ عَلَى الْمَوْتِ ، وَهِيَ الْمُجْتَمَعَةُ . وقال عنتره : فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لَذَلِكَ حُرَّةً * تَرُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطْلُعُ

الثانية — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : **«وَأَصْبِرُوا»** . يقال : فلان صابر عن المعاصي ؛ وإذا صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ؛ هذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنما يقال : صابر على كذا ، فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعالى : **«إِنَّمَا يُوقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»** .

الثالثة — قوله تعالى : **(وَاصْبِرْ)** خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ؛ ومنه ما روى أن عبد الله (١) في بعض نسخ الأصل : **« في الآلة المنيبة »** . (٢) حزبه ، أى نزل به مهم أراحاه غم .

أَبْنِ عَبَّاسٍ يُعْبَى لَهُ أَخُوهُ قُتَيْمٌ - وَقِيلَ بَنَتْ لَهُ - وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَاسْتَرْجَعَ وَقَالَ : عَوْرَةُ سَتَرَهَا اللَّهُ ، وَمُؤُونَةُ كَفَاهَا اللَّهُ ، وَأَجْرُ سَاقِهِ اللَّهُ . ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ وَصَلَّى ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » . فَالصَّلَاةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ هِيَ الشَّرْعِيَّةُ . وَقَالَ قَوْمٌ : هِيَ الدُّعَاءُ عَلَى عَرَفِهَا فِي اللُّغَةِ ؛ فَتَكُونُ الْآيَةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ مُشَبَّهَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ » . لِأَنَّ الثَّبَاتَ هُوَ الصَّبْرُ ، وَالذِّكْرُ هُوَ الدُّعَاءُ . وَقَوْلُ ثَالِثٍ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : الصَّبْرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الصُّومُ ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِرَمَضَانَ : شَهْرُ الصَّبْرِ ، بِجَاءِ الصُّومِ وَالصَّلَاةِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ مُتَنَاسِبًا فِي أَنَّ الصِّيَامَ يَمْنَعُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَيُزِيدُ فِي الدُّنْيَا ، وَالصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَتُخَشَّعُ وَيُقْرَأُ فِيهَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَذْكُرُ الْآخِرَةَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الرابعة - الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين . قال يحيى بن اليمان : الصبر ألا تمتنى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضى بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبي : قال علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبري : وصدق علي رضي الله عنه . وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالحوارج ؛ فمن لم يصبر على العمل بحوارجه لم يستحق الإيمان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمام له إلا به .

الخامسة - وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًا فقال : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » . وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ » الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ، ومدح أهلها فقال : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » . وقد قيل : إن المراد بالصابرين في قوله : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ » أي الصائمون ؛ لقوله تعالى في صحيح السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الصيام لي وأنا أجزى به » فلم يذكر ثوابا مقدرًا كما لم يذكر في الصبر . والله أعلم .

السادسة - من فضل الصبر وصف الله تعالى نفسه به ، كما في حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أدنى سمعه من الله تعالى إنهم ليدعون له ولدا وإنه ليُعافِيهم ويرزقهم " . أخرجه البخارى . قال علماؤنا : وصف الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد في التنزيل وإنما ورد في حديث أبي موسى ، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم . قاله ابن قُورَك وغيره . وجاء في أسمائه الصبور للبالغة في الحلم عن عصاه .

السابعة - قوله تعالى : (وَإِنِّهَا لَكَبِيرَةٌ) اختلف المتأولون في عود الضمير من قوله : « وإِنَّهَا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ، لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس من منع شهوة واحدة أو شهوتين كمن منع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب ، ثم ينبسط في سائر الشهوات من الكلام والمشي والنظر إلى غير ذلك من ملاقة الخلق ، فيتسل بتلك الأشياء عما منع . والمصلى يمتنع من جميع ذلك ، بخوارجه كلها مقبذة بالصلاة عن جميع الشهوات . وإذا كان ذلك كانت الصلاة أصعب على النفس ومكابدتها أشد ، فلذلك قال : « وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ » . وقيل : عليهما ، ولكنه كُنِيَ عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . وقوله : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا » فرد الكفاية إلى الفضة لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لما كان داخلا في الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » . ولم يقل : يرضوهما ، لأن رضى الرسول داخل في رضى الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر^(١) :

إِنْ شَرَحَ الشَّبَابَ وَالشَّعْرَ الْأَمْسُ * حُودَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جَنُونًا

ولم يقل يعاصيا، رد إلى الشباب لأن الشعر داخل فيه . وقيل : رد الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » ولم يقل آيتين؛ ومنه قول الشاعر^(١) :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فإني وقَّارٌ بها لفريبٌ
وقال آخر^(٢) :

لكلِّ همٍّ من المموم سَعَةٌ * والصَّبْعُ والمُسَى لافلاح معه

أراد لفريلان، لافلاح معهما . وقيل : على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر، وهي الاستعانة التي يقتضيها قوله : « وَأَسْتَعِينُوا » . وقيل : على إجابة حمد طيه السلام، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها . « وكبيرة » معناه ثقيلة شاقة، خبر إن . ويجوز في غير القرآن « وإانه لكبيرة » . « إلا على الخاشعين » فانها خفيفة عليهم . قال أرباب المعاني : إلا على من أيد في الأزل بخصائص الاجتباء والهدى .

الثامنة - قوله تعالى : (عَلَى الْخَاشِعِينَ) الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع في القلب، وهو الخوف وغض البصر في الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه؛ تخشوع الدار بعد الإقواء، هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمَادٌ ككحل العين لَأَيًّا أَبْيَنَهُ * وَنُؤْيٌ يَحْذِمُ الْحَوْضَ أَثْلَمُ خَاشِعُ

ومكان خاشع لا يهتدى له . وخَشَعَتِ الأصوات أي سكنت . وخَشَعَتِ خَرَّاشِي صدره إذا ألقى بصافا لزجا . وخَشَعَ بصره إذا غَضَهُ . والخُشْعَةُ : قطعة من الأرض رُخْوَةٌ؛ وفي الحديث : « كَانَتْ خُشْعَةٌ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ دَحِيتْ بَعْدَ »^(٣) . وبلدة خاشعة : مغبرة لا منزل

(١) هو ضابط البرجمي؛ كما في اللسان مادة (قير) والكامل للبرد (ج ١ ص ١٨١) طبع أوروبا .

(٢) هو الأضبط بن قريع السعدي؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(٣) الذي في نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كَانَتْ الْكَعْبَةُ خُشْعَةً عَلَى الْمَاءِ فَدَحِيتْ مِنْهَا الْأَرْضُ » .

بها . قال سفيان الثوري : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري ، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع ، فقال : أعيمش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الحشن وليس الحشن وتطاطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء ، وتخضع لله في كل فرض أفترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب . وقال علي بن أبي طالب : الخشوع في القلب ، وأن تلين كفيك للرء المسلم ، وألا تلتفت في صلاتك . وسيأتي هذا المعنى مجودا عند قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » . فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخضع كل شعرة على جسده ، لقول الله تبارك وتعالى : « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ، لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقا متأدبا متذلا . وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ، وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطاطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الانسان . روى الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ، فذكره عمر ، أو قال لكه . وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقا . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقا .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ الذين في موضع خفض على التعت للخاشعين ، ويمحور الرفع على القطع . والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ، ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا » . قال دريد بن الصمة : فقلت لهم ظنوا بالقي مديج * سرأثم في الفارسي المسرد

وقال أبو دُواد :

رُبُّ هَمْ فَرَجَتْهُ بَغْرِيم * وَغِيوب كَشَفَتْهَا بَظُنُون

وقد قيل : إن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه ، ويضم في الكلام بذنوبهم ؛ فكأنهم يتوقعون لقاءه مذبذبين ، ذكره المهدوي والماوردي . قال ابن عطية : وهذا تعسف . وزعم الفراء أن الظن قد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه ، وقد يقع موقع اليقين ؛ كما في هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس ؛ لا تقول العرب في رجل مرئى حاضر : أظن هذا إنسانا . وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد ؛ كهذه الآية والشعر ، وكقوله تعالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يحمي اليقين بمعنى الظن ، وقد تقدم بيانه أول السورة . وتقول : سئوت به ظنا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأول ، ويجوز وإنهم بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى ربهم ، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعالى : يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدم . ﴿ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالمي زمانهم ، وأهل كل زمان عالم . وقيل : على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعالى : وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْعًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أمر معناه الوعيد ؛ وقد مضى الكلام في التقوى . « يوما » يريد عذابه وهوله ، وهو يوم القيامة . وانتصب على المفعول باقوا . ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزى ، على الإضافة . وفي الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه ؛ كما قال :

* ويوما شهدناه سُلما وعامرا *^(٢)

أى شهدنا فيه . وقال الكسائي : هذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : واتقوا يوما لا تجزيه نفس ، ثم حذف الهاء . وإنما يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها ؛ قال : لا يجوز أن تقول : هذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لحاز الذى تكلمت زيد ، بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفراء : يجوز أن تحذف الهاء وفيه . وحكى المهدوى أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا ؛ تقول : جَزَى عَنِ هَذَا الْأَمْرِ يَجْزِي ؛ كما تقول : قضى عني . واجتزأت بالشئ . اجتزاء إذا اكتفيت به ؛ قال الشاعر :

فإن الغدر في الأقوام عار * وأن الحر يجزأ بالكراع

أى يكتفى بها . وفي حديث عمر : « إذا أجريت الماء على الماء جزى عنك » . يريد إذا صببت الماء على البول في الأرض بخرى عليه طهر المكان ، ولا حاجة بك الى غسل ذلك الموضع وتنشيف الماء بمنحرفة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفي صحيح الحديث عن أبي بردة بن نيار في الأضحية : « لن تجزى عن أحد بعدك » أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليها شئ ؛ فان كان فانها تجزى وتقضى وتغنى ،

(٢) سليم وعامر ، قيلتان من نيس عيلان .

(١) راجع ص ١٦١

بغير اختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق؛ كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه". . نثرجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفلس ، وقد ذكرناه فى التذكرة نثرجه مسلم . وقرئ تُجْزَى بضم التاء والمهمز . ويقال : جزى وأجزى بمعنى واحد . وقد فُزق بينهما قوم فقالوا : جزى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وأكفى . أجزأى الشيء يجزئى أى كفانى ؛ قال الشاعر :

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن * ليجزئ إلا كامل وابن كامل

(٢) — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان ؛ تقول : كان وترًا فشَفَعْتُهُ شفعًا ؛ والشَّفْعَةُ منه ، لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفع : صاحب الشفعة وصاحب الشفاعة . وناقَة شافع : إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها ؛ تقول منه : شَفَعَتِ الناقَة شَفْعًا . وناقَة شَفُوع وهى التى تجمع بين محلبين فى حلبة واحدة . واستشفعته الى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفعت إليه فى فلان فشَفَعْنى فيه ؛ فالشفاعة إذا ضم غيرك الى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفع عند المشفع وإيصال منفعته للشفوع .

الرابعة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق ؛ وأنكرها المعتزلة وخذلوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تسألهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين . وقد تمسك القاضى عليهم فى الرد بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ولم يبد من

(١) راجع صحيح مسلم ، باب تحريم الظلم (ج ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله تعالى لم يذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم في عصر من الأعصار نكير؛ فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار؛ مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب البكائر ظالمون . وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُحْزِ بِهِ » ، « وَلَا يُقْبَلْ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم ، والعموم لا صيغة له ؛ فلا نعم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك . وأيضاً فإن الله تعالى أثبت شفاعته لأقوام ونفاها عن أقوام ؛ فقال في صفة الكافرين : « قَدْ تَنَفَّعَهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى » وقال : « وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعه إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » النفس الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها ؛ وبدليل قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ، وقوله : « إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقد قال تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى » والفاسق غير مرضى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، وإنما قال : « لِمَنْ أَرْضَى » ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون ؛ بدليل قوله : « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » . وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا » . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتضى هو التائب الذي اتخذ عند الله عهداً بالإجابة إليه ، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم ؛ وقال : « فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعته الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل البكائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ،

فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج الى الشفاعة ولا الى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فَأَغْفِرُ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَأَتَّبِعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين ؛ سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم ، كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب الى الله في أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه ؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة ؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى — فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال — : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو « تقبل » بالياء ، لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حسن التذكير ، لأنك قد فترقت ؛ كما تقدم في قوله : « قَتَلَقْ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أى فداء . والعَدْل بفتح العين : الفداء ، وبكسرهما : المثل ؛ يقال : عَدْلٌ وعَدِيلٌ للذى يماثلك فى الوزن والقدر . ويقال : عَدْلُ الشئ هو الذى يساويه قيمة وقدرًا وان لم يكن من جنسه . والعَدْل بالكسر هو الذى يساوى الشئ من جنسه وفى جرمه . وحكى الطبري أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أى يعانون . والنصر : العون . والأنصار : الأعوان ؛ ومنه قوله : « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ » أى من يضم نصرته إلى نصرتي . وانتصر الرجل : انتقم . والنصر : الإتيان ؛ يقال : نصرت أرض بنى فلان : أتيتها ؛ قال الشاعر^(١) :

(١) هو الراعى يخاطب غيلا . (عن اللسان) .

إذا دخل الشهر الحرام فودّعي * بلاد تميم وأنصري أرض عامي

والنصر : المطر؛ يقال : نصرت الأرض : مطرت . والنصر العطاء؛ قال :

إني وأسطار سطرن سطرًا * لقائل يا نصر نصرًا نصرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكرنا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا أبائنا ؛ فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية . وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا ؛ فإن الواقع في الشدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يفتدي .

قوله تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦٩﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) إذ في موضع نصب عطف على « أَذْكُرُوا نِعْمَتِي » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم ، أي أذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجمل الأنبياء فيكم . والخطاب للوجودين والمراد من سلف من الآباء ؛ كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » أي حملنا آباءكم . وقيل : إنما قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى نجيناكم القيناكم على نجوة من الأرض ، وهي ما ارتفع منها . هذا هو الأصل ؛ ثم سمي كل فائز ناجيا . فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة . وقرئ : « وإذا نجيتكم » على التوحيد .

الثانية — قوله تعالى : (مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) آل فرعون قومه وأتباعه وأهل دينه .

وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار ؛ سواء كان نسبيا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسبيه وقريبه ، خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعالى : «وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ» «أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» أى آل دينه ؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عَصَبَةٌ ؛ ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فانه ليس من آل محمد وإن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آل ولا من أهله ؛ وإن كان بينهما وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هذا قال الله تعالى في ابن نوح : «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» . وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهارا غير سِرٍّ يقول : «[ألا] إن آل أبي — (١) — يعنى فلانا — (٢) — ليسوا [ب] بأولياء إنما وليّ الله وصالح المؤمنين» : وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصة ؛ لحديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلّي عليك ؟ قال : «قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأول أصح لما ذكرناه ، ولحديث عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذ أتاه قوم بصدقتهم قال : «اللهم صلّ عليهم» فأما أبي بصدقته فقال : «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» .

الثالثة — اختلف النحاة هل يضاف الآل الى البلدان أولا ؟ فقال الكسائي : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال في البلدان هو من آل محص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال في الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة . قال : وقد سمعناه في البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) قوله : يعنى فلانا . قال النووي : «هذه الكناية هي من بعض الرواة خشى أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضي عياض : قيل أن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبي العاص » . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته . راجع سيرة ابن هشام (ج ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

الرابعة - واختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل الى المضممر أولا ؟ فنع من ذلك النحاس والزبيدي والكسائي ؛ فلا يقال إلا اللهم صل على محمد وآل محمد ، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى الى أن ذلك يقال ؛ منهم ابن السيد وهو الصواب ، لأن السماع الصحيح يعضده ، فانه قد جاء في قول عبد المطلب :
 لا هُمَّ إنَّ العبدَ يد * نَع رَحله فامنع حَلَالك^(١)
 وأنصر على آل الصلي * ب وعابديه اليوم آلك
 وقال نُدبة :

أنا الفارس الحامي حقيقة والدى * وآلى كما تحمى حقيقة آلكا
 الحقيقة (بقافين) : ما يحق على الإنسان أن يحبه ، أى تجب عليه حمايته .

الخامسة - واختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل ، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغرت رددته الى أصله فقلت : أهيل . وقال المهدوى : أصله أول . وقيل : أهل ؛ قلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون ، وتصغيره أويل ؛ فيما حكى الكسائي . وحكى غيره أهيل ، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كيسان : إذا جمعت آلا قلت آلون ؛ فإن جمعت آلا الذى هو السراب قلت آوال ؛ مثل مال وأموال .

السادسة - قوله تعالى : (فِرْعَوْنَ) فرعون ، قيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه . وقيل : إنه اسم كل ملك من ملوك العالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقبصر للروم ، والنجاشى للحبشة ؛ وإن اسم فرعون موسى : قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد ابن مصعب بن الريان ، ويكنى أبا مرة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلي : وكل من ولي القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيا من أهل إصطخر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . قال الجوهري : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عات فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن ،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقبوضون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

وهو ذو فرعة ، أى دهاء ونكر . وفى الحديث : ” أخذنا فرعون هذه الأمة “ . وفرعون فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته .

السابعة — قوله تعالى : (يَسْؤُمُونَكُمْ) قيل : معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يولونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خسف إذا أولاه إياها ؛ ومنه قول عمرو ابن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خَسَفًا * أبينا أن نُقرّ الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسوم : الدوام ؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء ، وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال ، أى سائمين لكم .

الثامنة — قوله تعالى : (سُوءَ الْعَذَابِ) مفعول ثان ليسومونكم ، ومعناه أشدّ العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا ؛ فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يتخدّمون . وكان قومه جندا ملوكا ، ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاسعة — قوله تعالى : (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ) يذبحون بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » ؛ كما قال — أنشدته سيبويه — :

متى تاتنا تُلِّم بنا فى ديارنا * تجحد خطبا جزلا ونارا تاججا

قال الفراء وغيره : يذبحون بغير واو على التفسير لقوله : « يسومونكم سوء العذاب » ؛ كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج الى الواو فى زيد ؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ » ، وفى سورة إبراهيم : « وَيَذَبْحُونَ » بالواو ، لأن المعنى

(١) لعله يريد أنها مستأنفة . وعبرة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال ، أى سائمينكم » .

يُذَبِّحُونَكَ بِالذَّبْحِ وَبغير الذَّبْحِ . فقوله : « وَيَذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ » جنس آخر من العذاب لا تفسير لما قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة البقرة ، والواو قد تزداد كما قال :

* فلما أجزنا ساحة الحى وآتحنى *

أى قد اتحنى . وقال آخر :

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتبية فى المزدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتبية ، وهو كثير .

العاشرة — قوله تعالى : (يُذَبِّحُونَ) قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ابن محيصن يذبحون بفتح الباء . والذَّبْحُ : الشق . والذَّبْحُ : المذبح . والذَّبَّاحُ : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدن : بزلته ، أى كشفته . وسعد الذابحُ : أحد السعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح جمع مذبح وهو اذا جاء السيل نغذ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمي مذبحا . فكان فرعون يذبح الأطفال ويبقى البنات ، وعبر عنهم باسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : يذبحون أبناءكم يعنى الرجال ، وسما أبناء لما كانوا كذلك ، وأستدل هذا القائل بقوله : « نِسَاءكُمْ » . والأول أصح لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل الى آل فرعون ، وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانة ، لتوليهم ذلك بأنفسهم ، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبري : ويقتضى أن من أمره ظالم يقتل أحد قتلته المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال ، يقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرة . هكنا قال النخعي ، وقاله الشافعي ومالك فى تفصيل لما . قال الشافعي : اذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلما كان عليه وعلى الإمام القود كقاتله معا ، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القود . وفى المأمور

قولان : أحدهما — أن عليه القود . والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدية . حكاه ابن المنذر . وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الأمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقود في ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الأمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلم بعض صبيانه ، أو البصانع بعض متعلميه إذا كان محتالما ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الأمر ، وعلى عاقلة الصبي نصف الدية . وقال ابن نافع : لا يقتل السيد إذا أمر عبده — وإن كان أعجميا — بقتل انسان . قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور في مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الأمر ، ويضرب الأمر ويحبس . وقال أحمد في السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يقتل السيد . وروى هذا القول عن علي بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما . وقال علي : ويستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويحبس العبد ويضرب ويؤذّب . وقال الثوري : يعزر السيد . وقال الحكم وحماد : يقتل العبد . وقال قتادة : يقتلان جميعا . وقال الشافعي : إن كان العبد فصيحاً يعقل قتل العبد وعوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجمياً فعلى السيد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الأمر ولكن تقطع يديه ثم يعاقب ويحبس — وهو القول الثاني — ويقتل المأمور للباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعي وأحمد وإسحاق في الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر . وقال زفر : لا يقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالي في البرهان ؛ ورأى أن الأمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلاً في القود ؛ فلذلك لا يقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانية عشرة — قرأ الجمهور « يذبحون » بالتشديد على المبالغة . وقرأ ابن محيصن « يذبحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما روى قد رأى في منامه نارا خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأولت له رؤياه : أن مولودا من بني إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ ﴾ إشارة الى جملة الأمر ، إذ هو خبر فهو كفرد حاضر ، أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء ، أى امتحان واختبار . وبلاء : نعمة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسناً ويكون سيئاً ، وأصله المحنة ؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره ؛ فقليل للمحسن بلاء ، وللسيئ بلاء ؛ حكاه الهروى . وقال قوم : الإشارة بذلك الى التنجية ؛ فيكون البلاء على هذا فى الخير ، أى تجيئكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة الى الذبح ونحوه ، والبلاء هنا فى الشر ؛ والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان . وقال ابن كيسان : ويقال فى الخير أبلاه الله وبلاه ؛ وأنشد :

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ * وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِى يَتْلُو

لجمع بين اللغتين . والأكثر فى الخير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الاختبار ابتليته وبلوته ، قاله النحاس .

قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ

تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ إذ فى موضع نصب . وفرقنا : فلقنا ؛ فكان كل فرق كالطود العظيم ، أى الجبل . وأصل الفرق الفصل ؛ ومنه فرق الشعر ؛ ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل ؛ ومنه : « قَالَفَارِقَاتٍ فَرَقًا » يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر ، كان فيه فرق بين الحق والباطل ؛ ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ » أى فصلناه وأحكناه . وقرأ الزهرى : فرقنا بتشديد الراء ، أى جعلناه فرقا . ومعنى بكم أى لكم ، فالباء بمعنى اللام . وقيل : الباء فى مكانها ، أى فرقنا البحر بدخولكم إياه أى صاروا بين المائين ، فصار الفرق بهم ؛ وهذا أولى بينه فافسلة .

قوله تعالى : ﴿الْبَحْرُ﴾ البحر معروف ، سمي بذلك لاتساعه . ويقال : قَرَسَ بِحْرٌ إذا كان واسع الجرى ، أى كثيره ؛ ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مَندُوبِ فَرَسٍ أبى طلحة : " وإن وجدناه لبحرا " . والبحر : الماء المالح . ويقال : أبحر الماء : مَلَحَ ؛ قال نُصَيْب :

وقد عاد ماء الأرض بِحْرًا فزادنى * إلى مَرَضِي أن أبحر المشرب العذب
والبحر : البلدة ؛ يقال : هذه بِحْرَتنا ، أى بلدتنا . قاله الأُمَوِيُّ . والبحر : السَّلالُ^(١) يصيب الإنسان . ويقولون : لقينته صَحْرَةً بِحْرَةً ، أى بارزا مكشوبا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملكا يقال له : صندفايل ، البحار كلها فى نفرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن معدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نَجَاءً ، ممدود ، ونجاة ، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجيتته . وقرئ بهما « وإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ » ، « فَأَنْجَيْنَاكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يقال : غَرِقَ فى الماء غَرَقًا فهو غَرِيقٌ وغارق أيضا ، ومنه قول أبى النجم :

* من بين مَقْتُولٍ وطَافٍ غَارِقٍ^(٢) *

وأغرقه غيره وغرقه فهو مَغْرُوقٌ وغريق . ولحام مَغْرُوقٌ بالفضة ، أى مُحْلَى . والتغريق : القتل ؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قيسا غرقته القوابلُ^(٣) *

وذلك أن القابلة كانت تغرق المولود فى ماء السَّلى عام القحط ، ذكر كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذى الرِّمَّة :

(١) السلال (كفراب) : فرجة تحدث فى الرقة أو زكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادة .

(عن القاموس) . (٢) صدراليت : * فأصبخوا فى الماء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيباني . صدراليت : * أطورين فى عام غزاة ورحلة *

إِذَا غَرَّقَتْ أَرْبَاضَهَا مِثْنَى بَكْرَةٍ * بَنِيَّاهُ لَمْ تُصْبِحْ رَعُومًا سَلُوبُهَا

والأرباض : الحبال . والبكرة : الناقة الفتيّة . وبنيتها : بطنها الثاني ؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول في اختلاف العلماء في كيفية إنجاء بني إسرائيل

فذكر الطبري أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسرى من مصر بنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعمروا الحلّة والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصبح الديكة؛ فلم يصبح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأما الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الاتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عدة بني إسرائيل نيفا على ستمائة ألف . وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتي ألف . وقيل : إن فرعون أتبعه في ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - مصر في ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده، فأمنى الله عددهم وبارك في ذريته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال حدثنا شبابة بن سوار عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى بنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت؛ ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لي ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر؛ فقال له : افرق؛ فقال له البحر : لقد استكبرت يا موسى ! وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك ! قال : ومع موسى رجل على حصان له؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال : فألقم فرسه فسبح فخرج . فقال أين أمرت يا نبي الله ؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال : والله ما كذبت ولا كُذبت؛ ثم اقتحم الثانية فسبح به حتى خرج؛ فقال : أين أمرت يا نبي الله ؟ فقال : ما أمرت

إلا بهذا الوجه ؛ قال : والله ما كذبت ولا كذبت ؛ قال فأوحى الله إليه : « أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ » فضربه موسى بعصاه ؛ « فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » . فكان فيه اثنا عشر فرقا ، لاثنى عشر سبطا ، لكل سبط طريق يقرأون ؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر طيهم فأغرقهم . ويذكر أن البحر هو بحر القلزم ، وأن الرجل الذي كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون . وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن أنفرك لموسى إذا ضربك ؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب ؛ فحين أصبح ضرب البحر وكناه أبا خالد . ذكره ابن أبي شبة أيضا . وقد أكثر المفسرون في قصص هذا المعنى ؛ وما ذكرناه كاف ، وسيأتي في سورة « يونس ، والشعراء » زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

فصل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق ، ولم يذكر اليوم الذي كان ذلك فيه . فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما هذا اليوم الذي تصومونه — فقالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا ؛ فنحن نصومه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — فنحن أحق وأولى بموسى منكم “ فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه . وأخرجه البخاري أيضا عن ابن عباس ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : ” أنتم أحق بموسى منهم فصوموه “ .

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود وليس كذلك ، لما روته عائشة رضي الله عنها قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه في الجاهلية ؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ؛ فلما فرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخاري ومسلم .

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنما صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم ، لأنهم كانوا عندهم أهل علم ؛ فصامه النبي عليه السلام كذلك في الجاهلية ، أى بمكة ؛ فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه اتباعا لموسى . وأمر بصيامه ، أى أوجبه وأكد أمره ، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا هذه شبهة من قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لعله كان متعبدا بشريعة موسى ؛ وليس كذلك ، على ما يأتى بيانه في الأنعام عند قوله تعالى : « فَيَهْدَاهُمْ سَبِيلَهُ » .

مسئلة — اختلف في يوم عاشوراء ؛ هل هو التاسع من المحرم أو العاشر ؟ فذهب الشافعى الى أنه التاسع ؛ لحديث الحكم بن الأعرج قال : انتهيت الى ابن عباس رضى الله عنهما وهو متوسد رداءه في زمزم ، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء ؛ فقال : اذا رأيت هلال المحرم فأعدد وأصبح يوم التاسع صائما . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه ؟ قال نعم . خرجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيب والحسن البصرى ومالك وجماعة من السلف الى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحكم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه أنبأنا قتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذى : وروى عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهذا الحديث يقول الشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق . قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : " فأعدد وأصبح يوم التاسع صائما " ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر ، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا الى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جمع بين الأحاديث . وقول ابن عباس للحكم لما قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه ؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش ؛ وإلا فلا كان النبي صلى الله عليه وسلم صام التاسع قط . بينته ما خرجه ابن ماجه في سننه ومسلم في صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لئن بقيت الى قابل لأصومن اليوم التاسع " .

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” صيام يوم عاشوراء أحسن على الله أن يكفر السنة التي قبله “ . أخرجه مسلم والترمذي . وقال : لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال : ” صيام يوم عاشوراء كفارة سنة “ إلا في حديث أبي قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة في موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون ، وإلى أنفسهم ينجون ؛ ففي هذا أعظم المنة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه منة بعد منة . وقيل : المعنى وأتم تنظرون أى ببصائركم الاعتبار ، لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرآى ومسمع ، أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأول أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرق عدوهم قالوا : يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غرق ! حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا إليه . ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن عباد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان يموت أبدا ! قل : فلم يعد أن سمع الله تكذيبهم نبه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يترأه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا وبعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا في النعمة ، رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ؛ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؛ أى عالمي زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة التي كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدسة في أيدي الجبارين قد غلبوا عليها فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لحمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا في يد فرعون كان خيرا لنا . قال : « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » إلى قوله « قَاعِدُونْ » حتى دعا عليهم وسماهم فاسقين . فبقوا في التيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فنزل عليهم بالسلوى وبالغمام — على ما يأتي بيانه — ، ثم سار موسى إلى طُورِ مِصْنَاءَ

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتي بيانه — ، ثم قيل لهم : قد وصلت إلى بيت المقدس فادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة — على ما يأتي — ، وكان موسى عليه السلام شديد الحياء ستيرا؛ فقالوا : إنه آدر^(١) . فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عريان وهو يقول : يا حجر ثوبي ! فذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتي بيانه — ، ثم لما مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسده؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتي في المائدة — ثم سأله أن يعلموا آية في قبول قربانهم؛ فجعلت نار تخرج من السماء فتقبل قربانهم ؛ ثم سأله أن يبين لنا كفارات ذنوبنا في الدنيا، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : « عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسميه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضه ويزيل جلده من بدنه؛ ثم بدلوا التوراة واقتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عرضا؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلمهم . فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتي بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفى في موضعه إن شاء الله تعالى .

وقال الطبري : وفي أخبار القرآن على لسان عهد عليه السلام بهذه المقيبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوة عهد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

فيه ست مسائل :

(١) الأذرة (بالضم) : قنعة في الخفية .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وعدنا »
 بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من
 البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن ؛ كقوله
 عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ » ، وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ،
 وقوله : « وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكى : وأيضاً فإن ظاهر
 اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمله على الواحد ،
 لظاهر النص أن الفعل مضاف الى الله تعالى وحده ؛ وهى قراءة الحسن وأبى رجاء
 وأبى جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وابن أبى إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة
 العامة عندنا « وعدنا » بغير ألف ، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل
 واحد منهما يعد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال
 مكى : المواعدة أصلها من اثنين . وقد تأتى المفاعلة من واحد فى كلام العرب ؛ قالوا : طارقتُ
 الليل ، وداويت العليل ، وماقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله
 خاصة لموسى كعنى وعدنا ؛ فتكون القراءة ثان بمعنى واحد . والاختيار واعدنا بالألف لأنه بمعنى
 وعدنا فى أحد معنييه ، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح
 المفاعلة . قال النحاس : وقراءة واعدنا بالألف أجود وأحسن . وهى قراءة مجاهد والأعرج
 وابن كثير ونافع والأعمش وحمة والكسائى ؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا فى شيء ، لأن « واعدنا موسى » إنما هو من باب الموافقة ؛
 وليس هذا من الوعد والوعيد فى شيء ، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك
 موضع كذا . والفصح فى هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : واعدنا هاهنا
 بالألف جيد ، لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وعد ، ومن موسى
 قبول واتباع يجرى مجرى المواعدة . قال ابن عطية : ورجح أبو عبيدة وعدنا ، وليس
 بصحيح ، لأن قبول موسى لوعده الله والتزامه وارتقاؤه يشبه المواعدة .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى اسم أعجمي لا ينصرف للمعجمة والتعريف .
والقبط على ما يروى يقولون للاء : مو ، وللشجر : شأ^(١) . فلما وجد موسى في التابوت عند
ماء وشجر ، سُمِّي موسى . قال السدي : لما خافت عليه أمه جعلته في التابوت وألقته
في اليم - كما أوحى الله إليها - فألقته في اليم بين أشجار عند بيت فرعون ؛ فخرج جوارى
آسية امرأة فرعون يفتسلن فوجدنه ؛ فسمى باسم المكان . وذكر النفاس وغيره : أن اسم
الذي التقطته صابوت . قال ابن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن بصهر بن قاهث
ابن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثاني ،
وفي الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقديروا إذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ؛ كما قال :
« وَأَسْئَلُ الْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخله في الميعاد .

والأربعون في قول أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذى الحجة ؛ وكان ذلك بعد أن
جاوز البحر وسأله فومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور في سبعين من خيار
بنى إسرائيل ، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ؛ فعدوا فيما ذكر المفسرون
عشرين يوما وعشرين ليلة ، وقالوا : قد أخلفنا موعدة . فاتخذوا العجل ؛ وقال لهم السامري :
هذا الحكم وإله موسى ، فاطمأنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » .
فلم يتبع هارون ولم يطعه في ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما روى في الخبر . وتهاافت
في عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفي ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ، ألقى
الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون ؛
وأحرق العجل وذراه في البحر ؛ فشربوا من مائه حُبًّا للعجل ؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا في بعض نسخ الأصل ، وفي بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفي القاموس وشرحه : « ... وسا

الشجر ؛ كذا في سائر النسخ ؛ وقال ابن الجواليقي : هو بالسين المعجمة » .

وَوَرِيتْ بَطُونَهُمْ؛ فتابوا ولم تقبل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعالى :
 « قُتُبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لدن
 طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى؛ فقتل بعضهم بعضا لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن
 والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من استقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر
 بمشله؛ حتى حج موسى إلى الله صارخا : يا ربّاه قد فנית بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد
 عليهم بفضله؛ فقبل توبة من بقى وجعل من قتل في الشهداء؛ على ما يأتي .

الرابعة — إن قيل : لم خص الليالي بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأنّ الليلة أسبق
 من اليوم فهي قبله في الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ؛ فالليالي أوّل الشهور والأيام تبع لها .
 الخامسة — قال النقاش : في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ؛ لأنه لو ذكر الأيام
 لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه
 السلام وأصل أربعين يوما بلياليها . قال ابن عطية : سمعت أبي يقول : سمعت الشيخ
 الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس في الخلوة بالله والدق منه
 في الصلاة ونحوه ، وأنّ ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول : أين حال موسى
 في القرب من الله ! ووصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار للخضر لفتاه في بعض يوم :
 « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا استدلل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتي
 الكلام في الوصال في آي الصيام من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتي في الأعراف
 زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتي لقصة
 العجل بيان في كفيته وخواره هناك وفي « طه » إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ) أي اتخذتموه إلهًا من بعد
 موسى . وأصل اتخذتم اتخذتم من الأخذ ووزنه أفتعلتم ، سهلت الهمزة الثانية لامتناع
 همزتين بغاء إيتخذتم ، فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفا في ياتخذ، وواوا في مواتخذ،

فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق ؛ وقد يستغنى عنها اذا كان معنى الكلام التقرير ؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَتُخَذُّمُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا » فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير ؛ قال الشاعر :^(١)

أُسْتَحْدَثَ الرِّكْبُ عَنْ أَشْيَاعِهِمْ خَبْرًا * أَمْ رَاجِعَ الْقَلْبُ مِنْ أَطْرَابِهِ طَرْبُ
ونحوه فى القرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أُسْتَكْبِرَتْ أَمْ كُنْتُ » .
ومذهب أبى على الفارسي أن اتخذتم ، من اتخذ لا من أخذ . (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) جملة فى موضع الحال . وقد تقدم معنى الظلم . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ) العفو : عفو الله جل وعز عن خلقه ؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغفران فإنه لا يكون معه عقوبة البتة . وكل من استحق عقوبة فترك له فقد عفى عنه . فالعفو : محو الذنب ، أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ؛ مأخوذ من قولك : عفت الريح الأثر ، أى أذهبت . وعفا الشيء : كثر . فهو من الأضداد ؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّىٰ عَفَّوْا » .

الثانية — قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) أى من بعد عبادتكم العجل . وسمى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعجول مشله ، والجمع العجاجيل ؛ والأنثى عجلة . غن أبى الجراح .

الثالثة — قوله تعالى : (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أى تشكرون عفو الله عنكم . وقد تقدم معنى لعل .^(٢) وأما الشكر فهو فى اللغة الظهور ؛ من قوله : دابة شكور ؛ اذا ظهر عليها من السمن فوق ما تُعطى من العلف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعرف يوليكم . كما تقدم

(٢) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

(١) هو ذوالرمة .

في الفاتحة . قال الجوهري : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ وباللام أفصح . والشكران : خلاف الكفران . وتشكرت له مثل شكرت له . وروى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " . قال الخطابي : هذا الكلام يتأول على معنيين : أحدهما - أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر - أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر بمعروفهم ؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعة - في عبارات العلماء في معنى الشكر ؛ فقال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للعصية في السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للنعم ؛ ولذلك قال تعالى : « أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » . فقال داود : كيف أشكرك يا رب ، والشكر نعمة منك ! قال : الآن قد عرفتني وشكرتني ؛ إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة . قال : يا رب فارني اخفى نعمك علي . قال : يا داود تنفس ؛ فتنفس داود . فقال الله تعالى : من يحصى هذه النعمة الليل والنهار . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يحازي بها عملي كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتني . وقال الجنييد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمه . فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنييد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي . وقال الشبلي : الشكر : التواضع والحفاظة على الحسنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصري أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

قوله تعالى : وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

إِذْ، اسم للوقت الماضي . وإذا، اسم للوقت المستقبل . وآتينَا : أعطينا . وقد تقدم جميع هذا . والكتاب : التوراة بإجماع من المتأولين . واختلف في الفرقان ؛ فقال الفراء وقطرب : المعنى آتينَا موسى التوراة ومجداً عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هذا خطأ في الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيذاً . وحكى عن الفراء ؛ ومنه قول الشاعر :
(٢)

فَقَدَرْتُ الْأَدِيمَ لِرَاهِشِيهِ * وَأَلْنِي قَوْلَهَا كَذِبًا وَمِينًا

وقال آخر :
(٣)

أَلَا حَبِذَا هِنْدَ وَأَرْضَ بِهَا هِنْدَ * وَهِنْدَ آتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيَ وَالْبُعْدَ

فنسق البعد على النَّأْيِ، والمين على الكذب، لاختلاف اللفظين تأكيذاً؛ ومنه قول عنترة :

حَيِّتْ مِنْ طَلَلِ تَقَادِمِ عَهْدِهِ * أَقْوَى وَأَقْفَرُ بَعْدَ أَمِّ الْمَيْمِ

قال النحاس : « وهذا إنما يبيىء في الشعر ، وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد فرقاً

بين الحق والباطل ، أى الذى علمه إياه » . وقال ابن زيد : الفرقان انفراق البحر له حتى

صار فرقاً فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ، لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه

قوله تعالى : « إِنَّ نَسَقُوا اللَّهَ لَيَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجاً ومخرجاً . وقيل : إنه المجرة والبيان .

قاله ابن بحر . وقيل : الواو صلة ، والمعنى آتينَا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزداد

في النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتبية في المزدحم

(٢) هو عدى بن زيد .

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ والمسئلة الثانية ص ٣٤٣

(٤) هو الخطبة .

(٣) في الأصول : « وقدمت » . والتصويب عن اللسان مادة « مين » .

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتبية؛ ودليل هذا التأويل قوله عز وجل : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون؛ أنجى هؤلاء وغرق أولئك . ونظيره : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » . فقيل : يعنى به يوم بدر؛ نصر الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأهلك أبا جهل وأصحابه . (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) لى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ) القوم : الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زهير :
وما أدري وسوف إخال أدري • أقوم آل حصين أم نساء

وقال تعالى : « وَلَوْ طَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء؛ قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبي مرسل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : (يَا قَوْمِ) منادى مضاف . وحذفت الياء فى « يا قوم » لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها؛ وهى بمنزلة التنوين لحذفها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة؛ فنقول : يا قومي؛ لأنها اسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء؛ فقلت : يا قوميهِ . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف؛ فقلت : يا قوما، وإن شئت قلت : يا قوم؛ بمعنى يأيها القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت وتوالت . وواحد القوم أمرؤ على غير اللفظ . ونقول : قوم وأقوام؛ وأقوام جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عبدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَكْمُ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ استغنى بالجمع القليل عن الكثير والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ » . وقال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَبِي الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأت إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِأَن نَّخَازِكُمْ الْعِجْلَ ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عجل كل إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبده كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ لما قال لهم : فتوبوا إلى باريكم . قالوا : كيف ؟ قال : « فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا . والقتل : إمامة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدتها بالماء . قال سفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزهري : لما قيل لهم : « فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كفوا . فكان ذلك شهادة لقتول وتوبة للهي . على ما تقدم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يعبدوا العجل [مع] من عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال : ملعون من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو آتاه بيد أو رجل . فما حل أحد منهم حبوته حتى قتل منهم ؛ يعني من قتل ؛ وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبده ؛ وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغير عوقب الجميع . روى جرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يعمل فيهم

بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب". أخرجه ابن ماجه في سننه .
وسأني الكلام في هذا المعنى ان شاء الله تعالى . فلما استحوّز فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا
الله عنهم . قاله ابن عباس وعلى رضى الله عنهما . وانما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا
الجهود في قتل أنفسهم . فلما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة .
وقرأ قتادة : فاقبلوا أنفسكم — من الإقالة — ، أى استقبلوها من العثرة بالقتل .

قوله تعالى : ﴿ بَارِئُكُمْ ﴾ البارئ : الخالق ؛ وبينهما فرق ، وذلك أن البارئ هو المبدع
المحدث ، والخالق هو المقبّدر الناقل من حال الى حال . والبرية : الخلق ؛ وهي فعيلة بمعنى
مفعولة غير أنها لا تهمز . وقرأ أبو عمرو « بارئكم » بسكون الهمزة — ويشعركم وينصركم
ويأمركم — واختلف النحاة في هذا ؛ فمنهم من يسكن الضمة والكسرة في الوصل ؛ وذلك
في الشعر . وقال أبو العباس المبرد : لا يجوز التسكين مع توالى الحركات في حرف الإعراب
في كلام ولا شعر . وقراءة أبي عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون
القدماء الأئمة ؛ وأنشدوا :

(١) إذا أعوججن قلتُ صاحب قوم * بالذو أمثال السيفين العُوم

وقال امرؤ القيس :

(٢) قال يوم أشرب غير مستحيب * إنما من الله ولا وإغـل

وقال آخر :

* قالت سُلَيْمى اشترنا سويقاً *

الآخر :

رَحِيتُ ولى رجلىك ما فيهما * وقد بدا هتِك من المتد

فمن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب . قال أبو علي : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات . وأصل برأ من تبرئ الشيء من الشيء وهو انفصاله منه . فأنخلق قد فصلوا من العدم الى الوجود ؛ ومنه برأت من المرض برأ بالفتح . كذا يقول أهل الحجاز . وغيرهم يقول : برئت من المرض برأ بالضم ؛ وبرئت منك ومن الديون والعيوب براءة ؛ ومنه المبارأة للراءة . وقد بارأ شريكه وأمرأته .

قوله تعالى : ﴿ قَاتَبَ عَلَيْهِمُ ﴾ في الكلام حذف ، تقديره ففعلتم قاتب عليكم ، أى فتجاوز عنكم أى على الباقيين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم معناه ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ أَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يَمْوِسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدقك . ﴿ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قيل : هم السبعون الذين اختارهم موسى ؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : « لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتي قصة السبعين في الأعراف ان شاء الله تعالى . قال ابن قورك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرَأَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد اختلف في جواز رؤية الله تعالى ؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها في الدنيا والآخرة . وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها في الآخرة ؛ فعل هذا لم يطلبوا من الرؤية

محالا؛ وقد سألها موسى عليه السلام. وسيأتي الكلام في الرؤية في الأنعام والأعراف إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر في موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عيانا ، قاله ابن عباس . وأصل الجهر الظهور ؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصي : المظاهرة بها . ورايت الأمير جهارا وجهرة ، أى غير مستتر بشئ . وقرأ ابن عباس « جَهْرَةً » بفتح الهاء . وهما لفتان ؛ مثل زهرة وزهرة . وفي الجهر وجهان : أحدهما - أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا ؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثاني - أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعيانا ؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قد تقدم في أول السورة معنى الصاعقة . وقرأ عمر وعثمان وصلى « الصَّعْقَةُ » وهي قراءة ابن محيصن في جميع القرآن .^(١)
﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة في موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دُورُ آل فلان تترأى ، أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى تنظرون أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وأتار الصعقة .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَشَأْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ، والمعنى لعلكم تشكرون ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيل : ماتوا موت همود يعتبر به الغير ، ثم أرسلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصله إثارة الشيء من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها ، أى حركتها ؛ قال امرؤ القيس :

(١) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة^(١) * فقاموا جميعا بين عاتٍ ونشوان

وقال عنتره :

وصحابة شتم الأنوف بعثتهم * ليلا وقد مال الكرى بطلاها^(٢)

وقال بعضهم : بعثناكم من بعد موتكم : علمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأول أصح ، لأن الأصل الحقيقة وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ » .
على ما يأتي .

الخامسة — قال الماوردي : واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعابنة الأحوال المضطرة الى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبد .
الثاني : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأول أصح ، فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك مما اضطهرهم إلى الإيمان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس .
ومحال أن يكونوا غير مكلفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا^ط
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) أى جعلناه عليكم كالظلة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويموز غمام وهي السحاب ، لأنها تغم السماء أى تسترها ؛ وكل مغطى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السحر . وقيل : أطل السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق .

إذا غطاه الغيم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنه ليُغان على قلبي " . قال صاحب العين : غين عليه : غطى عليه . والغين : شجر ملتف . وقال السدي : الغمام : السحاب الأبيض . وفعل هذا بهم ليقيمهم حر الشمس نهاراً ، ويخجل في آخره ليستضيئوا بالقمر ليلاً . وذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتلهم ؛ وقالوا لموسى : « فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » . فعوقبوا في ذلك القحيم أربعين سنة يتيهون في حمسة فرائخ أوستة . روى أنهم كانوا يمشون النهار كله ويتزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذا كانوا باجمعهم في التيه قالوا لموسى : من لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المن والسلوى . قالوا : من لنا من حر الشمس ! فظلل عليهم الغمام . قالوا : فم تستصبح ! فضرب لهم عمود نور في وسط محلهم . وذكر مكي : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألا يبلى لهم ثوب ولا يتحلق ولا يدرن ؛ وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان . والله أعلم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنْ وَالسَّلْوى ﴾ اختلف في المن ما هو وتعيينه على أقوال ؛ ف قيل : الترميجين ^(٢) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطرميجين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حلوة . وقيل عسل : وقيل شراب حلو . وقيل : خبر الرقاق ، عن وهب بن منبه . وقيل : المن مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : " الكأمة من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين " في رواية " من المن الذي أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكأمة مما أنزل الله على بني إسرائيل ، أى ما خلقه الله لهم في التيه . قال أبو عبيد : إنما شبهها بالمن لأنه لا مؤونة فيها بيد ولا سقى ولا علاج ؛ فهي منه ، أى من جنس من

(١) القحص : كل موضع يسكن . وفي حديث كعب : « إن الله بارك في الشام وخص بالتقديس من لخص الأودن إلى رخ » . ولطعه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) .

(٢) الترميجين : طل يقع من السماء ، وهو ندى شبه بالصل جامد متحبب (عن مفردات ابن الجوزي) .

بنى إسرائيل في أنه كان دون تكلف . رُوى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن أذخر منه شيئاً فسد عليه ، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يتخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيئاً .

الثالثة — لما نص عليه السلام على أن ماء الكأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، وأما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى استعمالها بمحّات في جميع مرض العين . وهذا كما استعمل أبو وجرّة العسل في جميع الأمراض كلها حتى في الكمل ، على ما يأتي بيانه في سورة « النحل » إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكَمُّ واحد ، وكَمَّان اثنان ، وأَكْمُو ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كماء ، بالناء على عكس شجرة وشجر . والمَنْ اسم جنس لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعة — قوله تعالى : (وَالسَّلْوَى) اختلف في السلوى ، فقيل : هو السَّاقِي بعينه ، قاله الضحاك . قال ابن عطية : السلوى : طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غلط الهذلي^(١) فقال : وقاسمها بالله جهداً لأنتم * ألد من السلوى إذا ما تشورها

ظن السلوى العسل .

قلت : ما آذعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرّج أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ واستدل بيت الهذلي وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سمي به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السلوان^(٢) ؛ وأنشد^(٣) :

لو أشرب السلوان ما سليت * ما بي غنى عنك وإن غيّت

(١) هو خالد بن زهير . (٢) هو مؤرّج بن عمر السدوسي ، ويكنى أبا فريد . كان من أصحاب الخليل ابن أحمد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة . (٣) عين السلوان : عين فضاخة يترك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) . (٤) البيت لرؤبة .

وقال الجوهري : والسلوى العسل ؛ وذكريت الهذلي :

* ألد من السلوى إذا ما تشورها *

ولم يذكر غلطا . والسلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا ؛ قال :

شربت على سلوانة ماء مُرّنة * فلا وجديد العيش ياتى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان . وقال بعضهم : السلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو ؛ والأطباء يسمونه المفرّج . يقال : سليت وسلوت لغتان . وهو في سلوة من العيش أى فى رغد، عن أبي زيد .

الخامسة - واختلف فى السلوى هل هو جمع أو مفرد ؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته ؛ كما قالوا : دقّى^(١) للواحد والجماعة ، وسمّانى وشكّاعى^(٢) فى الواحد والجميع . وقال الخليل : واحده سلواة ؛ وأنشد :

ولمى لتعرونى لذكرك همزة^(٣) * كما انتفض السلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السلوى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادسة - السلوى عطف على المنّ ، ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور . ووجب هذا فى المقصور كله لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف ؛ قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقر له ؛ فأشبهه الحركة فاستحالت حركته . وقال الفراء : لو حركت الألف صارت همزة .

السابعة - قوله تعالى : ﴿كُلُوا﴾ فيه حذف، تقديره وكلنا كلوا ؛ فحذف اختصار الدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

(١) الدق (كذكرى) : مجرّم أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كجبارى وقد تصح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء ، والناس يتداون بها . (٣) فى الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر .
 ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَسْتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ حذفت الألف من قلنا لسكونها وسكون الدال بعدها ، والألف التي يتبدأ بها قبل الدال ألف وصل لأنه من يدخل .
 الثانية - قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ الْقَرْيَةُ ﴾ أى المدينة ، سميت بذلك لأنها تقربت أى اجتمعت ، ومنه قرىبت الماء فى الحوض ، أى جمعت ، واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف مقصور . وكذلك ما قرى به الضيف ، قاله الجوهري . والمقرة للحوض . والقرى لمسيل الماء . والقرى لأظهر ، ومنه قوله :^(١)

* لَاحِقُ بَطْنٍ بِقَرَا سَمِينِ *

والمقارى : الجفان الجبار ، قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَرِّعُ *

وواحد المقارى مقرة ، وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقرية (بكسر القاف) لغة اليمن .
 واختلف فى تعيينها ، فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أريحا من بيت المقدس ، قال عمر بن شبة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كيسان : الشام . الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر . وهذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه .

(١) هو جيل الأرقط . وصف فرسا بضوء البطن ثم فنى أن يكون ضمه من هزال ، فقال : « بقرا سمين » .

واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و ﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرا واسعاً ، وهو نعت لمصدر محذوف ، أى أكلا رغدا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، على ما تقدم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغلة ، فلذلك قال : رغدا .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ مُجَدًّا ﴾ الباب يجمع أبوابا ، وقد قالوا : أبوبة للاندواج ، قال الشاعر ^(١) :

هناك أخبية ولّاج أبوية * يخلط بالبرّ منه الحذّ واللينا

ولو أفرده لم يحز ، ومثله قوله عليه السلام : «مرحبا بالقوم - أو بالوفد - غير خزايا ولا نداهى» . وتنبّأت بوابا اتخذته . وأبواب مَبُوءَة ، كما قالوا : أصناف مُصَنَّفَة . وهذا شيء من بَابَتِكَ ، أى يصلح لك . وقد تقدم معنى السجود فلا معنى لإعادته . والحمد لله .
والباب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ «باب حطة» ، عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القبة التى كان يصلّى إليها موسى وبنو إسرائيل . و «مُجَدًّا» قال ابن عباس : منحنيين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . ونحطة بالرفع قراءة الجمهور ، على إضمار مبتدأ أى مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية ، قال الأخفش : وقرئت حطة بالنصب ، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . قال النحاس : الحديث ^(٢) عن ابن عباس أنه قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله . وفى حديث آخر عنه قيل لهم : قولوا مغفرة ، تفسير للنصب ، أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ، كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع ، وهو أولى فى اللغة ، لما حكى عن العرب فى معنى بطل قال أحمد بن يحيى : يقال بطلته ، أى غيرته ولم أزل عينه ، وأبدلته أزلت عينه وشخصه ، كما قال ^(٣) :

* عزّل الأمير للأمير المبتل *

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) . (٢) فى الأصول : «قال النحاس

جاء الحديث ...» . والتصويب من إعراب القرآن للنحاس : والحديث مبتدأ ، وخبره «تفسير» .

(٣) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

(١) وقال الله عز وجل : « قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديث ابن مسعود قالوا : حطة ، تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : حطة بمعنى حُطَّ ذنوبنا ، أمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تغلب : التوبة ، قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعل الله بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس في المجمل : حطة كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطت أوزارهم ، وقاله الجوهري أيضا في الضحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قيل لبي إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم [فبدلوا] فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شجرة » . وأخرجه البخاري وقال : « فبدلوا وقالوا حطة حبة في شجرة » . في غير الصحيحين : « حنطة في شعر » . وقيل : قالوا هطأ هطأ . وهي لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ، حكاه ابن قتيبة ، وحكاها الهروي عن السدي ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمردوا واستهزؤا ، فعاقبهم الله بالرحز وهو العذاب . قال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وروى أن الباب جعل قصيرا ليدخلوه ركما فدخلوه متوزكين على أستاههم . والله أعلم .

السادسة - استدلل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها ، فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ، لزم الله تعالى من بدل ما أمره بقوله ، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

(١) في الأصل : « وحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى ؛ فحكى عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بأحاديثه نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكالهِ ، وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة . وقال مجاهد : انقُص من الحديث إن شئت ولا ترد فيه . وكان مالك بن أنس يشدد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا ويعلمون ذلك ولا يغيرونه . وروى أبو مجلز عن قيس بن عباد قال قال عمر بن الخطاب : من سمع حديثاً فحدث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم ؛ وكذا الخلاف في التقديم والتأخير والزيادة والنقصان ؛ فإن منهم من يعتد بالمعنى ولا يعتد باللفظ ، ومنهم من يشدد في ذلك ولا يفارق اللفظ ؛ وذلك هو الأحوط في الدين والأثق والأولى ؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بالفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للعاني ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ، حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْق : لقيت عدة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فاختلقوا على في اللفظ واجتمعوا في المعنى . وكان النخعي والحسن والشعبي رحمهم الله يأتون بالحديث على المعاني . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثوري رحمه الله : إذا قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني ، إنما هو المعنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسماً فقد هلك الناس . واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقص قصصاً ذكر بعضها في مواضع بالفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربي وهو مخالف لها في التقديم والتأخير ، والحذف والإلقاء ،

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . أخرج بهذا المعنى الحسن والشافعي ، وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " نضر الله أمراً سمع مقاتلي فبلغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلاً أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه : آمنت بكاتبك الذي أنزلت ، ونيك الذي أرسلت ؛ فقال الرجل : ورسولك الذي أرسلت ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ونيك الذي أرسلت " . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأذاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأذاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتد به . ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " قرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بالفاظ مختلفة والمعنى واحد ؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بالفاظ مختلفة ؛ وذلك أدل دليل على الجواز . وأما رده عليه السلام الرجل من قوله : ورسولك إلى قوله ونيك ، لأن لفظ النبي صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن أمم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة . فلما قال : ونيك ، جاء بالنعمة الأمدح ، ثم قيده بالرسالة بقوله : « الذي أرسلت » . وأيضاً فإن نقله من قوله : ورسولك إلى قوله ونيك ليجمع بين النبوة والرسالة ؛ ومستقيم في الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذي أرسله ، وهذا قتيل زيد الذي قتله ؛ لأنك تجتري بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تضيد به إلا المعنى الأول ؛ وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذي أرسله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا . والله ولي التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للزاوي الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثاني تغيير ألفاظ الأول، ويؤدي ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عدست لم يجوز . قال ابن العربي : الخلاف في هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم في معرفة اللغة الحليّة الذوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك في أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغيرت، والفهوم قد تباينت، والموائد قد اختلفت؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمائنا : لقد تعاجم ابن العربي رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يفصل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل؛ نعم لو قال : المطابقة في زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وابن عامر بالتاء مع ضمها، وهي قراءة مجاهد . وقرأها الباقر بالنون مع نصبها، وهي أبينها؛ لأن قبلها «وإذ قلنا ادخلوا» بحرى تغفر على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير وقلنا ادخلوا الباب سجدا نغفر، ولأن بعده «وَسْتَزِيدُ» بالنون . وخطاياكم اتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنت لتأنيث لفظ الخطايا، لأنها جمع خطيئة على التكسير. ووجه القراءة بالياء أنه ذكر لما حال بين المؤنث وبين فعله؛ على ما تقدم في قوله : «فخلق آدم من ربه كلمات» . وحسن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى في قوله : «وإذ قلنا» لأنه قد علم أن ذنوب الخطائين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فاستغنى عن النون ورد الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنة — واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليل : الأصل في خطايا أن يقول : خطائيء، ثم قلب ثقليل : خطائي بهمزة بعدها ياء، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاء؛ فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فذهب إلى أن الأصل مثل خطائيء، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها في مدائن فتقول :

خطائي، ولا تجتمع همزتان في كلمة؛ فأبدلت من الثانية ياء ققلت : خطائي ، ثم عملت كما عملت في الأول . وقال الفراء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هدية وهدايا ؛ قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائي : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة في الهمزة؛ كما قلت : دواب .

التاسعة — قوله تعالى : (وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) أى في إحسان من لم يعبد العجل ، ويقال : ينفر خطايا من رفع المن والسلوى للعد ، وسيزيد في إحسان من لم يرفع للفتد . ويقال : ينفر خطايا من هو عاص ، وسيزيد في إحسان من هو محسن ، أى يزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدم عندهم ؛ وهو اسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيديه ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره . وفي حديث جبريل عليه السلام : " ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت " وذكر الحديث . أخرجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا) الذين في موضع رفع ، أى فبدل الظالمون منهم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حطة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم ؛ فزادوا حرفا في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا ؛ تعريفا أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا في تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب ؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود ! هذا والقول أنقص من العمل ، فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل .

الثانية — قوله تعالى : (فَبَدَّلَ) تقدم معنى بدل وأبدل ؛ وقرى « حَتَّى زَبْنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشيء بغيره . وبذله الله من الحروف

أمتاً . وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدل . واستبدال الشيء بغيره ، وتبديله به إذا أخذه مكانه : والمبادلة التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر . قال ابن دريد : الواحد بديل . والبديل : البدل . وبديل الشيء : غيره ؛ يقال : بَدَلْتُ وِبْدَلْتُ لفتان ؛ مثل : شَبَّهَ وشَبَّهَ ، ومَثَلَ ومَثَلَ ، ونَكَلَ ونَكَلَ . قال أبو عبيد ^(١) : لم يُسمع في قَعَلٍ وفَعَلٍ غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَلُ : وجع يكون في اليدين والرجلين ؛ وقد يَدَلُّ بالكسري يَدَلُّ بَدَلًا .

الثالثة — قوله تعالى : (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) كرر لفظ ظلموا ولم يضممه تعظيماً للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام ؛ كما في هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعد : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : مما كتبوا . وكرر الويل تعظيماً لفعلهم ؛ ومنه قول الحسناء :
تَعَزَّيْنِي الدَّهْرُ نَهْسًا وَحَزًّا * وَأَوْجَعْنِي الدَّهْرُ قَرَعًا وَغَمًّا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتا . والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام ، كقوله تعالى : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » و « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » كان القياس أولاً ما أريد به من التعظيم والتفخيم الحاققة ما هي . والقارعة ما هي ؛ ومثله : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » . كرر أصحاب الميمنة تفخيماً لما ينيلهم من جزيل الثواب ؛ وكرر لفظ أصحاب المشأمة لما ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

لَيْتَ الْغُرَابَ غَدَاةً يَنْعَبُ دَائِبًا * كَانَ الْفَرَابُ مَقْطَعُ الْأَوْدَاجِ

وقد جمع صدي بن زيد المعنيين فقال :

(١) في الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصاح الجوهري .

(٢) في بعض الأصول : « نهش » بالثين المعجمة . والنهش : أن يناول المرء الشيء فبمه ليمضه فيؤثر فيه ولا يجرحه . والنهش : القبض على اللحم وقتره أي جذبه .

لا أرى الموت يسبق الموت شيء * نقص الموت ذا النفس والفسيما
فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر:
ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند أتى من دونها النأي والبعْدُ
فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيا لها .

الرابعة — قوله تعالى: ﴿رَجَزًا﴾ قراءة الجماعة «رجزا» بكسر الراء. وابن محيصن يضم
الراء . والرجز: المذاب بالزاي ، وبالسين : الثن والقدر ، ومنه نوله تعالى : «فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» أى تننا الى تنهم ؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : الرجز هو الرجس .
قال أبو عبيد : كما يقال السُدغ والزُدغ ، وكذا رجس ورجز بمعنى . قال الفراء : وذكر
بعضهم أن الرجز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبدونه ؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : «وَالرُّجْزَ
فَأَنجَرُوا» . وَالرَّجَزَ (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشعر؛ وأنكر الخليل أن يكون شعرا . وهو
مشتق من الرَجَز وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت ارتعشت أخذها . ﴿يَمَّا
كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى بفسقهم . والفسق الخروج ، وقد تقدم . وقال ابن وثاب والنخعي :
«يَفْسُقُونَ» بكسر السين .

قوله تعالى : وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا
مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ كسرت الذال لالتقاء الساكنين .
والسين سين السؤال ، مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك . أى طلب وسأل السُّقَى
لقومه . والعرب تقول : سَقَيْتُهُ وأسقيته ، لغتان بمعنى ؛ قال :

(١) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٢) هولييد (كافى السان) .

سقى قومي بنى نَجْدٍ وَأَسْقَى * مُمَيَّرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ

وقيل : سقى من سقى الشفة، وأسقىته دلته على الماء .

الثانية — الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ بإظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح . وقد استسقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نخرج إلى المصلّى متواضعا متذللا متخشعا مترسلا متضرعا، وحسبك به ؛ فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد ؛ فأتى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر ”ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا“ الحديث . وسيأتى بكلامه إن شاء الله .

الثالثة — سنة الاستسقاء الخروج إلى المصلّى — على الصفة التي ذكرنا — والخطبة والصلاة ؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سنته صلاة ولا خروج، وإنما هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخاري ومسلم . ولا حجة له فيه ؛ فإن ذلك كان دعاء نُجِّتْ إجابته فاكتفى به عما سواه، ولم يقصد بذلك بيان سنة ؛ ولما قصد البيان بين بفعله، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المازني قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلّى فاستسقى وحول رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة في سورة «هود» إن شاء الله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف، وهو

اسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو ؛ قال :^(١)

* على عصويها سايرى مشبرق *^(٢)

(١) هو ذوالرمة . وصدر البيت : * بغاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٢) عصويها : عرقوق الدلو، وهما الخشبنتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسايرى : الدقيق من الثياب .

المشبرق : المخرق .

والجمع عُصَى وَعِصَى، وهو فعول، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة، وأُعِصَ أيضا مثله؛ مثل زَمَنَ وَأَزْمِنَ. وفي المثل: «العَصَا من العُصَيَّة» أى بعض الأمر من بعض. وقولهم: «أُلقي عصاه» أى أقام وترك الأسفار؛ وهو مثل. قال:

فألقت عصاها وأستقر بها النوى * كما قَرَّ عينا بالإياب المسافرُ

وفي التنزيل: «وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا» . وهناك يأتي الكلام في منافعتها إن شاء الله تعالى . قال الفراء: أول لحن سمع بالعراق هذه عصاتي . وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع والافتراق؛ ومنه يقال في الحوارج: قد شَقُّوا عصا المسلمين، أى اجتماعهم وانشقاقهم؛ وانشقت العصا، أى وقع الخلاف؛ قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سيفٌ مَهْنَدٌ

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم: لا ترفع عصاك عن أهلِكَ، يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار، وفى الكثير حِجَار وحجارة؛ والحجارة

نادر، وهو كقولنا: بَحْلٌ وَحِمَالَةٌ، وَذَكَرٌ وَذِكَارَةٌ؛ كذا قال ابن فارس والجوهرى .

قلت: وفى القرآن: «فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ» . «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ» . «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً» .

«تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ» . «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً» فكيف يكون نادرا، إلا أن يريد أنه نادر

فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿فَأَنْفَجَرَتْ﴾ فى الكلام حذف تقديره فاضرب فانفجرت . وقد كان تعالى

قادرا على تفجير الماء وخلق الحجر من غير ضرب؛ لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب

حكمة منه للعباد فى وصولهم الى المراد؛ وليرتب على ذلك نوابهم وعقابهم فى المعاد . والانفجار:

الانشقاق؛ ومنه انشَقَّ الفجر . وانفجر الماء انفجارا: انفتح . والفُجْرَة: موضع تفجر

الماء . والانجاس أضيق من الانفجار؛ لأنه يكون انجاسا ثم يصير انفجارا . وقيل: انجس

وتنجس وتفجّر وتفتّق؛ بمعنى واحد، حكاه المروى وغيره .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ اٰتٰنَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ اثنتا في موضع رفع بانفجرت ، وعلامة الرفع فيها الألف . وأعربت دون نظائرها لأن التثنية معربة أبداً لصحة معناها . « عينا » نصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عِشْرَةَ » بكسر الشين ؛ وهي لغة بني تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . وانحة أهل الحجاز عشرة ؛ وسبيلهم التثقيب . قال جميعه النحاس . والعين من الأسماء المشتركة ؛ يقال : عين الماء ، وعين الإنسان ، وعين الرُّكبة^(١) ، وعين الشمس . والعين : سحابة تقبل من ناحية القبلة ، والعين : مطر يدوم حمسا أو سناً لا يُقَالع . وبلد قليل العين ، أى قليل الناس وما بها عين ، محركة الياء . والعين : الثقب في المزادة . والعين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان ، لخروج الماء منها لخروج الدمع من عين الحيوان وقيل لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبهت به عين الماء لأنها أشرف ما في الأرض .

السادسة : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعضاه حجراً ؛ قيل : مربعاً طُورياً^(٢) (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جَوَّالِقٍ ويرحل به ؛ فإذا نزلوا وضع في وسط محلتهم . وذكروا أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يحدونه في كل مرحلة في منزله من المرحلة الأولى ؛ وهذا أعظم في الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له اسم الحجر ليضرب موسى أى حجر شاء ؛ وهذا أبلغ في الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه . يئنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل ، وفتر بثوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربّعاً ، تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون .

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة وباء موحدة) : نفرة في مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنفرة العين الحاسة . وفي البعض الآخر : « عين الركبة » براء مفتوحة وباء مثناة من تحت . وهي مفجر ماء البر ومنبعها .
(٢) الذي في القاموس أن الياء تحرك وتسكن في العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع الماء وأنفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة ؛ فإننا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ؛ ومعجزة نبينا عليه السلام لم تكن لنبى قبله صلى الله عليه وسلم ، يخرج الماء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتى بتور^(١) فدخل يده فيه ؛ فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ويقول : ” حتى على الطهور “ . قال الأعمش فحدثني سالم بن أبي الجعد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائي .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعني أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمشرب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ، وهم ذرية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام ؛ وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها . قال عطاء : كان للحجر أربعة أوجه يخرج من كل وجه ثلاث أعين ؛ لكل سبط عين لا يخالطهم سواهم ؛ وبلغنا أنه كان في كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أولا ثم يسيل .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ في الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المن والسلوى ، واشربوا الماء المتفجر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْتُوا ﴾ أى تفسدوا . والعيت : شدة الفساد . نهاهم عن ذلك . يقال : عَتَى يَعْتَى عُنْيًا ، وعَتَا يَعْتُو عُنُوًا ، وعَاتَ يَعِيتَ عَيْنًا وَعِيُونًا وَمَعَانًا ، والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَتَّ يَعُتُّ في المضاعف : أفسد ؛ ومنه العتّة وهي السوسة التى تلحس الصوف . و﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ . وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدم في المعاصي والنهي عنها .

(١) التور (بالاء المشددة) : إناء من صفر أو حجارة يشرب منه أو يترضا .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كان هذا القول منهم في التَّيْسَةِ حين ملأوا المن والسلوى ، وتذكروا عيشهم الأول بمصر ، قال الحسن : كانوا ثَنَاتِي أَهْل كُرَاث وَأَبْصَالٍ وَأَعْدَاسٍ ، فَنَزَعُوا إِلَى عِكْرِهِمْ عِكْرَ السَّوَاءِ ، وَاشْتَاقَتْ طِبَاعُهُمْ إِلَى مَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَتُهُمْ ، فَقَالُوا : لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ، وَكُنُوا عَنِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى بِطَعَامٍ وَاحِدٍ وَهُمَا اثْنَانِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ، فَلِذَلِكَ قَالُوا : طَعَامٌ وَاحِدٌ ، وَقِيلَ : لِتَكَرَّرِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ غِذَاءً ، كَمَا تَقُولُ مَنْ يَدَاوِمُ عَلَى الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ : هُوَ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ ، لِلْمَلازِمَةِ لِذَلِكَ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى الْغَنَى فَيَكُونُ جَمِيعُنَا أَغْنِيَاءُ فَلَا يَقْدِرُ بَعْضُنَا عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِبَعْضٍ ، لِاسْتِغْنَاءِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا بِنَفْسِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانُوا ، فَهَمُّ أَوَّلٍ مِنَ اتِّخَاذِ الْعَبِيدِ وَالْخُدَمِ .

قوله تعالى : ﴿عَلَى طَعَامٍ﴾ الطَّعَامُ يُطْلَقُ عَلَى مَا يُطْعَمُ وَيُشْرَبُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » ، وَقَالَ : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أَيْ مَا شَرِبُوهُ مِنَ الْخَمْرِ ، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ . وَإِنْ كَانَ السَّلْوَى الْعَسَلُ — كَمَا حَكَى الْمُؤَرِّجُ — فَهُوَ مُشْرُوبٌ أَيْضًا . وَرَبَّمَا خَصَّ بِالطَّعَامِ الْبُرِّ وَالْتَمَرِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : كُنَّا نُخْرِجُ صَدَقَةَ الْفِطْرِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ أَوْ صَاعًا مِنْ

(١) المَكْرُ (بِكسر أوله وسكون ثانيه) : الْأَصْلُ . وَقِيلَ : الْعَادَةُ وَالِدِيدُن . وَبِالتَّحْرِيكِ دَرْدَى كُلُّ شَيْءٍ .

شعير؛ الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت الى سوق الطعام ، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يشرب . والطعم (بالفتح) هو ما يؤذيه الذوق ؛ يقال : طعمه مرة . والطعم أيضا : ما يشتهي منه ؛ يقال : ليس له طعم ، وما فلان بذى طعم ، إذا كان غثا . والطعم (بالضم) الطعام ؛ قال أبو خراش :

أُرِدْتُ شُجَاعَ الْبَطْنِ ^(١) أَوْ تَعْلَمِيْنَهُ * وَأَوْثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكَ بِالطَّعْمِ
وَأَغْتَبِقُ الْمَاءَ الْقِرَاحَ فَاتْمِي * إِذَا الزَّادُ أَمْسَى لِلزُّبُرِ ^(٢) ذَا طَعْمِ

أراد بالأقول الطعام ، وبالثاني ما يشتهي منه . وقد طعم يطعم فهو طاعم إذا أكل وذاق ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أي من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أي أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمزم : « إِنهَا طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سُقْمٍ ^(٣) » . واستطعمني فلان الحديث إذا أراد أن تحذته . وفي الحديث : « إِذَا اسْتَطَعَمَكُمْ الْإِمَامُ فَأَطْعَمُوهُ » . يقول : إذا استفتح فافتحوا عليه . وفلان ما يطعم النوم إلا قائما . وقال الشاعر :

نَعَامًا بِوَجْرَةٍ صُفِرَ الْخَدَوِ * دَمَا تَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا صَيَامًا ^(٤)

قوله تعالى : « فَأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ » لغة بنى عامر « فادع » بكسر العين لالتقاء الساكنين ؛ يخرجون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف . و « يُخْرِجُ » مجزوم على معنى سله وقل له : أخرج ، يُخْرِجُ . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

(١) في اللسان مادة (طعم) : « قد تعلينه » . (٢) المزج : من معانيه البخل . والمزج بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (٣) أي يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام . (٤) كذا في نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذي في كتب اللغة ومعاجم البلدان :

نَعَامًا بِمَخْطَمَةِ صَعْرِ الْخَدَوِ * دَلَا تَطْعَمُ الْمَاءَ إِلَّا صَيَامًا

وقبله : فَأَمَا يَنْسُو عَامِرَ النَّسَارِ * غَدَاةً لَقُونَا فَكَانُوا نَعَامًا

وهو لبشر بن أبي خازم . ومخْطَمَةُ (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفي اللسان بعد البيت : « يقول : هي صائغة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء ولا قطمته » .

اللام، وضعفه الزجاج . ومن، في قوله « مما » زائدة في قول الأخفش، وغير زائدة في قول سيويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش الى هذا لأنه لم يجد مفعولا ليخرج فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سائر الكلام؛ التقدير يخرج لنا مما تنبت الأرض ما كولا . فـ« من » الأولى على هذا للتبعية، والثانية للتخصيص . و (مِنْ بَقْلِهَا) بدل من ما بإعادة الحرف . (وَفَنَائِهَا) عطف عليه ؛ وكذا ما بعده ، فاعلمه . والبقل معروف، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقثاء أيضا معروف ، وقد تضم قافه ، وهى قراءة يحيى بن وثاب وطاحه بن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر . وقيل فى جمع قثاء : قَثَائِيّ ؛ مثل عِلْبَاء وَعَلَائِيّ ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو ؛ تقول : أفتات القوم أى أطعمتهم ذلك ، [وَفَنَائَاتُ الْقَدَرِ سَكَنْتْ غَلِيَانَهَا بِالماء ؛ قال الجعدى :

تفور علينا قَدْرُهُمْ فَنَدِيمُهَا * وَتَفَنَّتْهَا عَنَّا إِذَا حَمِيَهَا غَلَا

وفنأت الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكنت غضبه . وعدا حتى أفتا، أى أعيأ وانهر . وأفتا الحر أى سكن وقتر . ومن أمثالهم فى اليسير من البر قولهم : إن الرِيثَةَ تَفَنَّتْ الغضب . وأصله أن رجلا كان غضب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسَقَوْهُ رِيثَةَ فسكن غضبه وكف عنهم .

الرِيثَةُ : اللبن المحلوب على الحامض لِيَخْتَرُ . رَنَات اللبن رَنًا إذا حلبته على حامض فاختَر، والاسم الرِيثَةُ . وارتثا اللبن خَثَر [. وروى ابن ماجه حدثنا محمد بن عبد الله بن ثُمير حدثنا يونس بن بكير حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أُمِّي تعالجنى للسَّمْنَةِ تريد أن تُدخِلَنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القِثَاء بِالرُّطْبِ فَسَمِنْتُ كَأَحْسَنِ سَمْنَةٍ . وهذا إسناد صحيح .

(١) الكلام الموضوع بين القوسين نقله المؤلف من معاجم اللغة على أنه من هذه المادة ؛ والواقع أنه من مادة «فثا» بالفاء لا بالقاف .

قوله تعالى : ﴿ وَفُومَهَا ﴾ اختلف في الفوم ، ف قيل : هو النوم ، لأنه المشا كل للبصل ،
رواه جويبر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء ، كما قالوا : مغافير ومغائير ، وحدث^(١) وحدث^(٢)
للقيبر . وقرأ ابن مسعود « فومها » بالثاء المثناة ، وروى ذلك عن ابن عباس . وقال أمية بن
أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة * فيها الفراديس والفومان والبصل

الفراديس : واحدها فرديس ، وكرم مفردس أى معرّش .

وقال حسان :

وأتم أناس لنا الأصول * طعامكم الفوم والحوقل

يعنى الثوم والبصل ، وهو قول الكسائي والنضر بن شميل . وقيل : الفوم : الحنطة ،
روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين ، واختاره النحاس ، قال : وهو أولى ، ومن قال به
أعلى ، وأسانيده صحاح ، وليس جويبر بنظير لرواته ، وإن كان الكسائي والفراء قد اختارا القول
الأول ، لإبدال العرب الفاء من الثاء ، والإبدال لا يقاس عليه ، وإيس ذلك بكثير فى كلام
العرب . وأنشد ابن عباس لمن سألته عن الفوم وأنه الحنطة ، قول أحيحة بن الجلاح :
قد كنت أغنى الناس شخصا واجدا * ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعاما لا برفيه والبر أصل الغذاء ! . وقال

الجاهلي أبو نصر : الفوم : الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبني كأغنى واجد * نزل المدينة عن زراعة فوم^(٣)

وقال ابن دريد : الفومة السنبلة ، وأنشد :

وقال ربيهم لما أتانا * يكفّه فومة أو فومتان^(٤)

(١) المغافير : قيل : هو صغ يسيل من شجر العرطف رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغاني (ج ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : « عن زراعة فول » . وقيل البيت :

ولقد نظرت الى الشموس ودونها * خرج من الرحمن غير قليل

وأذا فالقافية لامية . (٣) فى بعض الأصول : « وقال ربيهم » . الربى . (ومثله الربشة) :

العين والطيعة الذى ينظر للفوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهاء في «كفّه» غير مشبعة . وقال بعضهم : الفوم : الحمص ، لغة شامية . وبائمه فامى ، مغير عن فومى ، لأنهم قد يغيرون في النسب كما قالوا : سُهْلِي ودُهْرِي . ويقال : قَوْمُوا لنا ، أى اختيروا . قال الفراء : هى لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفوم كل حب يُخْتَبَر .

مسئلة — اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول ؛ فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ، للأحاديث الثابتة في ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضا إلى المنع ، وقالوا : كل ما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والنشأغل به . واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَمَّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيه عليه السلام بأنه يحترم الخبائث . ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى ببذر فيه خَضِرَات من بقول فوجد لها ريحا ، قال : فأخبر بما فيها من البقول ؛ فقال : قربوها إلى بعض أصحابه كان معه . فلما رآه أكلها ، قال : ” كُلْ فَإِنِّي أَنَا جِي مَنْ لَا تُنَاجِي “ . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بين في الخصوص له والإباحة لغيره . وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي أيوب أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل على أبي أيوب ، فصنع للنبي صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثوم ؛ فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل له : لم يأكل . ففرع وصعد إليه فقال : أحرام هو ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا ولكنى أكرهه “ . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى (يعنى يأتيه الوحي) . فهذا نص على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثوم زمن خيبر وفتحها : ” أيها الناس إنه ليس لى تحريم ما أحل الله ولكنها شجرة أكره ريحها “ . . فهذه الأحاديث تشعربأن الحكم خاص به ، إذ هو المخصوص بمناجاة الملك . لكن قد علمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضى التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال : ” من أكل من

(١) في الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبي داود . يعنى بالبدر انطبق ؛ شبه بالبدر لاستدارته .

هذه البقلة الثوم — وقال مرة : من أكل البصل والثوم والكراث — فلا يقربن مسجداً فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فمن أكلهما فليغمثهما طَبْخاً . أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِيهَا وَبَصَلُهَا ﴾ العدس معروف . والعدسة : بثرة تخرج بالإنسان ، وربما قتلت . وعدس : زجر للبغال ؛ قال :

عدس ما لعباد عليك إمارة * نجوت وهذا تحلين طليق^(١)

والعدس : شدة الوطء ، والكدح أيضاً ؛ يقال : عدسه . وعدس فى الأرض : ذهب فيها . وعدست إليه المنية أى سارت ؛ قال الكُميت :

أكلّفها هول الظلام ولم أزل * أذا الليل معدوساً إلى وعادسا

أى يسار إلى الليل . وعدس : لغة فى حدس ؛ قاله الجوهري . ويؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث على أنه قال : «عليكم بالعدس فإنه مبارك مقدس وإنه يرق القلب ويكثر الدمعة فإنه بارك فيه سبعون نبياً آخرهم عيسى بن مريم» ؛ ذكره الثعلبي وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوماً خبزاً بزيت ، ويوماً بلحم ، ويوماً بعدس . قال الحليمي : والعدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفف البدن فيخفف للعبادة ، ولا تتور منه الشهوات كما تتور من اللحم . والحنطة من جملة الحبوب وهى القوم على الصحيح ؛ والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة ؛ كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام . فصار لكل واحد من الحبتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبي صلى الله

(١) البيت ليزيد بن مفرغ . (٢) فى بعض نسخ الأصل : «بلح» .

عليه وسلم لم يَشَبَّعْ هو وأهله من خُبْرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَابَعَةٍ مِنْذُ قَدِيمِ الْمَدِينَةِ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ، ومنه البدل ، وقد تقدّم . و «أَدْنَى» مأخوذ عند الزجاج من الدنو أى القرب فى القيمة ، من قولهم : ثوب مُقَارِبٌ أى قليل الثمن . وقال على بن سليمان : هو مهموز من الدنى البين الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدون أى الأخط ، فاصله أدّون ، أفعل ، قَابَ بجاء أفلع ، وحَوَّلَت الواو ألفاً لتطرفها . وقرئ فى الشواذ أدنى . ومعنى الآية : أتستبدلون البقل والقيثاء والقوم والعُدى والبصل الذى هو أدنى بالمتن والسلوى الذى هو خير .

واختلف فى الوجوه التى توجب فضل المتن والسلوى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأول — أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المتن والسلوى كانا أفضل ، قاله الزجاج .

الثانى — لما كان المتن والسلوى طعاماً من الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان فى استدامة أمر الله وشكر نعمته أجراً وذخراً فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هذه الخصال ، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثالث — لما كان ما من الله به عليهم أطيب وألذ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابع — لما كان ما أعطوا لا كُفَّةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجىء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لما كان ما يتزل عليهم لا مِرْيَةً فى حِلِّهِ وَخُلُوصَهُ لِرَبِّهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

مسئلة — في هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل، ويشرب الماء البارد العذب . وسيأتى هذا المعنى في « المائدة » و « النحل » إن شاء الله مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ تقدم معنى المهبوط ؛ وهذا أمر بمعناه التعجيز؛ كقوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدًا » . لأنهم كانوا في التيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعْطُوا ما طلبوه . و « مصرًا » بالتثنية منكراً قراءة الجمهور، وهو خط المصحف . قال مجاهد وغيره : فن صرفها أراد مصرًا من الأمصار غير معين . وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : « أَهْبِطُوا مِصْرًا » قال : مصرًا من هذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صرفها أيضا : أراد مصر فرعون بعينها . استدلل الأولون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه . واستدل الآخرون بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها ؛ قال الأخفش والكسائي : لحقتها وشبهها بهند ودعد؛ وأنشد :

لَمْ تَلَقَّ بِفَضْلِ مَثَرِهَا * دَعْدٌ وَلَمْ تُسَقِّ دَعْدٌ فِي الْعَلَبِ^(١)

بجمع بين اللغتين . وسيدويه والخليل والفراء لا يُجيزون هذا ؛ لأنك لو سَمَّيت امرأة بزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرف . وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطلحة : مِصْرًا بترك الصرف . وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا^(٢) : هي مصر فرعون . قال أشهب قال لي مالك : هي عندي مصر قرينتك مسكن فرعون ؛ ذكره ابن عطية . والمِصر أصله في اللغة الحَد . ومِصر الدار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهل هَجَرَ يكتبون في شروطهم « اشترى فلان الدار بمِصُورِها » أى حدودها؛ قال عدي :

وجاعل الشمسِ مِصْرًا لا خفاءَ به * بين النهار وبين الليل قد فصلا

(١) البيت بغير راء . والماء : أقداح من جنود يحلب فيها اللبن ويشرب . يقول في حضرة رقيقة العيش لا تلبس

لبس الاعراب ولا تنفذي غذاهم . (شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ ماء ، نصب بيان . وقرأ ابن وثاب والنخعي « سَأَلْتُمْ » بكسر السين ؛ يقال : سألتُ وسألتُ بغير همز . وهو من ذوات الواو ، بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى ألزموهما وقضى عليهم بهما ؛ مأخوذ من ضرب القباب ؛ قال الفرزدق فى جرير :

ضَرَبْتَ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بَنَسِجَهَا * وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكَتَابُ الْمُتَزَّلُ
وضرب الحاكم على اليد أى حمل وألزم . والذَّلَّةُ : الدَّلَّ والصَّغَارُ . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودى وإن كان غنياً خالياً من زىَّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذَّلَّةُ فرض الجزية ؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع ؛ وهى مأخوذة من السكون ، أى قَلَّ الفقر حركته ؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذَّلَّةُ الصغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس : وضربت عليهم الذَّلَّةُ والمسكنة قال : هم أصحاب القَبَالَات ^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا ﴾ أى انقلبوا ورجعوا ، أى ألزمهم ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : « أبوءُ بنعمتك علىَّ » أى أَقْرَبُهَا وَأَلْزَمُهَا نَفْسِي . وأصله فى اللغة الرجوع ؛ يقال بَاءَ بِكَذَا ، أى رجع به . وبَاءَ إِلَى الْمَبَاءَةِ — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوْد . وهم فى هذا الأمر بَوَاءُ أى سواء ؛ يرجعون فيه إلى معنى واحد . وقال الشاعر ^(٢) :

أَلَّا تَنْتَهَى عَنَّا مَلُوكٌ وَتَنْتَهَى * مَحَارِمَنَا لَا يَبُورُ الدَّمُّ بِالْأَمْرِ

أى لا يرجع الدم بالدم فى القَوْد . وقال :

قَابُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا * وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفِّدِينَ ^(٣)

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة .

(١) فى تفسير ابن كثير : « ... القبالات بمعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبي (عن شرح

الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كاثوم التغلبي ، ولا شاهد فيه ، إذا الرواية فيه : « قَابُوا ... وَأُبْنَا » .

ومادة « آب » غير مادة « باء » وإن كان معنى المادتين واحداً .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ذلك تعليل . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ ﴾ أى يكذبون بآيات الله ، أى بكتابه ومعجزات أنبيائه ، كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام . ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ معطوف على يكفرون . وروى عن الحسن « يقتلون » وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النبيين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : « إِنْ وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ » . و « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ » فإنه قرأ بلا مد ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترك الهمز فى جميع ذلك الباقون . فأما من همز فهو عنده من أنبا إذا أخبره واسم فاعله مني . ويجمع نبي أنبياء ، وقد جاء فى جمع نبي نبياء ، قال العباس بن مرداس السلمى يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
يا خاتم النبأ إنك مرسل * بالحق كل هدى السبيل هداكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز ، فمنهم من اشتق اشتقاق من همز ، ثم سهل الهمز . ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر . فالنبي من النبوة وهو الارتفاع ، فنزلة النبي رفعة . والنبي بترك الهمز أيضا الطريق ، فسمى الرسول نبيا لاهتداء الخلق به كالطريق ، قال الشاعر :^(١)

لأصبح رثما دقاق الحصى * مكان النبي من الكائب

رثمت الشيء : كسرتة . يقال : رثم أنفه ورثمه ، بالتاء والتاء جميعا . والرثم أيضا المرتوم أى المكسور . والكائب اسم جبل . فالأنبياء لنا كالسبيل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبي الله ، وهمز . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لست بنبي الله — وهمز — ولكنى نبي الله » ولم يهمز . قال أبو على : ضعف سند هذا الحديث ، ومما يقوى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح : * يا خاتم النبأ ... * ولم يؤثر فى ذلك إنكار .

قوله تعالى : ﴿ بَغِيرِ آلِ حَقٍّ ﴾ تعظيم للشبهة والذنب الذى أتوه .

(١) هو أوس بن حجر (كافى اللسان) .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق ؛ فكان هذا تمظيما للشبهة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق ، ولكن يقتل على الحق ؛ فصرح قوله : « يغير الحق » عن شناعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبي قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يغلى بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم ؛ كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا ممن لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال نُصر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا ﴾ ذلك ردُّ على الأول وتأكيد للإشارة إليه . والباء في بما باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصمت النواة إذا اشتدت . والاعتداء : تجاوز الحد في كل شيء ؛ وعُرف في الظلم والمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٦٢) فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا في ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ معناه صاروا يهودا ؛ نُسبوا إلى يهودا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام ؛ فقلبت العرب الذال دالا ، لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غُيرت عن

لفظها . وقيل : سُمُّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب ؛ قال الشاعر :

* إِنِّي أَمْرٌ مِنْ حَبِّهِ هَائِدٌ *

أى تائب . وفي التخريل : « إِنَّا هَدَنَّا إِلَيْكَ » أى تبنا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهبادة إذا تابوا . وقال ابن عرفة : هدنا إليك أى سكا إلى أمرك . والهوادة السكون والمواذعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبو السَّيَّال : « هَادُوا » بفتح الدال .

الثالثة — قوله تعالى : (وَالنَّصَارَى) جمع ، واحده نصراني . وقيل : نصران بإسقاط الياء ، وهذا قول سيبويه . والأثنى نصرانة ، كندمان وندمانه . وهو نكرة يعترف بالألف واللام ؛ قال الشاعر ^(١) :

صَدْتُ كَمَا صَدَّ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ * سَاقِي نَصَارَى قُبِيلِ الْفِصْحِ صُؤَامِ ^(٢)

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصاري نصري ، ككهرى ومهاري . وأنشد سيبويه شاهدا على قوله :

نَرَاهُ إِذَا دَارَ الْعِشَاءُ مُتَحَنِّنًا * وَبُضْجِي لَدَيْهِ وَهُوَ نَصْرَانُ شَامِسٍ

وأنشد :

فَكَلَّتَاهُمَا نَحْرَتُ وَأَسْجَدُ رَأْسُهَا * كَمَا أَسْجَدْتُ نَصْرَانَةً لَمْ تَحْنِفِ ^(٣)

يقال أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهم قالوا : رجل نصراني وامرأة نصرانية . ونَصْرَهُ : جعله نصرانيا . وفي الحديث : « فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيُنَصْرَانِهِ » . وقال عليه السلام : « لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ »

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقه عرض عليها الماء فضاخه . (٢) في نسخ الأصل : « الصبح »

بالياء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصاري ، وهو ميد لهم . (٣) البيت لأبي الأحرز الحماني ،

يصف ناقين طاطاتاه ، وهما من الإغيا . فشبه رأس الناقه برأس النصرانية إذا طاطأتها في صلاتها . (عن شرح

القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها، وقياسه النصرانيون . ثم قيل : سُمُوا بذلك لقرية تسمى « ناصرة » كان يترها عيسى عليه السلام فنسب اليها فقيل : عيسى الناصري ؛ فلما نُسب أصحابه اليه قيل النصارى ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وقال الجوهري : ونَصْران قرية بالشام ينسب اليها النصارى ، ويقال ناصرة . وقيل : سُمُوا بذلك لنصرة بعضهم بعضا ؛ قال الشاعر :

لما رأيتُ نَبَطًا أنصارا * تَمَرَّتْ عن رُكْبَتِي الإزارا
* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمُوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِغِينَ ﴾ جمع صابىء ، وقيل : صاب ؛ ولذلك اختلفوا في همزه ، وهمزة الجهور إلا ناعما . فمن همزه جعله من صَبَّاتِ النجوم إذا طلعت ، وصَبَّاتِ نَفْيَةِ الفلام إذا خرجت . ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال . فالصابىء في اللغة : من خرج أو مال من دين إلى دين ؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صَبَا . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامسة — لاختلاف في أن اليهود والنصارى أهل كتاب ، ولأجل كتابهم جازنكاح نسائهم وأكل طعامهم — على ما يأتي بيانه في المائدة — وضربُ الحزبية عليهم ، على ما يأتي في سورة براءة إن شاء الله . واختلف في الصابئين ؛ فقال السُّدِّي : هم فرقة من أهل الكتاب ، وقاله إسحاق بن راهويه . قال ابن المنذر وقال إسحاق : لا بأس بذبائح الصابئين ؛ لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ، إلا أن قبيلتهم نحو مهبط الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وابن أبي نجيم : هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية ، لا تؤكل ذبائحهم . ابن عباس : ولا تنكح نسائهم . وقال الحسن أيضا وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقروءون الزبور ويصلون الخمس ؛ رأيهم زياد

أبن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذي تحصل من مذهبهم ، فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة ؛ وبهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري القادر بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ أى صدق . ومن فى قوله : « من آمن » فى موضع نصب بدل من الذين . والفاء فى قوله : « فلهم » داخلة بسبب الإيهام الذى فى من . ولهم أجرهم ، ابتداء وخبر فى موضع خبر إن . ويحسن أن يكون من فى موضع رفع بالابتداء ، ومعناها الشرط . وآمن ، فى موضع جزم بالشرط ، والفاء الجواب . ولهم أجرهم ، خبر من ، والجملة كلها خبر إن ؛ والمائد على الذين محذوف ؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمان بالرسل والكتب والبعث .

السابعة - إن قال قائل : لم جمع الضمير فى قوله تعالى : « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » وآمن لفظ مفرد ليس بجمع ، وإنما كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أن « من » يقع على الواحد والثنية والجمع ، فحائز أن يرجع الضمير مفردا ومثنى ومجوعا ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » على المعنى . وقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ . وقال الشاعر :

أَلِمَّا بَسَلْتَنِي عَنْكَ إِنْ عَرَضْتُمَا * وَقَوْلَا لَهَا عُوِجَى عَلَى مَنْ تَخَلَّفُوا

وقال الفرزدق :

تَعَالَى فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونُنِي * نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذُبُ يَصْطَحِبَانِ

فحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب ، وتخلّف . وقال تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » فحمل على المعنى ؛ ولوراعى اللفظ لقال : خالدا فيها . وإذا جرى ما بعد من على اللفظ فحائز أن يخالف به بعد على المعنى كما فى هذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجوز أن يخالف به بعد على اللفظ ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقد مضى الكلام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . والحمد لله .

الثامنة - روى عن ابن عباس أن قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية . منسوخ بقوله تعالى : « وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي عليه السلام .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آيَدِكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾

هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلعت فرميت به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابي : النائق الرافع ، والنائق الباسط ، والنائق : الفائق ، وأمراة نائق ومِنتاق : كثيرة الولد . وقال القتيبي : أخذ ذلك من نتق السقاء ، وهو نفضه حتى تنقلع الزبد منه . قال وقوله : «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» قال : قلع من أصله . واختلف في الطور ؛ فقيل : الطور اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام . وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره ؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن لطور ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم يُنبِت . وقال مجاهد وقتادة : أي جبل كان ؛ لا أن مجاهدا قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية ؛ وقاله أبو العالسة . وقد مضى الكلام بل وقع في القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب في مقدمة الكتاب . والحمد لله . رُغم البكري أنه سُمي بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول في سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة ؛ أُلهم : خذوها والتميموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك . فصيحقوا ثم حيوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين

طوله فرسخ في مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأتوا بجر من خلفهم ، ونار من قبل وجوههم ، وقيل لم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبة لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً ، فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها عباده ، فأمرُوا بسجودهم على شق واحد . قال ابن عطية : والذي لا يصح سواء أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان في [قلوبهم] ^(١) لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا ، فخذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِدِّ واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدي . وقيل : بنية وإخلاص . مجاهد : القوة العمل بما فيه . وقيل : بقوة : بكثرة درس . ﴿ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أى تدبروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكتب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نبذ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عيينة ؛ وسيأتي قولها عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . وقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من شر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يعوى إلى شيء منه » . فبين صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بينا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . فما لزم إذا من قبلنا وأخذ عليهم لازم لنا وواجب علينا . قال الله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهود والنصارى ؛ وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئاً ، لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء . روى الترمذي عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عن أَبِي الدرداء قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : « هذا أَوَانٌ يُخْلَسُ فِيهِ الْعِلْمُ »

من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء“ . فقال زياد بن أبيد الأنصاري : كيف يُختَلَس منا وقد قرأنا القرآن ! فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبنائنا . فقال : ”تَكَلِّتُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فَهَاءِ الْمَدِينَةِ هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ“ وذَكَرَ الْحَدِيثَ ، وَسَيَأْتِي . وَخَرَّجَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَيْضًا عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحَةٍ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَزِيَادَ : ”تَكَلِّتُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى“ . وَفِي الْمَوْطَأِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ لِلْإِنْسَانِ : «إِنَّكَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ فَقَهَاؤُهُ ، قَلِيلٌ قُرْأَوُهُ ، تُحْفَظُ فِيهِ حُدُودُ الْقُرْآنِ وَتُضَيِّعُ حُرُوفَهُ ، قَلِيلٌ مِنْ يَسَّالُ ، كَثِيرٌ مَنْ يُعْطَى ، يُطِيلُونَ الصَّلَاةَ وَيُقْصِرُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ ، يَبْدُءُونَ فِيهِ أَعْمَالَهُمْ قَبْلَ أَهْوَائِهِمْ . وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فَقَهَاؤُهُ ، كَثِيرٌ قُرْأَوُهُ ، تُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ ، وَتُضَيِّعُ حُدُودَهُ ؛ كَثِيرٌ مِنْ يَسَّالُ ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطَى ، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ ، وَيُقْصِرُونَ الصَّلَاةَ ، يَبْدُءُونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ » . وَهَذِهِ نَصُوصٌ تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا . وَقَدْ قَالَ يَحْيَى : سَأَلْتُ ابْنَ نَافِعٍ عَنْ قَوْلِهِ : يَبْدُءُونَ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ . قَالَ يَقُولُ : يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَيَتْرَكُونَ الْعَمَلَ بِالَّذِي افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ . وَتَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ^(١) . فَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولى تفعل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم ؛ ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات إتساعاً ومجازاً . وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى من بعد البرهان ؛ وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فضل ، مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ، لأن العرب استغنت عن إظهاره ؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأن ، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر . والتقدير فلولا فضل الله تدارككم . ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ عطف على فضل ، أى لطفه وإمهاله .

(١) ﴿لَكُنْتُمْ﴾ جواب لولا . ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان ؛ وقد تقدم .
وقيل : فضله قبول التوبة ، ورحمته العفو ، والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال :
فعل ما لم يجب . قال ابن فارس في المحمل : الفضل الزيادة والخير ، والإفضال : الإحسان .
قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ علمتم ، معناه
عرفتم أعيانهم ، وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجهة إلى ذات المسمى .
والعلم متوجه إلى أحوال المسمى ؛ فإذا قلت : عرفت زيدا ، فالمراد شخصه . وإذا قلت :
علمت زيدا ، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأول يتعدى الفعل إلى مفعول
واحد وهو قول سيبويه : علمتم بمعنى عرفتم . وعلى الثاني إلى مفعولين ، وحكى الأخفش :
ولقد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفي التنزيل : « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . كل هذا
بمعنى المعرفة فأعلم . ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ صلة الذين . والاعتداء : التجاوز ،
وقد تقدم .

الثانية - روى النسائي عن صفوان بن عسال قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب
بنا إلى هذا النبي . فقال له صاحبه : لا تقل جئ لو سمعك . فإن له أربعة أعين . (٢) فأتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات ؛ فقال لهم : « لا تشركوا بالله
شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تمشوا يريء إلى
ساططان ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا يوم الزحف وعليكم خاصة
يهود ألا تعدوا في السبت » . فقبلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبي . قال : « فما

(٢) الذي في نسخة النسائي : « لو سمعك كان له أربعة أعين »

(١) راجع ص ٢٤٨ .

مع تأنيث العدد أيضا .

يمنعكم أن تتبعوني“! . قالوا : إن داود دعا بالآ يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه في سورة « سبحان » إن شاء الله تعالى .

الثالثة - (فِي السَّبْتِ) معناه في يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد في حكم السبت . والأقول قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطا ويضع فيه وهفة ^(١) وألقاها في ذنب الحوت ، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع لا يُبتلى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِيَ به في الأسواق ، وأعلن الفسقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهى واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بحدار . فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إن للناس لشأنا ؛ فعلوا على الحدار فنظروا فإذا هم قردة ؛ ففتحو الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي ؛ فيقول : ألم ننهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قردة ، والشيوخ خنازير ؛ فأنجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . وسيأتى في الأعراف قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع ؛ فقليل : إن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السبوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء في المسوخ هل ينسل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القردة منهم . واختاره القاضي أبو بكر بن العري . وقال الجمهور : المسوخ لا ينسل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي البعض الآخر : « وهفة » ولم نجد لها معنى .

لهم نسل؛ لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال ابن عباس : لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ابن عطية : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت أن المسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما احتج به ابن العربي وغيره على صحة القول الأول من قوله صلى الله عليه وسلم : «فَقِدْتُ أُمَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا أُدْرَى مَا فَعَلَتْ وَلَا أَرَاهَا إِلَّا الْفَارَ أَلَا تَرَوْنَهَا إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْهُ وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْهُ» . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضَّب رواه مسلم أيضا عن أبي سعيد وجابر ، قال جابر : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بضَبٍّ فأبى أن يأكل منه ، وقال : «لَأُدْرَى لَعَلَّهُ مِنَ الْقُرُونِ الَّتِي مُسَخَّتٌ» فتأول على ما يأتي . قال ابن العربي : وفي البخاري عن عمرو بن ميمون أنه قال : رأيت في الجاهلية قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت في بعض نسخ البخاري وسقط في بعضها ، وثبت في نص الحديث «قد زنت» وسقط هذا اللفظ عند بعضهم . قال ابن العربي : فإن قيل : وكان البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خلقا عن سلف إلى زمان عمرو ؟ قلنا : نعم كذلك كان ، لأن اليهود غيروا الرجم فأراد الله أن يُقيمهم حتى يكون أبلغ في الحجّة على ما أنكروه من ذلك وغيره ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأخبارهم ومسوخهم ، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسرون وما يُعلنون ، ويحصى ما يبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجّة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا ينصرون .

قلت : هذا كلامه في الأحكام ، ولا حجة في شيء منه . وأما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدي في جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقي أن لعمرو بن ميمون الأودي في الصحيحين حكاية من رواية حصّين عنه قال : رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة

(١) في الأصول : «مسوخهم» . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربي .

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر في أى موضع أخرجه البخارى . من كتابه ، فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها ؛ فذكر فى كتاب الجاهلية . وليس فى رواية النعيمى عن القربرى أصلاً شئ ، من هذا الخبر فى القردة ؛ ولعلها من المقححات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارى فى التاريخ الكبير : قال لى نعيم بن حماد أخبرنا هشيم عن أبى بلج وحصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قروء لرجموها فرجمتها معهم . وليس فيه قد زنت . فان صححت هذه الرواية فإنما أخرجه البخارى . بلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يبال بظنه الذى ظنه فى الجاهلية . وذكر أبو عمرو فى الاستيعاب عمرو بن ميمون « وأن كنيته أبو عبد الله معدود فى كبار التابعين من لكوفيين ، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ، لأن رواته مجهولون . قد ذكر البخارى عن نعيم عن هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون الأودى مختصراً قال : أيت فى الجاهلية قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن مؤام عن حصين كما رواه هشيم مختصراً . وأما القصة بطولها فانها تدور على عبد الملك بن مسلم بن عيسى بن حطان ؛ وليس ممن يحتج بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكراً إضافة الزنا لمن غير مكلف ، وإقامة الحدود فى البهائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنسان الجن دون غيرهما . وأما قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفار" فى الضب : "لا أدري لعله من القرون التى مسخت" وما كان مثله ، فإنما كان ظناً وخوفاً أن يكون الضب والفار وغيرهما مما مسخ ، وكان هذا حديثاً منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يحى إليه أن الله لم يجعل للمسوخ نسلاً ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف ، وعلم أن الضب والفار ليسا مما مسخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سألته عن القردة الخنازير : هى مما مسخ ؟ فقال : "إن الله لم يهلك قومًا أو يعذب قومًا فيجعل لهم نسلًا وإن فردة والخنازير كانوا قبل ذلك" . وهذا نص صريح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم ، كتاب القدر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر ؛ فدل على صحة

ما ذكرنا . وبالله توفيقنا . ورؤى عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط ، وردت أفهامهم كأفهام القردة . لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ قردة خبر كان . ﴿ خَاسِيِينَ ﴾ نعت ، وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير في كونوا . ومعناه مبعدين . يقال : خَسَاتِه خَسَاً وخَسِيًّ وانخَسَا ، أى أبعدته فبعد . وقوله تعالى : « يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا » أى مبعدا . وقوله : « آخَسُوا فِيهَا » أى تباعدوا تباعد سخط . قال الكسائي : خَسَا الرجل خُسُوءًا ، وخَسَاتِه خَسًا . ويكون الخاسي بمعنى الصاغر القمى . يقال : قَرُو الرجل قماء وقماء صار قميا ، وهو الصاغر الذليل . وأفاته : صغره وذلكته ، فهو قىء على فعل .

قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجمع نكالًا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأئمة التى مسخت . وقيل : الحيتان ؛ وفيه بُعد . والنكال : الزجر والعقاب . والنكل والنكال : القيود . وسميت القيود أنكالاً لأنها يُنكَل بها أى يمنع . ويقال للجام الثقيل : نَكْلٌ ونَكْلٌ ، لأن الدابة تمنع به . ونَكَل عن الأمر يُنكَل ، ونَكَل يُنكَل إذا امتنع . والتنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنكَل من وراءهم أى يُجَنَّبهم . وقال الأزهري : النكال العقوبة . ابن دريد : والنكَل : الشيء الذى يُنكَل بالإنسان ؛ قال :

* فَأَرَمِ عَلَى أَفْقَاهِم بِمَنكَلِ *

(١) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومما جم اللغة لا تؤيده . والذي بها إنما هو بالكسر لا غير .

(٢) القائل رياح المؤمل . وقوله : * يارب أشقانى بنومؤمل *

(عن شرح الفاموس)

* بصخرة أوعرض جيش جهنم *

وبعد :

قوله : ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ابن عباس والسدى : لما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الفراء : جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ، ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتي بعدهم . واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : لما بين يديها وما خلفها من القرى . وقال قتادة : لما بين يديها من ذنوبهم ، وما خلفها من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال ، ووزنها مفعلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والموعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التذكير بالخير فيما يرق له القلب . قال الماوردي : وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعم كل متق من كل أمة . وقال الزجاج : وموعظة للمتقين لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يتهموا من حرم الله جل وعز ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حرم الله في سبتهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُوا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فيه أربع مسائل : الأولى - قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حكى عن أبي عمرو أنه قرأ "يأمركم" بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب ، وإنما الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يخلس الحركة . ﴿أَنْ تَذْبَحُوا﴾ في موضع نصب بيأمركم ، أى بأن تذبحوا . ﴿بَقَرَةً﴾ نصب بتذبحوا . وقد تقدم معنى الذبح ، فلا معنى لإعادته .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدم في التلاوة ، وقوله : « قَتَلْتُمْ نَفْسًا » مقدم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويموز أن يكون قوله : « قَتَلْتُمْ » في النزول مقدما ، والأمر بالذبح مؤخرا . ويموز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكان الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون وإذا قتلتم مقدما في المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » إلى قوله : « إِلَّا قَلِيلًا » . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . فذكر الركوب متأخرا في الخطاب ؛ ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » . وتقديره أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله في القرآن كثير .

الثالثة - لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى في الغنم ، والنحر أولى في الإبل ، والتخير في البقر . وقيل : الذبح أولى لأنه الذي ذكره الله ، وأقرب المنححر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرم أكل ما منححر مما يُذبح ، أو ذبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه . وسبق في سورة « المائدة » أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ » مستوفى إن شاء الله تعالى . قال الماوردي : وإنما أمروا - والله أعلم - بذبح بقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبده من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة في ذبح البقرة ، وليس بعلة في جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القليل يقتل حتى ، فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى ، والثور اسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر؛ الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

بقر بطنه أى شقه ؛ فالبقرة تشق الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ، لأنه بقر العلم وعرف أصله ، أى شقه . والبقيرة : ثوب يشق فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كمين . وفى حديث ابن عباس فى شأن الهدهد " فبقر الأرض " . قال شمر : بقر نظّر موضع الماء ، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهري : البقر اسم للجنس وجمعه باقر . ابن عرفة : يقال بقر وبافر وبيقور . وقرأ عكرمة وابن يعمر « إن الباقر » . والثور : واحد الثيران . والثور : السبد من الرجال . والثور : القطعة من الاقط . والثور : الطحلب . وثور : جبل . وثور : قبيلة من العرب . وفى الحديث : " ووقت العشاء ما لم يغب نور الشفق " يعنى انتشاره ؛ يقال : نار يشور ثورا وثوراناً إذا انتشر فى الأفق . وفى الحديث : " من أراد العلم فليثور القرآن " . قال شمر : ثوير القرآن قراءته ومفاتيحه العلماء به .

قوله تعالى : (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » وذلك أنهم وجدوا قتيلاً بين أظهرهم — قيل : اسمه عاميل — واشتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتل ورسول الله بين أظهرنا ؛ فأتوه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عما سألوه عنه واحتكوا فيه عنده ؛ قالوا : أتتخذنا هزواً ؟ والهزء : اللعب والسخرية ؛ وقد تقدم . وقرأ المجدرى « أتتخذنا » بالياء ، أى قال ذلك بعضهم لبعض ؛ فاجابهم موسى عليه السلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزؤ جهل ؛ فاستعاذ منه عليه السلام ، لأنها صفة تنفى عن الأنبياء . والجهل قبيض العلم . فاستعاذ من الجهل ، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزواً ،

(١) فى لسان العرب : فأما بقر وبافر وبقر وبقر وباقور وباقورة فأسماء للجمع .

(٢) سيحكم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : « قلنا اضربوه ببعضها » الآية . ص ٥٧

(٣) من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٢٠٧

لمن يخبرهم عن الله تعالى؛ وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان من قال لنبيّ قد ظهرت معجزته ، وقال : إن الله يأمرك بالكذب؛ أتتخذنا هزواً؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلط الطبع والحقاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حنين : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر: اعدل يا محمد . وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للمدين .

قوله تعالى : ﴿ هَزُوا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفْصَ واو مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولا » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هَزُوا ، كما قرأ أهل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم ففيه لغتان ، التخفيف والتثقيب ؛ نحو العسر والبسر والجزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعْل ككُتِبَ وكُتِبَ ، ورُسِّلَ ورُسِّلَ ، وعُوِّنَ وعُوِّنَ . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هَزَء وكَفَء ، لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى في موضعه إن شاء الله تعالى .

مسئلة — فى الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد . وإيس المزاح من الاستهزاء بسبيل ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمة بعده . قال ابن خُوَيْرٍ مَنَادُ : وقد بلغنا أن رجلاً تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبْنَكَ هذه من صوف نعجة أو من صوف كبش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلاً ! فتلا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله لأنه رآه جاهلاً لا يعرف المزح من الاستهزاء ، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

قوله تعالى : **قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ لِنَبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ** قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : **﴿قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ﴾** هذا تعييت منهم وقلة طواعية ؛ ولو امتثلوا الأمر
 وذبحوا أى بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . قاله
 ابن عباس وأبو العالية وغيرهما ؛ ونحو ذلك روى الحسن البصرى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم . ولغة بنى عامر « ادع » وقد تقدم . و **﴿يُبَيِّنُ﴾** مجزوم على جواب الأمر . **﴿مَا هِيَ﴾**
 ابتداء وخبر . وما هية الشيء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعالى : **﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾** فى هذا
 دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل ، لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أى بقرة كانت ؛ فلما زاد
 فى الصفة نسخ الحكم الأول بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتٌ تحاض ، ثم نسخه
 بـ **بَابنة لبون أو حقة** . وكذلك ها هنا لما عييت الصفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم . والفارض :
 المسنة . وقد فرضت تفريض فريضة أى أسنت . ويقال للشيء القديم فارض ؛ قال الراجز :
شَيْبَ أَصْدَاغِي فَرَأْسِي أبيضُ * محافلٌ فيها رجالٌ فُرَضُ^(٢)

يعنى هَرَمَى ؛ وقال آخر :

لعمرك قد أعطيت جارك فارضاً * تُساقى إليه ما تقوم على رجلٍ^(٣)

أى قديماً ؛ وقال آخر :

يَأْرِبُ ذِي ضِغْنٍ عَلَى فَارِضٍ * لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

(١) راجع ص ٢٢٢ (٢) فى الأصول : « محامل » بالميم . والتصويب عن الصراح للجوهري .

* محامل بيض وقوم فرض *

وفيه رواية أخرى رواها ابن الأعرابي هي :

(٣) رواية اللسان : « لعمري لقد » وذكر أنه

يريد أنهم نفال كالحامل . راجع اللسان مادة فرض .

لعلقة بن عوف ، وقد هي بقرة هرة .

أى قديم . و «لا فارض» رفع على الصفة نبقرة . و «لا بكر» عطف . وقيل : لا فارض خبر مبتدأ مضمرة ؛ أى لا هى فارض ، وكذا لا ذلول ، وكذلك لا تسقى الحراث ، وكذلك مسئلة . فاعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القتي أنها التى ولدت . والبكر : الأول من الأولاد ؛ قال :

يَا بَكْرَ بَكْرَيْنِ وَيَا خَلْبَ الْكَيْدِ * أَصْبَحْتَ مِنِّي كَذْرَاعٍ مِّنْ عَصْدِ

والبكر أيضا فى إناث البهائم وبني آدم : ما لم يفتح له الفحل ، وهى مكسورة الباء . وبفتحها الفتي من الإبل . والعوان : النصف التى قد ولدت بطنا أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه ، بخلاف الخيل ؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُنَيْتَ بِهِمُ اللَّوْنِ لَيْسَ بِفَارِضٍ * وَلَا بِعَوَانِ ذَاتِ لَوْنٍ مُّخَصِّفِ

فرس أخصف : إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهد : العوان من البقر هى التى قد ولدت مرة بعد مرة . وحكاها أهل اللغة . ويقال : إن العوان النخلة الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحرب عوان : إذا كان قبلاها حرب بكر ؛ قال زهير :

إِذَا لَقِيتُ حَرْبَ عَوَانٍ مِّضْرَةً * ضُرُوسٌ تَهْزُ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عَصْلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مسنة ، أى هى عوان ، وجمعها «عُون» بضم العين وسكون الواو ؛ وسمع «عُون» بضم الواو كُرْسُل . وقد تقدم . وحكى الفراء من العوان عَوْنٌ تَعْوِيْنًا . قوله تعالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجديد للأمر وتأکید وتنبيه على ترك التعنت فما تركوه ؛ وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو المذكور فى أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفور ؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يسأروا إلى فعل ما أمروا به فقال :

(١) فى الأصول : «تهز» بالزاي . والنصوب عن شرح الديوان . ومعنى «تهز الناس» أى نصيرهم يهرولوا .

أى يكرهونها . ولقحت : اشتدت . وضروس : عضوض سينة الخلق . وعصل : كالحمة معوجة .

« فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيل : لا ، بل على التراخي لأنه لم يعتفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب . قاله ابن خُوَيزِمَنَدَادُ .

قوله تعالى : **قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ** ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ما استفهام مبتدأ ، ولونها الخبر . ويجوز نصب لونها بيبين ، وتكون ما زائدة . واللون واحد الألوان ، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة . واللون : النوع . وفلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ، قال :

كل يوم لتلون * غير هذا بك أجل

ولون البسر تلوننا إذا بدا فيه أثر التضج . واللون : الدقل ، وهو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة واحد لها لينة .

قوله : ﴿ صَفْرَاءُ ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة . قال مكي عن بعضهم : حتى القرن والظلف . وقال الحسن وأبن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضا : صفراء معناه سوداء ، قال الشاعر :

تلك خيلي منه وتلك ركايب * هن صُفْرٌ أولادها كالزبيب

قلت : والأول أصح لأنه الظاهر ، وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا في الإبل ، قال الله تعالى : « كَانَهُ جَمَالَةً صُفْرًا » وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة . ولو أراد السواد لما أكد بالفقوع ، وذلك نعت مختص بالصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ، تقول العرب : أسود حالك وحلكوك وحلوكوك ودجوجي وغير بيب ، وأحمر قاني ، وأبيض ناصع ، ولحق ولحاق ويقيق ، وأخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، هكذا نص نقلة اللغة عن العرب . قال

الكسائي : يقال قَعَّ لونُها يَقَعُّ قُوعًا إذا خلصت صفرتها . والإفقع : سوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وقَعَّ بأصابعه إذا صَوَّتَ بها ومنه حديث ابن عباس : نهى عن التفقيع في الصلاة . وهي الفرقة ، وهي غمز الأصابع حتى تُقْفِضَ ^(١) . ولم ينصرف صفراء في معرفة ولا نكرة ، لأن فيها ألف التانيث وهي ملازمة لخالف الهاء ، لأن ما فيه الهاء ينصرف في النكرة ، كفاطمة وعائشة .

قوله تعالى : ﴿ فَاقْصِصْ لَّوْنَهَا ﴾ يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسْرُ النَّاطِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شمع الشمس يخرج من جلدها ، ولهذا قال ابن عباس : الصفرة تسر النفس . وحَصَّ على لباس النعال الصفرة ؛ حكاه عنه النقاش . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من لبس نعل جلد أصفر قلَّ هَمُّه ، لأن الله تعالى يقول : « صَفْرَاءُ فَاقِصِّ لَوْنَهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ » ؛ حكاه عنه الثعلبي . ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود ، لأنها تُهَمُّ . ومعنى تسرَّ تُعْجِب . وقال أبو العالية : معناه في سمتها ومنظرها فهي ذات وصفين ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالاً رابعاً ، ولم يمثلوا الأمر بعد البيان . وذكر البقر لأنه بمعنى الجمع ، ولذلك قال : « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » فذكره للفظ تذكير البقر . قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وبقور وبقر . وقال الأصمعي : الباقِر جمع باقرة ، قال : ويجمع بقر على باقورة . حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس والأعرج فيما ذكر الثعلبي « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ » بالتاء وشدَّ الشين ؛ جعله فعلاً مستقبلاً وأثَّه . والأصل تشابهه ، ثم أدغم التاء في الشين . وقرأ مجاهد « تَشَبَّهَ » كقراءتهما ،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو تقبض .

إلا أنه بغير ألف . وفي مصحف أبيّ « تشابهت » بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط ، لأن التاء في هذا الباب لا تدغم إلا في المضارعة . وقرأ يحيى بن يعمر « إن الباقر يشابه » جعله فعلا مستقبلا ، وذكر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تشابه » بتخفيف الشين وضم الهاء ؛ وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز « يشابه » بتخفيف الشين والياء ، وإنما جاز في التاء لأن الأصل تشابه فحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر والبيقور والبقير لغات بمعنى ، والعرب تذكره وتؤنثه ، وإلى ذلك ترجع معاني القراءات في تشابه . وقيل : إنما قالوا : « إن البقر تشابه علينا » لأن وجوه البقر تشابه ؛ ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فتنا كقطع الليل نأتى كوجوه البقر . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تشابه ، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ؛ وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا » . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدم على ذكر الاهتداء اهتماما به . و « شاء » في موضع جزم بالشرط ، وجوابه عند سيبويه الجملة إن وما عملت فيه . وعند أبي العباس المبرّد محذوف .

قوله تعالى : قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا آلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلول » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : لا ذلول نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي « لا ذلول » بالنصب على النفي والخبر مضمّر . ويجوز لا هي ذلول ، لا هي تسقي الحرث ، هي مسلمة . ومعنى لا ذلول لم يذلها العمل ؛ يقال : بقرة مذلة بينسة الذل بكسر الذال . ورجل ذليل بين الذل بضم الذال ، أى هي بقرة صعبة غير رخصة لم تذلل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ تَتِيرُ الْأَرْضَ ﴾ تثير في موضع رفع على الصفة للبقرة ، أى هى بقرة لا ذلول مثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحشية ، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، أى لا يُسقى بها لسقى الزرع ولا يسقى عليها . والوقف هاهنا حسن . وقال قوم : « تثير » فعل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لها ، وأنها كانت تحرث ولا تسقى . والوقف على هذا التأويل لا ذلول . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علي بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون تثير مستأنفاً لأن بعده ولا تسقى الحرث ، فلو كان مستأنفاً لما جمع بين الواو ولا . الثانى — أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون « تثير الأرض » في غير العمل مرحا ونشاطا ، كما قال امرؤ القيس :

يُهَيِّلُ وَيُدْرِي تَرْبَهُ وَيُثِيرُهُ * إثارة نَبَاتِ الْهَوَاجِرِ مُجِيسٍ^(١)

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفاً ، « ولا تسقى » معطوف عليه ، فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبجتها ، ومنه الحديث : « أَثِيرُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » وفي رواية أخرى : « من أراد العلم فليثور القرآن » وقد تقدم . وفي التنزيل : « وَأَنَارُوا الْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حرث وزرع . وسيأتى .

مسئلة — في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحصر بها جاز السَّلم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعى والليث والشافعى . وكذلك كل ما يضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصف المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها » . أخرجه مسلم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الصفة تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسلم دية الخطأ في ذمة من أوجبها عليه ديناً إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله : نبات الهواجر ، يعنى الرجل الذى إذا اشتد عليه الحر هال التراب ليصل الى ثراه . والخمس :

صاحب الإبل التى ترد نَحْماً . (٢) في نهاية ابن الأثير واللسان مادة (نور) : « فان فيه » .

الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّم في الحيوان .
وروى عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمن بن سُمرة ، لأنَّ الحيوان لا يوقف على حقيقة
صفته من مشى وحركة ، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتي حكم السَّم وشروطه
في آخر السورة في آية الدِّين ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ((مُسَامَةً)) أى هى مسامة ، ويجوز أن يكون وصفاً ، أى إنها بقرة مسامة
من العرج وسائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالسة . ولا يقال : مسامة من العمل لفى الله
العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ((لَا شِيَةَ فِيهَا)) أى ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها
لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فاقع لونها » . وأصل شية وشية حذفت
الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ، ونظيره الزنة والعدة والصلة . والشية مأخوذة
من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين . وثور موشى : فى وجهه وقوائمه سواد . قال
ابن عرفة : الشية اللون . ولا يقال لمن نَمَ : واش ، حتى يغير الكلام ويلونه فيجعله ضروباً
ويرين منه ما شاء . والوشى : الكثرة . ووشى بنو فلان : كثروا . ويقال : فرس أبلق ،
وكبش أخرج ، وتيس أبرق ، وغراب أبقع ، ونور أشيه . كل ذلك بمعنى البلقه ؛ هكذا
نص أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شددوا فشدد الله عليهم ، ودين الله يسر ، والتعقق
فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى فى قصص هذه البقرة
روايات تلخيصها : أن رجلاً من بنى إسرائيل ولد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها فى غيضة
وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي . ومات الرجل فلما كبر الصبي قالت له
أمه - وكان براً بها - : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب نخذها ؛ فذهب فلما رآته البقرة
جاءت إليه حتى أخذ بقرنها - وكانت مستوحشة - فجعل يقودها نحو أمه ؛ فلقيه
بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التى أمروا بها ؛ فساموه فاشتط عليهم . وكان قيمتها على

ما روى عن عكرمة ثلاثة دنانير، قاتوا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتط علينا ؛ فقال لهم : ارضوه في ملكه ؛ فاشتروها منه بوزنها مرة ؛ قاله عبيدة . السدي : بوزنها عشر مرار . وقيل : بملء مسكها دنانير . وذكر مكي أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فأنه أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بينت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا الآن » . قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا الله . وحكى وجه آخر « قالوا لآن » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبي عمرو « عاداً لولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالوا الآن » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : الآن مبنى على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ، لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت ، فبنيت كما بنى هذا . وفتحت الذون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه كاد أن يفعل ، تشبيها بعسى . وقد تقدم أول السورة . وهذا إخبار عن تنبئهم في ذبحها وقلة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القرطبي محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفا من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ

تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدم على أول القصة ، التقدير وإذا قتلتم نفسا فادارأتم فيها ؛ فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قَيِّمًا » أى أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله كثير ، وقد بيناه أول القصة .

وفي سبب قتله قولان : أحدهما — لابنة له حسناء أحب أن يتروجها ابن عمها فمنعه عمه ؛ فقتله وحمله من قريته الى قرية أخرى فالتقاء هناك . وقيل : ألقاه بين قريتين .
 الثاني — قتله طلبا لميراثه ؛ فإنه كان فقيرا وادعى قتله على بعض الأسباط . قال عكرمة : كان لبني إسرائيل مسجد له إثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ؛ فوجدوا قتيلا في سبط من الأسباط ، فادعى هؤلاء على هؤلاء ؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا بِقَرَّةٍ » الآية . ومعنى اذارأتم : اختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء في الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم لأنه ساكن فزيد ألف الوصل .
 ((وَاللَّهُ مُخْرِجٌ)) ابتداء وخبر . ((مَا كُنْتُمْ)) في موضع نصب بخرج ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ((تَكْتُمُونَ)) جملة في موضع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتُمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يرث قاتل عميد من حينئذ . قاله عبيدة السلماني .
 قال ابن عباس : قتل هذا الرجل عمه ليرثه . قال ابن عطية : وبمثلله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله في موطنه أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي كانت سبب ألا يرث قاتل ؛ ثم ثبت ذلك للإسلام كما ثبت كثير من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العميد من الدية ولا من المال ، إلا فرقة شذت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويرث قاتل الخطأ من المال ولا يرث من الدية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي لأنه لا يهتم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي في قول له آخر : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا من المال ولا من الدية . وهو قول شريح وطاوس والشعبي والنخعي . ورواه الشعبي عن عمرو بن عبد الله قالوا : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يرث قاتل الخطأ من الدية ومن المال جميعا . حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتي بيانه في آية الموارث إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ أَلَمَوْنَ وَيُرِيكُمْ
ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) قيل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيل :
بعجب الذنب إذ فيه يركب خلق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ،
والمقطوع به عضو من أعضائها ، فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مسئلة — استدل مالك رحمه الله في رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول
بالقسامة بقول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني . ومنعه الشافعي وجمهور العلماء ،
قالوا : وهو الصحيح ، لأن قول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني ، خبر يحتمل
الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدعى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين
مع الاحتمال ، فبطل اعتبار قول المقتول دمي عند فلان . وأما قتل بني إسرائيل فكانت
معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه ، وذلك يتضمن الإخبار بقاتله خبرا جازما لا يدخله احتمال
فاfterا . قال ابن العربي : المعجزة إنما كانت في إحيائه فلما صار حيا كان كلامه كسائر كلام
الناس كلهم في القبول والرد ، وهذا فن دقيق من العلم لم يتفطن له إلا مالك ، وليس في القرآن
أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فعليه أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخاري والشافعي
وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يقبل قوله في الدم وهو لا يقبل قوله في درهم .

مسئلة — اختلف العلماء في الحكم بالقسامة ، فروى عن سالم وأبي قلابة وعمر بن
عبد العزيز والحكم بن عينة التوقف في الحكم بها . واليه مال البخاري ، لأنه أتى بحديث
القسامة في غير موضعه . وقال الجمهور : الحكم بالقسامة ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
ثم اختلفوا في كيفية الحكم بها ، فقالت طائفة : يبدأ فيها المدعون بالإيمان فان حلفوا استحقوا ،
وإن نكلوا حلف المدعى عليهم خمسين يمينا وبرءوا . هذا قول أهل المدينة والليث والشافعي
وأحمد وأبي ثور . وهو مقتضى حديث حَوَاصِة ومُحِصَة خرجه الأئمة مالك وغيره . وذُهِبَتْ

طائفة إلى أنه يبدأ بالإيمان المدعى عليهم فيحلفون ويبرءون . روى هذا عن عمر بن الخطاب والشعبي والنخعي ؛ وبه قال الثوري والكوفيون ؛ واحتجوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير ابن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالإيمان المدعى عليهم وهم اليهود ، وبما رواه أبو داود عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود وبدأ بهم : " أيحلف منكم نحسون رجلا " . فأبوا ؛ فقال للأنصار : " استحقوا " فقالوا : نحلف على الغيب يا رسول الله ! بفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم دية على يهود ، لأنه وجد بين أظهرهم . وبقوله عليه السلام : " ولكن اليمين على المدعى عليه " . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به في الدعاوى الذي نبه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : " لو يُعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه " . رد عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عبيد في تبذية اليهود وهم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائي وقال : ولم يتابع سعيد على هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ المدعين يحيى بن سعيد وأبْنُ عيينة وحماد بن زيد وعبد الوهاب الثقفي وعيسى بن حماد وبشر بن المفضل ؛ فهؤلاء سبعة وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد . قال أبو محمد الأصيلي : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عبيد قال في حديثه : قوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من إبل الصدقة ؛ والصدقة لا تعطى في الديات ولا يصالح بها عن غير أهلها ، وحديث أبي داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ؛ وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسه لحرمة الدماء . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيعة على المدعى واليمين على المدعى عليه ، والحكم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخص الله في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم حكما في شيء من الأشياء فيستثنى من جملة هذا الخبر . فما دل عليه الكتاب إلزام القاذف حدّ المقدوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقدوف . وخص

من رمى زوجته بأن أسقط عنه الحد إذا شهد أربع شهادات . ومما خصته السنة حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالقسامة . وقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” البينة على من أدعى واليمين على من أنكر إلا في القسامة “ . أخرجه الدارقطني . وقد احتج مالك لهذه المسئلة في موطنه بما فيه كفاية ، فتأمله هناك .

مسئلة — واختلفوا أيضا في وجوب القود بالقسامة ؛ فأوجب طائفة القود بها ؛ وهو قول مالك والليث وأحمد وأبي ثور ؛ لقوله عليه السلام لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن : ” اتحلّفون وتستحقون دم صاحبكم “ . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقسامة من بني نضر بن مالك . قال الدارقطني : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده صحيحة ؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخاري : رأيت علي بن المديني وأحمد بن حنبل والحميدي وإسحاق بن راهويه يمتنعون به ؛ قاله الدارقطني في السنن . وقالت طائفة : لا قود بالقسامة ، وإنما توجب الدية . روى هذا عن عمر وأبن عباس ؛ وهو قول النخعي والحسن ، وإليه ذهب الثوري والكوفيون والشافعي وإسحاق ، واحتجوا بما رواه مالك عن ابن أبي ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبي حثمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : ” إما أن يدؤا صاحبكم وإما أن يؤذنوا بحرب “ . قالوا : وهذا يدل على الدية لا على القود ؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : ” وتستحقون دم صاحبكم “ دية دم قتيالكم . لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه ؛ لأن الدية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مسئلة — الموجب للقسامة اللوث ولا بد منه . واللوث : أمارة تغلب على الظن صدق مدعى القتل ؛ كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتشحط في دمه ، والمتهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل . وقد اختلف في اللوث والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمي عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا في رواية ابن القاسم عنه .

وروى أشهب عن مالك أنه يقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في اللوث اختلافا كثيرا ؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إلى . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . وروى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمي عند فلان ومات كانت القسامة . وبه قال مالك والليث بن سعد . واحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعى : اللوث الشاهد العدل ، أو يأتى بيّنة وإن لم يكونوا عدولا ، وأوجب الثورى والكوفيون القسامة بوجود القتل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ؛ قالوا : إذا وجد قتيلا فى محلة قوم وبه أئرحلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عقله عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ؛ وهو مخالف للقرآن والسنة ، ولأن فيه إلزام العاقلة مالا بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرار منهم . وذهب مالك والشافعى إلى أن القتل إذا وجد فى محلة قوم أنه هدر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القتل قد يقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مسئلة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنسائي : لا يقول مالك بالقسامة إلا باللوث ، فلم أورد حديث القسامة ولا لوث فيه ؟ قال النسائي : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان ؛ وبأن العداوة لوث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثا ، كما تقدم . قال الشافعى :

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مسئلة — واختلفوا في القتل يوجد في المحلة التي أكرها أربابها؛ فقال أصحاب الرأي : هو على أهل الخطة وليس على السكان شيء ، فإن باعوا دورهم ثم وجد قتل فالدية على المشتري وليس على السكان شيء ، وإن كان أرباب الدور غيباً وقد أكروا دورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغيب وليس على السكان الذي وجد القتل بين أظهرهم شيء . ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدية على السكان في الدور . وحكى هذا القول عن ابن أبي ليلى ، واحتج بأن أهل خير كانوا عمالاً سكاناً يعملون فوجد القتل فيهم . قال الثوري ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل ، يعني أهل الدور . وقال أحمد : القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية . وقال الشافعي : وذلك كله سواء ، ولا عقل ولا قود إلا بينة تقوم ، أو ما يوجب القسامة فيقسم الأولياء . قال ابن المنذر : وهذا أصح .

مسئلة — ولا يخلف في القسامة أقل من خمسين يمينا؛ لقوله عليه السلام في حديث حَوَيْصَةَ وَحَيْصَةَ : ”يُقَسَمُ خَمْسُونَ مِنْكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ“ . فإن كان المستحقون خمسين حلف كل واحد منهم يمينا واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نكّل منهم من لا يجوز عفوهم ردت الأيمان عليهم بحسب عددهم . ولا يخلف في العمد أقل من اثنين من الرجال ، لا يخلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء ، يخلف الأولياء ومن يستعين بهم الأولياء من العصبة خمسين يمينا . هذا مذهب مالك والليث والثوري والأوزاعي وأحمد وداود . وروى مطرف عن مالك أنه لا يخلف مع المدعى عليه أحد ويخلف هم أنفسهم — كما لو كانوا واحداً فأكثر — خمسين يمينا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعي . قال الشافعي : لا يُقسم إلا وارث كان القتل عمداً أو خطأ . ولا يخلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة ؛ والورثة يُقسمون على قدر موارثهم . وبه قال أبو ثور واختاره ابن المنذر

وهو الصحيح، لأن من لم يدع عليه لم يكن له سبب يتوجه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يدع عليه برى . وقال مالك في الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فهما ككت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومن نكل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد روى عنه أنه لا يرى في الخطأ قسامة . وتتم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور في كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق .

مسئلة — في قصة البقرة هذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقوم من الفقهاء، واختاره الكرخي ونص عليه ابن بكير القاضي من علمائنا ؛ وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : هو الذي تقتضيه أصول مالك ومنازعه في كتبه ؛ وإليه مال الشافعي ؛ وقد قال الله : « فَبِهِدَاهُمْ آفَتِهِ » على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ((كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى)) أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات . فالكاف في موضع نصب لأنه نعت لمصدر محذوف . ((وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ)) أى علاماته وقدرته . ((لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) كي تعقلوا . وقد تقدم . أى تمنعون من عصيانه . وعقلت نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعقل : الحصون .

قوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ((ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)) القسوة : الصلابة والشدة واليبس . وهى عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتل ، لأنهم حين حي وأخبر بقاتله وعاد الى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كذب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلبا ، ولا أشد تكذيبا لنبيهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى " . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ فَمِى كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو ؛ كما قال : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُدْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل ؛ كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى * وَصُورَتِهَا أَوْ أَنْتَ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب ؛ ومنه قول أبى الأسود الدؤلى :

أَحَبُّ مُحَمَّدًا حَبًّا شَدِيدًا * وَعَبَّاسًا وَحُمَزَةً أَوْ عَلِيًّا

فإن يك حُبهم رشداً أصبه * ولست بخطئ إن كان غيا .

ولم يشك أبو الأسود أن حُبهم رشد ظاهر ، وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » . وقال : أو كان شاكاً من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك ، ومعناها عندكم أيها

المخاطبون وفي نظرهم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتهم : أهى كالحجارة أو أشد من الحجارة ؟ وقد قيل هذا المعنى في قوله تعالى : « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالبحر ، وفيهم من قلبه أشد من البحر . فالمعنى هم فرقتان .

قوله تعالى : « أَوْ أَشَدُّ » أشد مرفوع بالعطف على موضع الكاف في قوله « كالحجارة » لأن المعنى فهى مثل الحجارة أو أشد ؛ ويجوز أو أشد بالفتح عطف على الحجارة . و « قَسَوَةً » نصب على التمييز . وقرأ أبو حنيفة « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْهَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ » قد تقدم معنى الانفجار . ويشق أصله يتشقق أدغمت التاء في الشين ؛ وهذه عبارة عن العيون التى لم تعظم حتى تكون أنهارا ، أو عن الحجارة التى لتشقق وإن لم يخرج ماء منفسح . وقرأ ابن مُصَرِّف « يشقق » بالنون ، وقرأ « لما يتفجر » « لما يشقق » بتشديد لـ فى الموضعين ، وهى قراءة غير متجبهة . وقرأ مالك بن دينار « ينفجر » بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عَذَرَ الحجارة ولم يعذر شق بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لما تتفجر بالتاء ، ولا يجوز لما تشقق بالتاء ؛ لأنه إذا قال تتفجر أشبه بتأنيث الأنهار ؛ وهذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى ، لأن المعنى وإن منها لجارة تشقق ؛ وأما يشقق فمبول على لفظ ما . والشق واحد الشقوق ؛ فهو فى الأصل مصدر ، تقول : بيد فلان ورجليه شقوق ، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشقاق داء يكون بالدواب ، وهو تشقق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها ؛ عن يعقوب . والشق : الصبح . وما ، فى قوله : « لما يتفجر » فى موضع نصب ، لأنها اسم إن واللام للتأكيد . « منه » على لفظ ما ، ويجوز « منها » على المعنى ؛ وكذلك « وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْهَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ » . وقرأ قتادة « وَإِنْ » فى الموضعين مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يقول : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم ، لخروج الماء منها وترديها . قال مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن ابن جريح . وقال بعض المتكلمين في قوله : « وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » : البرد الهابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز ، وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها ، وتخضع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها ؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة ، أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ؛ كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ » ، وكما قال زيد الخيل ^(١) :

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْهَا » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ، أى من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح ؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى روى عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، فلما تحول عنه حق ، وثبت عنه أنه قال : « إن حجرا كان يسلم على^(٢) في الجاهلية إني لأعرفه الآن » . وكما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال لي نبيير اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله » . فناداه حراء : إلى يا رسول الله . وفي التنزيل : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » الآية . وقال : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ

(١) نسب هذا البيت في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد في ترجمة الزبير بن العوام وكذا في كتاب سيبويه إلى

جرير . ويلاحظ أن زيد الخيل توفي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في آخر خلافة عمر رضى الله عنه .

فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف يوم الجمل وقتل في الطريق غيلة . بقول :

لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هي وجبالها وخشعت حزنا له .

(٢) نبيير : جبل معروف عند مكة .

عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » يعنى تذللًا وخضوعًا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) بغافل فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز ، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والباء تأكيد . (عَمَّا تَعْمَلُونَ) أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصوها عليكم ؛ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . ولا تحتاج ما الى عائد إلا أن يعملها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم ، أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء ؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام ما



تم الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله الجزء الثانى ، وأوله قوله تعالى : (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) الآية .